الدكتور احسان عبّاس

العرب في صقلية

دراسة في التاريخ والأدب

دار الثقافة
بيروت - لبنان

العرب فى صقلية

دراسة فى التاريخ والأدب

الدكتور إحسان عباس

العرب في صقلية

دراسة في التاريخ والأدب

دار الثقافة
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية ١٩٧٥

مقدمة فى هذه الدراسة ومصادرها

كان أملى حين بدأت هذه الدراسة أن تكون تأريخاً لحياة الشعر العربى فى صقلية . ولكنى وجدت أن دراسة الشعر لا يمكن أن تتم دون تعمق فى فهم تأريخ صقلية من نواحيه السياسية والاجتماعية والثقافية . ولذلك قدمت البحث فى هذه الجوانب على البحث فى الشعر ، متعمداً الاستقصاء والاستكثار من الحقائق ، بانياً الموضوع بالتدريج دون تحليل كثير أو مقارنات ومقايسات . إذ لا بد فى البدء من تكوين صورة وافية لصقلية الإسلامية فى ناحيتى التاريخ والأدب قبل القيام بالقياس والمقارنة والتحليل .

وكان مما أعانني فى دراسة النواحى التاريخية حضور مادتها فى مجموعتين هما المكتبة الصقلية التى جمعها ميشيل أمارى من المطبوع والمخطوط ، وكتاب العيد المئوى لميلاد ميشيل أمارى Centenario Della nascita di M. Amari وهو يتمم عمل ذلك المؤرخ الكبير بمختارات لم يكن قد عثر عليها . وقد كان أمارى ذا أثر كبير فى توضيح الناحية التاريخية بتحقيقاته واستنتاجاته وآرائه التى ضمنها كتابه الضخم « تاريخ مسلمى صقلية » Storia Dei Musulmani Di Sicilia فهو عمدة كل باحث فى هذه الناحية ، لما وهب مؤلفه من دقة وضبط ونزاهة ، ولأنه بلغ الغاية فى الإحاطة بأطراف الموضوع ، حين اعتمد على المصادر العربية واللاتينية واليونانية والوثائق والنقوش وعلى ما كتبه جماعة تناولوا نواحى الموضوع قبله . والطبعة التى اعتمدتها من كتابه هى الثانية وقد أشرف عليها الأستاذ نللينو وزودها بتعليقات هامة ، ومن تعليقاته تلك أفدت الكثير .

أما الشعر فقد عالجه أمارى أيضاً فى تاريخه ، ولكن حديثه لا يعدو التعريف بالشاعر وترجمة شىء من شعره ، ومعتمده فى ذلك الخريدة للعماد الأصبهانى فى أكثر الأحيان . وقد قسم الشعر إلى موضوعات كالغزل والهجاء

واختار لكل موضوع خير من يمثله من الشعراء الصقليين . وتحدث البارون فون شاك عن الشعر الصقلى فى كتابه :

Poesi und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien

وفى المجلد الثانى من هذا الكتاب فصلان عن صقلية أحدهما للشعر والثانى للفن ، وأولهما مصدر بمقدمة فى الشعر الصقلى ثم بتراجم الشعراء الصقليين وترجمة شيء من أشعارهم .

وقد أفدت مما كتبه هذان المستشرقان الجليلان عن الشعر فائدة جزئية ، وجعلت همى فى استقصاء مادة الشعر من المخطوطات والمطبوعات وجمعت منه قدراً صالحاً يصلح للدرس .

وتبين لى أن المصدر الأول للشعر الصقلى هو « الدرة الخطيرة من شعر شعراء الجزيرة » لابن القطاع (— ٥١٥ هـ) . غير أن هذا الكتاب لا يزال فى طىّ الخفاء والموجود منه مختصرات ونقول . أما المختصرات فهى الآتية :

(ا) مختصر من الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة فى شعر (شعراء) الجزيرة تأليف أبى القاسم على بن جعفر بن على التيمى السعدى رحمه الله ، اختيار الشيخ أبى اسحاق بن أغلب رحمه الله ، ذكر فيه سبعة وستين شاعراً من شعراء جزيرة صقلية . وهذا الكتاب فى المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية (رقم ٢٢١٦ تاريخ) وهو فصلة من مخطوط بمكتبة باريس (رقم ٣٤١٨) لأن أولى ورقاته تبدأ بالرقم ٩٦ وتنتهى بالورقة ١١٠ . وأول ترجمة فيه للأمير أبى القاسم عبد الله بن سليمان الكلبى ، ثم لأميرين من أمراء الكلبيين ، وليس هنالك ما يشير إلى ترتيب معين اتبعه صاحب المختصر ، أو صاحب الأصل ، وربما كان ابتداؤه بالبيت الكلبى إشارة إلى أن هذا هو الترتيب الذى سار عليه ابن القطاع نفسه .

ولست أعرف شيئاً عن الشيخ أبى إسحاق بن أغلب صاحب المختصر ولا عن العصر الذى عاش فيه .

وهذا المختصر ناقص فليس فيه أسماء سبعة وستين شاعراً كما جاء فى المقدمة

فعدد من ذكروا فيه ثلاثة وأربعون، وبعد الورقة ١٠٦ يظهر نقص واضح يدل على سقوط بعض التراجم . كما أن نهاية المختصر ليست فيما يبدو نهاية طبيعية وربما كان فى هذا الموضع نقص آخر . وعلى هامش المختصر كتاب يضم منتخبات من الشعر بينها أشعار وأسماء صقلية ولا نستطيع أن نفرض أن هذه الأسماء التى على الهامش من أصل المختصر نفسه لوجود أسماء من غير صقلية فيما بينها ، بل إننا لو فرضناها من الأصل لما بلغ عدد الشعراء الموجودين فيه سبعة وستين ، فنقص المختصر لا يزال واقعاً .

وقد عمل أبو إسحاق فى اختصاره شيئين :

١ — حذف مقدمة الترجمة فى أغلب الأحيان واكتفى بإيراد الشعر

٢ — أسقط أسماء كثير من الشعراء فلم يورد إلا سبعة وستين من مائة وسبعين شاعراً كانوا فى الأصل .

وليس له فى اختياره منهج واضح وإن أكثر من الاختيار للفقهاء وأهل العربية . ولم يذكر ابن حمديس إما استغناء عن ذلك بشهرته ، وإما لأن ابن القطاع لم يذكره فى شعراء صقلية ، والثانى هو الأرجح .

(ب) الخريدة الجزء الحادى عشر رقم (٤٤٥٩ أدب) بدار الكتب المصرية من الورقة الأولى إلى الحادية والخمسين والمأخوذ من الخريدة فى هذه الأوراق يشمل ٢١ — ٥١ . وفى مواضع أخرى من هذا الجزء ترجمات صقلية أضيفت استدراكاً (انظر الورقة ١١٧ — ١١٨ ، ١٤٣ ، ١٣٧) . والأولى من هذه التراجم مأخوذة من الدرة الخطيرة .

وقد بدأ العماد اختياره بترجمة ابن القطاع صاحب الدرة مع أن المختصر ذكره قبل آخر اثنين فيه . وتمتاز قطعة الخريدة عن غيرها بأنها حفلت بمجموعة ضخمة من شعر صقلية ، ولم يكن العماد فى اختياره متعجلا كما أنه لم يحفل كثيراً بأشعار النحويين وأهل اللغة والفقهاء . وقد أغفل ذكر أبى القاسم ابن سليمان الكلبي الذى أطال صاحب المختصر فى الاختيار من شعره . وكذلك أهمل العماد ذكر ابن الخياط الربعى الصقلى الذى ورد فى المختصر

وفى قطعة المغرب . ولعل العماد أغفله لقلة احتفال ذلك الشاعر بالمحسنات وهو تعليل لا يستقل بالإقناع . وكذلك لم يذكر العماد فى هذه القطعة أبا العرب الصقلى مع أن ابن سعيد صرح بأنه من شعراء الدرة؛ وذلك لأن العماد عده من الأندلسيين .

ومع ما فى اختيار العماد من نقص فقطعة الخريدة خير ما وصلنا من الشعر الصقلى من حيث الكثرة والتنوع . وقد أدرج أمارى قطعة الخريدة فى المكتبة الصقلية ولكنه لم يذكر من الشعر الوارد فيها إلا القليل .

(ج) المغرب وفى الجزء الرابع منه (نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢ تاريخ) قطعة عن صقلية تكون الكتاب الثانى من كتب شمال المغرب حسب ترتيب ابن سعيد واسمها « كتاب الألحان المسلية فى حلى جزيرة صقلية ». والكتاب مصدر « بمنصة » وصف فيها صقلية جغرافيا نقلا عن رحلة لابن عبد ربه والشريف وابن حوقل ، ويتلوها « التاج » وفيه ذكر فتحها ، ثم ترجم للأمير تاج الدولة الكلبى نقلا عن ابن القطاع ، وختم الفصل بذكر نهاية صقلية . ثم بدأ باختيار الشعر فذكر أبا القاسم عبد الله بن سليمان الكلبى فأشبه فى بداءته المختصر ، ثم اختلفا بعد ذلك لأن ابن سعيد رسم لنفسه تقسيمات عامة سار عليها فى كل كتابه ، فهو يقسم الناس إلى طبقات من كتاب وعمال وزهاد وشعراء ويختار لهم شعرا . وفى قسم الشعراء ذكر ابن الخياط الصقلى . ولما ترجم لابن حمديس لم يشر إلى أنه ينقل ترجمته من الدرة كما فعل مع غيره ، وأضاف إلى الصقليين اثنين متأخرين عاشا فى أيام المنصور والمستنصر من بنى عبد المؤمن . وابن سعيد فى اختياراته سريع يورد البيت والبيتين والمقطوعة ولا يهتم بالقصيدة ، ولكنه كان أمينا فألزم نفسه الإشارة إلى الدرة فى كل مرة نقل منها . وهذه القطعة من المغرب نشرها موريتز فى العيد المئوى لميلاد ميشيل أمارى المجلد ١ : ٢٩٣ — ٣٠٠ .

ويلحق بهذه القطعة من عمل ابن سعيد قطعة أخرى أفردها لصقلية فى آخر كتابه « رايات المبرزين » الذى نشره الأستاذ غرسية غومس ؛ وهو اختصار

للمغرب وذكر فيه اثنين لم يذكرهما فى المغرب وهما ابن أبى البشر الصقلى وابن قاضى ميلة .

(د) اختيار على بن منجب الصيرفى أو ابن الصيرفى (٥٤٢هـ) ١١٤٧ — ١١٤٨ من الدرة الخطيرة وهى أقدم المختارات فيما يظهر وتتضمن تسعة عشر شاعراً . والمخطوطة نسخة وحيدة يملكها الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب باشا وقد ترجمها I. Di. Matteo إلى الإيطالية ونشرها ببلرم سنة ١٩٣٧ بعنوان Anteloqia di poeti siciliani stratta da quella di Ibn al-Qatta ، ثم نشرها الشيخ محمد النيفر التونسى فى كتابه « عنوان الأريب » المطبوع بتونس سنة ١٩٥١ .

وأما المصادر التى نقلت عن الدرة الخطيرة فهى :

(ا) القفطى : إنباه الرواة (رقم ٢٨٠١ تاريخ بدار الكتب المصرية) وكتاب المحمدين من الشعراء (رقم ٢٢١٧ تاريخ بالمكتبة التيمورية مصور من مكتبة باريس رقم ٣٣٣٥) . وقد اعتمد السيوطى على الأول منهما فأدرج بعض أسماء صقلية مما ورد فيه فى كتابه بغية الوعاة . ولم يطلع الأستاذ أمارى على هذا الكتاب وإنما اطلع على مختصر الذهبى له . أما المحمدون من الشعراء فهو ناقص وفى القسم الموجود منه بدار الكتب تراجم ستة صقليين بينهم أربعة لم يرد لهم — فيما أعرف — ذكر فى غيره .

(ب) ياقوت : معجم البلدان كما هو واضح فى مادة سمنطاروودان وفى معجم الأدباء ذكر لبعض اللغويين والأدباء .

(حـ) القاضى عياض ، ترتيب المدارك (رقم ٢٢٩٣ تاريخ بدار الكتب المصرية) وما ينقله عن الدرة يصدره بقوله « وأورد له جامع شعر صقلية » . وما نقله القاضى عياض فى كتابه إنما هو أشعار لبعض الفقهاء ، وكل ما ورد عنده موجود فى المجلد الأول من كتاب C.A. (العيد المئوى لميلاد ميشيل أمارى) .

(د) وفى الوافى بالوفيات تراجم لبعض الصقليين ولكن اضطراب نسخة دار الكتب تجعل الإفادة منها عسيرة . وفى الجزء الثالث من الوافى الموجود بمكتبة

أحمد الثالث تحت رقم ٢١/٢٩٢٠ ترجمة لابن أبي البشر الصقلي ومختارات من شعره ، وفي مرآة الزمان ترجمة لأربعة من الصقليين ، قال سبط ابن الجوزى إنهم من الشعراء الذين ذكرهم ابن القطاع في كتابه . وواضح أن سبط ابن الجوزى ينقل عن الخريدة ومن ثم أخطأ فجعل محمد بن عيسى الصقلي بين من ذكرهم ابن القطاع مع أنه من شعراء العصر النورمانى .

هذه هي المصادر التي تدور حول الدرة الخطيرة اختصاراً أو نقلا وهناك مصادر أخرى أهمها .

١ ــ القسم الأول من قطعة الخريدة التي تقدمت الإشارة إليها (أي من الورقة ١ ــ ٢١) وهذا القسم يتضمن شعر أبي الحسن على بن عبد الرحمن بن أبي البشر الصقلي الأنصارى الكاتب منقولة من مجموع لم يذكر اسمه . ويتضمن قطعة أخرى نقلت من كتاب « المختار من النظم والنثر لأفاضل العصر » لابن بشرون المهدوى الذى كان فى صقلية فى العهد النورمانى . وتمتاز هذه المجموعة بأنها المجموعة الوحيدة التي تصور لنا الشعر العربي أيام النورمان ويتمشى مع هذه القطعة ما ورد فى الخريدة الورقة ١١٧ عن أبى الضوء سراج الذى كان فى بلاط رجار ، ويمتاز ما اختاره العماد عن ابن بشرون بوجود النثر الصقلي فيه، إلى جانب الشعر . وعيب العماد فى هذه القطعة تحرجه من الإمعان فى اختيار ما مدح به الكفار . ولو لم يقف هذا الحرج فى طريقه لكانت الفائدة فيما اختاره أبلغ .

٢ ــ الجزء من شعر أبى الحسن على بن عبد الرحمن الصقلي الكاتب رواية الفقيه أبى محمد عبد الله بن يحيى بن حمود الحريمى (الأسكوريال رقم ٤٦٧) .

ولأبى الحسن الصقلي أشعار أخرى متفرقة فى بعض المجاميع الأدبية وقد أورد له صاحب المختصر قصيدة طويلة فى مدح رئيس الرؤساء ، وبعض هذه القصيدة أورده العماد فى ترجمة ابن أبى البشر الصقلي . ومن ثم ثار عندى هذا التساؤل :
هل أبو الحسن على بن عبد الرحمن الصقلي الأنصارى الكاتب هو أبو الحسن على بن عبد الرحمن (ابن أبى البشر) الصقلي الأنصارى الكاتب الذى افتتح

العماد القطعة عن صقلية باسمه؟ وبعد البحث تبين لى أنهما شخص واحد عاش فى القرن الخامس وهاجر إلى مصر ودرس فيها النحو والعروض وتختلط أشعارهما اختلاطاً لا يدع مجالا للشك فى هذه الحقيقة .

٣ ــ ديوان ابن حمديس الصقلى (نشر سكيابا ريللى روما سنة ١٨٩٧) وقد نشر أمارى بعض قصائد ابن حمديس فى المكتبة الصقلية (ص ٥٤٧ ــ ٥٧٣) والملحق الأول (١٣ ــ ٤٦) وقراءة الشعر فى مواطن كثيرة منها مضطربة ؛ وتمتاز نشرة سكيابا ريللى بالترتيب وترقيم القصائد والإشارات الدقيقة إلى اختلاف الروايات . وهى أضبط مما نشره أمارى ولكنها لا تخلو من أخطاء تعمى المعنى على القارئ فى كثير من الأحيان ، وقد أخذت نفسى بتوجيه القراءة التى أراها أكثر إظهاراً للمعنى دون أن أشير إلى ما فارقت فيه قراءة الديوان .

٤ ــ السلفى : المعجم (رقم ٣٩٣٢ تاريخ بدار الكتب المصرية) وهو جزءان اضطربت أرقامهما وربما كانت النسخة كاملة لا ينقصها إلا إعادة ترتيبها . وهذا المعجم يعرفنا بأكثر المهاجرين من صقلية إلى الإسكندرية عند ما احتل النورمان الجزيرة ويلقى أضواء قليلة على بعض حياة صقلية الثقافية وفيه شعر للصقليين غير كثير .

٥ ــ ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة وفيها تراجم بعض الراحلين من صقلية إلى الأندلس مثل سليمان بن محمد الصقلى وترجمته منقولة عن جذوة المقتبس للحميدى ؛ وليس من الضرورى أن نفرد الجذوة بالإشارة والتعريف لأنها لم تحتو من شعر الصقليين إلا على أبيات لسليمان المذكور . وفى الذخيرة ترجمة لابن حمديس وقصائد له لم ترد فى الديوان وشعر لأبى العرب الصقلى وترجمة لابن الصباغ تجمع إلى جانب شعره ثلاثاً من رسائله .

٦ ــ التجيبى . شرح المختار من شعر بشار وفيه قطعه صالحة من شعر ابن الخياط الربعى الصقلى تبلغ ١٨٨ بيتا وفيه بيتان لابن الطوبى وقد كان التجيبى معاصراً وصديقاً لابن الخياط ولكن النسخة المطبوعة من هذا الكتاب غير كاملة وكم كنا نحب أن نراها فى صورتها الكاملة لتكون لابن الخياط

مجموعة أكبر من الشعر إذ الدراسة المتمعنة للشعر الصقلى جعلتنى أختص ابن الخياط بالالتفات لأنه عاش حياته فى صقلية .

٧ — أشعار صقلية : وجدت مكتوبة على الآثار أو على شواهد القبور نشرها الأستاذ أمارى فى مجموعات مثل :

(ا) Amari : Le epigrafi arabiche di Sicilia

(ب) Su le iscrizioni Arabiche del palazze regie di Messina

والثانى من نشر Reale accademia dei lincei سنة ١٨٨٠ — ١٨٨١

وقراءاتها تختلف ، ولكن قراءة الأستاذ أمارى تعد تحسناً واسعاً إذا قيست بقراءة غرغوريو Gregorio فى كتـابه : Rerum Arabicarum qusa ad historiam siculam spectant. (انظر مثلا النص ٢٤ ص ١٦٢)

وهناك مجموعة منسقة منها ليست مقترنة بصور للأصول ، ذكرها جويدى فى محاضراته بالجامعة المصرية (١٩٠٧) ولا تفيدنا هذه الأشعار كثيراً لسببين :

١ — أنها ناقصة مبتورة فى كثير من الأحيان وقد طمس كثير من معالمها .

٢ — أننا لا نقطع بأنها من تأليف الصقليين أنفسهم ، وإلى ذلك أشار الأستاذ جويدى نفسه أيضاً .

وهنالك أشعار صقلية متناثرة فى الكتب التاريخية والأدبية ظفرت ببعضها وألحقته بمجموعة الشعر الصقلى ،وقد رتبت هذه المجموعة ورقمتها وجعلتها ملحقاً لهذه الدراسة ، وكل ما أتمناه أن أستطيع فى يوم من الأيام تقديمها إلى القراء والمشتغلين بالدراسات الأدبية .

وقد جعلت هذه الدراسة فى ثلاثة كتب ، خصصت الأول منها لتاريخ صقلية فى العصر الإسلامى، والثانى لتاريخ المسلمين فيها تحت حكم النورمان ، لأن الجماعة الإسلامية فى تلك الجزيرة شهدت عصرين بينهما جوانب من التفاوت . وفى أحدهما عرفت السيادة الذاتية ، وفى الثانى عرفت الخضوع للحاكم الغريب . أما الكتاب الثالث فدرست فيه الشعر فى هذين العصرين

وبينت فيه المؤثرات التى عملت فى تكوين الشعر الصقلى وما تركته من مظاهر القوة والضعف ، ووضحت موقف صقلية فى طبيعة موقعها بين التأثر والتأثير ، وفى طبيعة النفسيات التى أنشأت ذلك الشعر ، وفيما تركته الفتنة والفتح النورمانى من آثار فيه ، وتحدثت عن الشعر العربى فى ظل السيادة النورمانية ، وختمت الكتاب بفصل عن العلاقة بين الشعر والشخصية الصقلية عامة .

وإنى لأشعر — فى غير زهو أو تكثر — أن هذه الدراسة تضيف شيئاً إلى ما تقدمها من دراسات ، وخاصة فى النواحي الثقافية والأدبية ، لأنه توفر لها من المصادر المخطوطة ما كان مجهولا . فلأول مرة — فيما أعتقد — يستفاد من مختصر الدرة ، وتثقيف اللسان ، وتهذيب المدونة أو مسائل عبد الحق الصقلى وترسل ابن قلاقس ، والزهر الباسم ومعجم السلفى وكتاب المحمدين للقفطى وغيرها .

وإلى جميع الذين أعانونى على إتمام هذا العمل أقدم شكرى الخالص . غير أننى أحب أن أنوه بفضل أستاذى وصديقى الدكتور شوقى ضيف الذى رعى هذه الدراسة بالتوجيه السديد ، كما أشكر صديقى المستشرق الأسبانى الأب زكريا ريميرو الذى ساعدنى فى قراءة تاريخ أمارى ، والسيد ولفرد مدلونج المستشرق الألمانى الذى ترجم ما كتبه شاك عن الشعر الصقلى إلى اللغة الإنجليزية .

والله أسأل أن تكون أخطائى فى هذا الكتاب قليلة ، فأما العصمة فإنها ليست من نصيب الخطائين .

الفهرست

صفحة

الكتاب الثانى

صقلية الإسلامية فى عهد العصر النورمانى

الكتاب الثالث
حياة الشعر العربى فى صقلية الإسلامية

الكتاب الأول

صقلية في العصر الإسلامي



الفصل الأول

الحياة السياسية

١ ــ لمحة جغرافية

٢ ــ صقلية فى العهد البيزنطى

٣ ــ الفتح الإسلامى

٤ ــ الفتن الصقلية فى فترة الانتقال من يد الأغالبة إلى بنى أبى الحسين .

٥ ــ صقلية تحت حكم بنى أبى الحسين الكلبيين

٦ ــ أمراء الطوائف

٧ ــ الحكومة الإسلامية بصقلية



١

لمحة جغرافية

فى ذات يوم من أيام الربيع خرجت برسيفونة الجميلة ابنة ربة الخصب تخطر فى المروج الصقلية الخضر ، وتمتع طرفها بالنظر إلى الجداول المترقرقة ومن حولها صواحبها يقطفن الأزهار ، واقترب منها رب الجحيم والعالم الأدنى فى خفة واختطفها وانحدر بها إلى عالمه .

أسطورة قديمة من تلك الأساطير الكثيرة التى أوحت بها الطبيعة الصقلية ولكن الحقائق الجغرافية من وراء رموزها لا تزال جديدة ، فربة الخصب لم تتخذ مقامها فى تلك الجزيرة عبثاً ، والجحيم لا يزال قابعاً فى ناحية من نواحى الجزيرة تحت بركان إتنا الجبار ، ولا يزال مردة الحدادين يضربون بمطارقهم صفائح الحديد تحت ذلك البركان — الذى كان لغز القرون حتى الفتح الإسلامى — ليعدوا منها صواعق لرب الأولمب . وما تزال سكلا الوحشية تعوى عند المجاز المسينى عواء لا ينقطع وتتقاتل مع خاربديس قتالا كانت تجأر منه سفن القرون الوسطى بالشكوى .

نعم قد تكون بعض المظاهر الطبيعية والاقتصادية تغيرت فى الجزيرة التى كانت عرشاً لربة الخصب ، ربما اختفت منها أنواع من المزروعات وقلت غابات البلوط التى يذكرها ثيوقريطس ، واختفت مدن وقلاع كثيرة جنى عليها تتابع الهجرات وتغير الحكام — كل ذلك قد يخضع للتغير ولكن المظاهر الأساسية لا تزال هنالك — فالخصب لم يفتأ يتكشف عن القمح الذى كانت تعيش عليه روما ، والكرمة والزيتون اللذين جلبهما اليونان ، والليمون والبرتقال اللذين جلبهما العرب وأشجار اللوز والتين ، وأنواع الأزهار . ولا تزال الأرض التى أوحت لثيوقريطس أغانى الرعاة مسرحاً للأغنام السائمة فى السهول

والربى : ولولا أن الغابات فيها قليلة وبعض الجبال قد أصبح عارياً مجرداً من زينته الخضراء لتقدمت فيها حرفة الرعى وصناعات الألبان . وتزدان هذه الطبيعة بالجداول والعيون والفوارات والحمامات وكلها كانت فى يوم ما موضوعات للأساطير .

أما إتنا الشامخ على كل ما حوله فى الجزيرة فإنه يهدر منذراً بالويل ، وقد تلفع بعمامته الثلجية ، وتضرم جوفه بالنار ، فإذا به ذلك السيد الرحيم القاسى فى آن ، الذى يستطيع أن يجمع معجزة القرون الوسطى فى شخصه ، لأنه يمزج « العنصرين » فى كفه . وإذا ثارت حممه غطى الأرض بطبقة خصبة ، وفزع الآمنين .

والحقائق الجغرافية هى التى رسمت للجزيرة حياتها الداخلية : مرتفعات وهضاب فى الداخل لا تسمح للأراضى بالانبساط الواسع وتتباين تباينا واضحاً فى ارتفاعاتها وأشكالها نحو السواحل ، فترسم مواقع الموانى . وعلى أعلى أجزائها بنيت المدن الداخلية لتكون حصينة ، وكان لذلك أثره فى توجيه كل فتح ، وبنيت المدن الساحلية عند خير المواقع صلاحية للملاحة ، وهيأت السواحل حظوظاً متفاوتة لتلك المدن . فالشاطئ الغربى والجنوبى الغربى المقابل لأفريقية أقلها أهمية ، وموانيه قليلة الصلاحية للملاحة ، ونادراً ما تصل المرتفعات فيه إلى البحر إلا فى نتوء واضح يبرز عند شنت ماركو . والساحل الشمالى يكاد يكون مستويا وفيه تقع ثرمة وجفلوذ وبلرم ، ووراء هذه الأخيرة تنحسر الجبال مكونة سهلا من أخصب السهول . وفى الساحل الشرقى ذى الميزات الطبيعية والتاريخية تقع سرقوسة وطبرمين ، وفيه سجل للتاريخ اليونانى والحضارة اليونانية . كما أن الساحل الشمالى شهد بدوره أروع الحضارات السامية .

وموقعها الجغرافى شارك شخصيتها الجغرافية فى تدوين تاريخها وتلوينه ؛ فموقعها فى البحر جعلها ابنة لهذا البحر لا يحوزها إلا من قهره ، ولذلك كانت القوى المتصارعة فى ذلك الميدان المائى تلتقى فيها وجهاً لوجه حتى تقرر تلك السيادة ؛ وتوسطها بين أوروبة وإفريقية جعلها محط النزاع بين أقوام

الشمال والجنوب ، وضيق مجاز مسينة قرن تاريخها بتاريخ أوروبة ، وعند سواحلها كانت تتكسر أمواج الغزاة المتدحرجة فى شبه الجزيرة الإيطالية . ومواجهة بعضها لليونان وفينيقيا ، ومواجهة بعضها لأفريقية أنشأ تفاوتاً فى أجزائها . فتاريخها إذن هو تاريخ الشعوب ذات الحضارات فى حوض البحر المتوسط فهو جزء من تاريخ اليونان والفينيقيين والرومان والقوط والبيزنطيين والعرب — من يد القوط أخذها بلزاريوس قائد جستنيان ، ومن أيدى البيزنطيين انتزعها قادة بنى الأغلب بعد جهاد عنيف .

٢

صقلية فى العهد البيزنطى

لم يلق بلزار يوس قائد جستنيان عناء فى الاستيلاء على صقلية من يد القوط حينما دخلها بجيشه سنة ٥٣٥ م ، فقد عهد إليه الإمبراطور بفتح الجزيرة إن كان ذلك أمراً ميسوراً لا يكلفه جهداً ، ولا يستغرق منه زمناً طويلا . ووجد بلزاريوس كل ما يهيئ له البلوغ إلى غايته — وجد صقلية تكاد تكون خالية من الحاميات القوطية ، وتلقاه السكان فرحين مرحبين يريدون التخلص من حكم القوط ، فاستولى على قطانية ، وفتحت له سرقوسة أبوابها ، ولم يلق مقاومة إلا فى بلرم لأنها كانت مطمئنة إلى مناعة أسوارها وقوة الحامية القوطية فيها ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى أصبحت كل الجزيرة فى قبضته دون أن يزهق نفساً[1] .

وعد القوط هذا التقلب فى عواطف السكان وترحيبهم بالبيزنطيين نكراناً للجميل . إذ كان الصقليون قد رجوا ثيودريك القوطى أن يُعنى بلدهم من الحاميات والفرق العسكرية ، فأجابهم إلى طلبهم ، وترك شؤونهم فى أيديهم ،

(١) Bradley : The Goths p. 209; Hodgkins; Italy and Her Invaders vol; 4 p. 7.

وكانت عاقبة هذا التسامح أن خذلوا القوط وتنكروا لهم أمام الفاتح الجديد ، فلم تدافع مدينة عن نفسها ، ولم يحاول أحد أن يشترك حتى فى مناوشة، ولم يتظاهر السكان بأنهم مغلوبون على أمرهم . بل إنهم حالما شهدوا تلك القلة الضئيلة يقودها بلزاريوس ، نكسوا كل علم قوطى وتنافسوا فيما بينهم فى إظهار الولاء لبلزاريوس وسيده ، فجرحوا بذلك شعور القوط جرحاً عميقاً ظلوا يتلمسونه ويتألمون منه على مر الأيام، حتى إذا أمكنتهم الفرصة أيام توتلا كان أول عمل قاموا به الانتقام لأنفسهم من صقلية الخائنة المتقلبة[١].

ولم تطل الفرحة بالصقليين فسرعان ما وجدوا أنفسهم يدفعون الضرائب الفادحة لخزينة الإمبراطور ، وعين جستنيان للجزيرة بريتوراً Praetor من الدرجة الثانية ، وجعل منها ومن دلماتيا ولاية واحدة[٢].

وخضعت صقلية للأنظمة التى فرضها جستنيان على ما فتحه فى الغرب ، تلك الأنظمة التى جرّتْ ألوان التعاسة على أفريقية وإيطالية . ويرى بروكوبيوس (فى تاريخه السرى) أن البلاد أقفرت من سكانها، وخلّيت الولايات دون حماية، وأصبح حكمها سيئاً، ورزحت تحت عبء الضرائب والاضطهاد الدينى والثورات العسكرية ، ومهما يكن فى كلامه من مبالغة ففيه أيضاً جانب كبير من الحق[٣] .

أما حال الجيش فخير ما يصور لنا بؤس صقلية حينئذ أن العساكر البيزنطية كانت كالمجتمع نفسه أخلاطا من شعوب ، لا يمكن أن تنبت فى صدورهم محبة الوطن . وضعف الإغريق الذين كانوا عَصَب الجسم فى الإمبراطورية ، وغرقوا فى الخرافات والأساطير وأخذوا يتهربون من الجندية ، ويدفعون الفدية عن أنفسهم ، فأصبح التجنيد وقفاً على البرابرة وسكان الحدود ، ولم تكن الموارد الاقتصادية تكفى لتمد الجيوش بما يقوم بحاجاتهم، فلجأ القادة

---

(١) Hodgkins : Italy, vol, 4, p. 8.

(٢) Cambridge Med. History, vol. 2, p. 20-21.

(٣) Cambridge Med. History vol 2, p; 20-21.

والحكام إلى طرق خطيرة النتائج ، فكان القائد مثلا يعهد بأرضه إلى جماعة من الجنود كى يفلحوها ويفيدوا من حاصلاتها[١] . ودخل فى صفوف الجيش جماعة من الفقراء الذين رضوا أن يتقاضوا أجراً قليلا ، وحل هؤلاء بجهلهم محل العسكريين أصحاب الدربة القديمة[٢] . وهكذا تحول الجند إلى حاشية للقائد ، ولم يعودوا أداة لكبح جماح الطغيان بل أصبحوا أداة لإحلال طغيان محل آخر[٣] .

وأما فى الضرائب فكانت صقلية كغيرها من ولايات الدولة فريسة لجشع المحصلين تدفع ضريبة على الأملاك ، وأخرى على الرءوس ، وإتاوات على التجارة والصناعة ، وزيادات إضافية على الضريبة الأولى ، وضرائب للجند ، وأخرى للملاحين وأموالا يبتزها الموظفون ويزيدون بها الحمل ثقلا [٤] . وكانت الحال سيئة فى أيام القوط فزادت سوءاً أيام السادة البيزنطيين حتى إن أحد الجباة فى نهاية القرن السادس أجبر الرعايا العاجزين عن دفع المال على تقديم أبنائهم ، واستطاع موظف تافه الشأن فى صقلية أن يصادر الممتلكات بالقوة ، ويقول القديس جريجوريو : « نحتاج إلى مجلد لنفصل الجور الذى سمعنا به من هذا القبيل »[٥] .

ولم تكن الدولة هى المستغل الوحيد لصقلية بل كانت الكنيسة تشاركها النفوذ والسلطان لكثرة أملاكها فيها ، فكان لكنيسة روما وميلان ورافنا اقطاعات كثيرة (Patrimori) وكانت أملاك كنيسة روما موزعة فى أنحاء الجزيرة حول سرقوسة وقطانية وميلاص وبلرم وجرجنت ، وكان يديرها رئيسان أحدهما فى سرقوسة والثانى فى بلرم[٦] .

(١) Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia vol, 2p. 339

(٢) op. cit., p. 340

(٣) op. cit. p. 341

(٤) Amari : S. D. M. vol, 2 p. 332

(٥) op. cit., p. 333

(٦) op. cit., p. 125

وكان فى الأراضى الكنسية فلاحون يسمون الكولونيين Coloni وهم طبقة من الناس تشبه العبيد فى ارتباطها بالأرض وتدفع الضرائب نقداً أو محصولات[١].

وظلت صقلية — كما كانت من قبل — « أهراء روما » يسافر منها كل عام أسطولان محملان بالقمح ، مرة فى الربيع وأخرى فى الخريف ، وإذا غرقت المؤن فى البحر أو نهبت قبل وصولها ، طولب الكولونيون بالتعويض[٢]. هذا بالإضافة إلى أن جامعى المحصول كانوا يتلاعبون بالمكيال ويزيدون فى نسبة الضريبة المقررة . فلما اعتلى جرجوريو الأول كرسى البابوية سنة ٥٩٠ م ورأى سوء الحال حاول أن يصلحها جهده . وفى الثمانية عشر شهراً الأولى من رئاسته كتب أربع عشرة رسالة إلى وكيل له بصقلية اسمه بطرس يحاول أن يذكره بضرورة النظر فى ظلامات الناس وإنصافهم وتحقيق العدالة فيهم[٣]. فهو يأمره أن يرجع نسبة الضريبة إلى الحد المقرر ، ويكسر المكاييل الكبيرة ، ويصدر لكل فلاح فى أراضى الكنيسة دفتر ضمان Libellus securitatis يقيد فيه ما يدفعه من ضريبة مشروعة[٤]. ومن هذه الرسائل يتبين لنا الحيف الذى كان يصيب طبقات الفلاحين .

وكان المشرفون على أراضى القديس أبولنارس حامى راڤنا يبعثون كل سنة سفناً محملة بمئات القناطير من القمح والفواكه والخضروات والجلود المدبوغة باللون الأرجوانى ، ومحملة بالحرير اللازوردى والمواد الصوفية وغيرها وكلها كانت توفر للكنيسة دخلا هائلا[٥].

وفى أواخر القرن السابع أصبحت الجزيرة حصناً يدفع العدوان عن الجناح الغربى للإمبراطورية وثغرا بين عدوين قويين ، وسمح لها أن تستقل نوعاً فى

---

(١) Gregorovius : History of Rome vol, 2 p. 57

(٢) Gregorovius : History of Rome vol, 2 p. 57

(٣) Hodgkins : Italy and Her Invaders vol, 5 p. 310

(٤) op. cit. 313

(٥) Gregorovius : vol, 2, p. 365

تنظيم قوتها العسكرية ، فأصبح لحاميتها تحت رياسة قائدها الأعلى Strategos نفوذ واسع ، ولكن هذه الحامية كانت غريبة تدافع عن غير وطنها ، ولم يشترك فيها الشعب الصقلى ، بل عاش ضحية لها أو متفرجاً يرمقها بأنظاره وحينا يصفق وحيناً آخر يلعن ويبكى ، ولكنه لم يبادر إلى حمل السلاح أبداً[١]

تلك هى حال الجزيرة بين أطماع الحكومة والكنيسة وفساد حال الجيش ، ومن ثم لم يكن المجتمع الصقلى فى ظل الدولة البيزنطية مجتمعاً سعيداً ناهضاً مكفول الحرية — كانت الجزيرة تضم خليطاً من الأجناس ، أهم عناصره الإغريق والطليان ، وإلى جانبهم جماعات من اليهود تميزوا منذ البدء بانكماشهم على أنفسهم ، وبكره الأجناس الأخرى لهم ، ولكنهم لم يكونوا كثيرى العدد[٢]. وقد حاول جرجوريو أن ينصفهم ويدفع عنهم الاضطهاد . كما حاول أن يغريهم بالتنصر حين كلف وكيله فى صقلية بحط الضرائب عنهم إنْ هم فعلوا[٣]. ولما استولى أسقف بلرم على معبد لليهود وحوله إلى كنيسة ، عد جرجوريو هذا العمل حيفاً ، وأمر الأسقف بأن يدفع ثمن المعبد ، إذ كان رده إلى حاله الأولى قد أصبح عسيراً[٤] . وأضافت الحكومة إلى هذه الأجناس بعض المنفيين ، إذ كانت تعتبر صقلية منفى للمذنبين والمجرمين والعساكر المتمردين .

وامتلأت الجزيرة بقطعان العبيد الذين كثروا بما انضم إليهم من أسرى ومن ملاك صغار عجزوا عن الفلاحة لما بهظتهم الضرائب . فهربوا والتمسوا لهم منازل فى مزارع الأغنياء ودفعوا حرياتهم ثمناً لذلك . وبعد زمن أخذ يقل تردد اسم العبيد فى سجلات الأرض ويحل محله اسم الكولونيين[٥]. ولم تحاول الكنيسة أن تصلح من حالهم بل إن جرجوريو شد وثاقهم فى أملاك البابا ،

(١) Amari, S. D. M. vol, I pp. 341-342
(٢) Amari, S. D. M. vol, P. 324
(٣) Hodgkins, vol, 5 p. 316
(٤) Freeman : Sicily, p. 351
(٥) Amari, S. D. M. vol, I, p. 326

إذ صرفته شهوة الطموح السياسى عن أن يعمل شيئاً فى سبيل أولئك التعساء حين ظن أن تحريرهم يقلل الوارد إلى خزينة البابا، ولم يكفه أنه أقر عبودية الأرض بل حرم عليهم أن يزوجوا أبناءهم من جنس آخر[١].

وكانت الخرافات تسيطر على حياة تلك الأجناس حتى مزجها الناس بالدين ، فعبدوا القديسين وأخذ البابا يخص أهل الحظوة بشىء من بقايا رفاتهم، ويرسل إلى الكنائس النائية هدايا من زيت القناديل التى تضاء عند قبور الشهداء ، أو يبعث بقطن غمس فى ذلك الزيت ثم حفظ فى زجاجة كتب عليها اسم أحد القديسين . ويؤكد جرجوريو نفسه أن لمس هذا الزيت يفعل المعجزات . وانضاف إلى عبادة الرفات إيمان بالخرافات الشائعة وبقيام الأموات من قبورهم ورؤية الهالات المطيفة برءوس القديسين ، والرؤى التى يتمثل فيها الشياطين ، ومن الغريب أن نجد رجلا مثل سان جرجوريو يؤمن بهذه الأباطيل وتكشف « حوارياته » عن إيمانه بكل خرافات عصره، حتى إنه لما دشن إحدى الكنائس باسم القديسة (إغاثة) حامية قطانية من غضب بركان إتنا ، قص سنالك أنه بعد الاحتفال رأى الشيطان قد تمثل خنزيراً وأخذ يروح ويجئ بين أرجل المصلين إلى أن فسحوا له وخرج . وهذه الحواريات ترجمت إلى العربية فى القرن الثامن[٢] .

وفى النصف الأول من القرن الثامن أذاع ليو فى الناس منشوراً يحرم به الصور فى الكنائس ويأمر بإزالتها . وعارضه البابا فى حركته هذه وأرسل إليه رسائل شديدة اللهجة . ولما شاء ليو أن ينتقم من البابا أرسل أسطولا إلى صقلية استولى على ما له من أملاك فيها[٣]. ثم زاد الضرائب على صقلية وقلورية ، وأمر بتسجيل المواليد لكى يضمن للجزية سجلا لا يخطئ ، وكانت ضربته

---

(١) op. cit, pp. 327-329

(٢) Gregorovius, vol, I pp. 73-80

(٣) يقدر ثيوفانس أنها كانت تدر على الكنيسة $3\frac{1}{2}$ تلنت (٣٥ ألف قطعة ذهبية) ولكن الأستاذ أمارى يشك فى صحة هذا الرقم Amari S. D. M. vol, I p. 125

الأخيرة فى هذا السبيل أن اقتطع صقلية وقلورية والبريا من قبضة البابا وضمها إلى بطريركية القسطنطينية [١].

وفى عهد خلفائه نسمع عن اضطهادات فى الجزيرة وعن ضحايا كثيرين من أهل صقلية غير أن الحالة كانت هادئة فى النصف الثانى من القرن الثامن لأن عدد الجيش والقلاع لم يكن يسمح بالثورة [٢].

وقد كان بعد الجزيرة يغرى طامحاً بعد آخر بالاستقلال [٣] وقامت غير محاولة من هذا القبيل كانت آخر واحدة منها سبباً فى دخول المسلمين صقلية .

وجملة القول أن صقلية البيزنطية فقدت — كما يرى الأستاذ أمارى — شخصيتها ومقومات الحياة العمرانية فيها ، واختنق فيها كل شعور بالرفعة الإنسانية ، وبلغت من الانحطاط درجةً ليس ثمةَ ما هو أدنى منها .

٣

الفتح الإسلامى

ولم يكن الفتح العربى نتيجة لشعور الشعب الصقلى بأن حالته سيئة وأن تغير الحاكم قد يؤدى إلى تحسن فى الأحوال ، ولا كان استمراراً للموجة الإسلامية فى اندفاعها الأول الذى كان من نتيجته فتح العراق وسورية ومصر وشمالى أفريقية والأندلس ؛ فليس يمثل ذلك الاندفاع فى صقلية إلا بضع غزوات قام بها المسلمون ، ولم تثبت لهم فى الجزيرة قدماً . ولم تكن تلك الغزوات من أجل الغنيمة دائماً ففى ١٢٢ ﻫ نزل حبيب بن أبى عبيدة ، حفيد عقبة فاتح أفريقية ، أرضَ صقلية ومعه ابنه عبد الرحمن ، وفى نيته أن يمضى فى

---

(١) E. J. Martin : Hist. of the Iconelâsts pp. 77 78

(٢) Amari, S. D. M. vol, I pp. 345-46

(٣) Bury : Hist. of the Eastern Roman Empire p. 295

الفتح حتى يستولى على الجزيرة كلها ، غير أن قيام ميسرة السقاء بثورة فى إفريقية اضطره إلى العودة وأحبط سعيه . وكانت الحوادث فى أفريقية مشغلة للمسلمين ، فحولت جهودهم عن صقلية . والحق أن تلك الغزوات أضافت لى خزينة الدولة شيئاً من المال ولكنها كانت إحدى العقبات فى سبيل الفتح حين جاء أوانه ، لأنها نبهت الروم إلى مدى الأطماع فى نفوس العرب الفاتحين ، وجعلتهم يتخذون من صقلية قاعدة لحماية الإمبراطورية عند حدودها الجنوبية ، فعمروا فيها الحصون والمعاقل ، حتى لم يتركوا جبلا إلا وبنوا عليه حصناً وصاروا يخرجون فى كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها ، وربما صادفوا تجاراً من المسلمين فأخذوهم[١].

إنما كان الفتح نتيجة لحادث من تلك الحوادث المتكررة على مسرح السياسة بصقلية ؛ فإن رجلا اسمه فيمى Euphemius ثار على قسطنطين بطريق صقلية ، لأن البطريق أراد أن يقبض عليه ويعذبه بأمر من حكومة القسطنطينية . وسواء أكان فيمى طامعاً من أولئك الطامعين ، ثار فى سرقوسة وأخفق ، فلجأ إلى المسلمين ، أم أنه اختطف فتاة جميلة كانت قد لجأت إلى دير وشكاه أهلها إلى الإمبراطور ، أم أنه أحب هومونيزه Omoniza الجميلة واغتصبها منه صاحب صقلية[٢] فذهب يستعين بالقيروان عليه — سواء كان هذا السبب أو ذاك ، فالذى حدث فعلا أن فيمى لجأ إلى بنى الأغلب ، يطلب منهم المعونة .

وكانت بين أفريقية وصقلية هدنة لم تنقض مدتها ؛ ولذلك جمع زيادة الله وجوه أهل القيروان وفقهاءها ، وفيهم أسد بن الفرات وأبو محرز القاضيان وسحنون الفقيه ، واستشارهم فى الأمر وجلس المجتمعون يقررون مصير صقلية ، أتظل هذه الجزيرة للإمبراطور أم تكون لخليفة بغداد ؟ أتبقى قطعة من القارة الأوروبية أم تصبح جزءاً من أفريقية ؟ وانقسم الناس فريقين : أقلية معتدلة

---

(١) ابن الأثير ٥/٨٩ والمكتبة الصقلية : ٢٢٠ .

(٢) انظر أمارى S.D.M. المجلد الأول : ٣٦٧ — ٣٨١ عن الأسباب المقترنة بثورة فيمى .

متريثة لا ترى الغزو ولا تشير به ، فيها سحنون الذى سأل المجتمعين كم بينها وبين بلاد الروم ، قالوا : يروح الإنسان مرتين وثلاثة فى النهار ويرجع قال : ومن ناحية أفريقية ؟ قالوا يوم وليلة قال لو كنت طائراً ما طرت عليها[١]. وفريق متطرف متحمس ، ينظر أفراده إلى الأمر نظرة دينية ، ويعدون القيام به جهاداً فى سبيل الله ، وإعزازا لدينه ، وغُلبَ سحنون على رأيه ، وبقى للأيام أن تظهر بُعدَ نظره ، وأن صقلية فى موقعها لا يمكن أن تكون جزءاً من إفريقية ، وبقى للأيام أن تثبت مرارة الجهاد عند من تحمسوا له ، وبقى أيضاً شيء واحد لم يكن له لولا الحماسة الدينية من حلّ : هو الهدنة وكيف يستبيح الفقهاء أن يفتوا زيادة الله بنقضها ؟ وعرض الأمر على أسد وأبى محرز وعاد التطرف والاعتدال يقفان موقفهما من تلك المشكلة . فأما أبو محرز فآثر التريث ، وأما أسد فرأى أن يسأل رسل الصقليين ليعرف هل لديهم فى صقلية أسرى من المسلمين . قال أبو محرز : وكيف نقبل قولَ الرسل عليهم أو دفعهم عنهم ؟ فقال أسد : بالرسل هادناهم وبالرسل نجعلهم ناقضين . قال الله عز وجل : " فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون " فكذلك لا نتماسك به ونحن الأعلون[٢].

وحلت العقدة ، أو تحلل زيادة الله من الهدنة ، حين أقر الرسل بوجود الأسرى من المسلمين فى صقلية ، وأذن بالغزو وعهد بالقيادة إلى أسد ، وأقلع الأسطول من مدينة سوسه يوم السبت ، النصف من شهر ربيع الأول سنة ٢١٢ فى نحو مائة مركب ، سوى مراكب فيمى [٣] وأعاد التاريخ نفسه : هذه هى صقلية تُغزَى مرة ثانية من شمال أفريقية كما غزيت أول مرة على يد الفينيقيين ، وهذا هو جيش أسد بن الفرات يدخل صقلية من الجهة التى دخلها منها الفينيقيون أيضاً ، وها هى الجموع السامية تقاتل كما قاتلت من قبل

---

(١) النويرى فى المكتبة : ٤٢٧ — ٤٢٨ .

(٢) رياض النفوس فى المكتبة : ١٨٢ — ١٨٣ .

(٣) النويرى فى المكتبة : ٤٢٨ .

وتحمل دينا آخر تريد أن تبسطه على الجزيرة [١]. وتختلف المصادر فى عدد الجيش الذى خرج مع أسد ، ولكنها تتفق فى أنه كان مكوناً من أشراف أفريقية من العرب والجند — ومعظمهم من الفرس الخراسانيين[٢] — وأسد واحد منهم — ومن البربر والأندلسيين وأهل العلم والبصائر [٣] . ولم يرتح أسد لاشتراك فيمى وأصحابه معه فى القتال ، فأمرهم أن يعتزلوا المسلمين [٤] ، واستطاع — فى وقت قصير — أن يستولى على عدة حصون بينها مازر ، وأن يغنم غنائم كثيرة ، غير أنه عاد فوقع فى خطأ من جاءوا قبله ، حين حاول فتح سرقوسة . حقاً إنه استطاع أن يضيق عليها ويحرق مراكبها ويقتل جماعة من أهلها ، مستعينا بأمداد من أفريقية والأندلس[٥] ، ولكن أسطولا من القسطنطينية وصل لنجدتها وكان الوباء قد تفشى فى المسلمين وهلك من جرائه كثيرون فيهم أسد نفسه[٦]. وكان أسد قد ترك فى كل حصن استولى عليه حامية تضبطه فقل عدد جيشه . ولما رأى المسلمون شدة الوباء نزلوا فى مراكبهم فمنعهم الروم من الخروج ، وعندئذ أحرق المسلمون مراكبهم ، ورحلوا إلى مدينة ميناو Mineo فحصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن [٧].

ونستطيع أن نجمل القول بأن الفتح العربى كما دون فى كتب التاريخ غير ملطف بجو أسطورى ، أو مزوق بشىء من التهويل ، ولكنه على واقعيته التى يتسم بها يكاد يبلغ حد المغالاة فى تصوير المثابرة والنفور من الاستسلام ،

---

(١) أول من أشار إلى هذه الفكرة المؤرخ Grote ثم اعتنقها Freeman وأسهب فى بيانها. انظر الفصل الأول من كتابه Hist. of Sicily المجلد الأول .

(٢) Amari, S. D. M. vol, I, p. 394

(٣) ابن عذارى فى المكتبة : ٣٥٥ .

(٤) ابن الأثير ٦/١٣٧ والمكتبة : ٢٢٢ وأمرهم أسد أن يجعلوا على رؤوسهم سيما يعرفون بها ليلا (انظر المكتبة ١٨٥ عن رياض النفوس) .

(٥) ابن عذارى فى المكتبة : ٣٥٥ .

(٦) يقول ابن خلدون إنه دفن فى بلرم والنص يفيد أن بلرم كانت قد فتحت وهو نص غريب ، إذ يقول بعد قليل ان بلرم فتحت بالأمان سنة ٢١٧ (انظر المكتبة : ٤٦٧) .

(٧) ابن الأثير ٦/١٣٨ والمكتبة : ٢٢٣ .

والذهاب إلى الغاية فى التضحية بالنفس ، وقد كانت الأوبئة والمجاعة والخسارة فى الأرواح كافيةً لأن تخلق اليأس فى نفوس الجند المحاربين ، ولكن يشبه أن يكون فتح صقلية عناداً مستمداً من قوة النفسية التى خرج بها أسد فاتحاً أكثر من كونه سعياً وراء غنيمة أو كسب . وكان مما يزيد المحاربين حرجاً انشغال زيادة الله بفتنة فى الداخل وغزاة من الخارج . ولما أصبح فى مقدور زيادة الله أن يمدهم بالجند فتحوا بلرم سنة ٢١٦ هـ .

وكان فتح بلرم خطوة كبيرة أدتْ إلى الاستيلاء على سائر الجزيرة ، فلم يعد المسلمون فى حاجة إلى الانحياز فى معسكرات أو قلاع صغيرة ، وكانت بلرم مدينة بحرية جيدة الميناء، واتصالها بأفريقية سهل، ولذلك أصبح فى استطاعتهم أن يعتمدوا على مدد دائم من أفريقية ، وأن يحصلوا على المؤن باستمرار . ثم إن المنطقة حول بلرم خصبة يمكنها أن تزود عساكرهم بمؤن كثيرة[1]. ولذلك اتخذها المسلمون قاعدة لهم كما فعل الفينيقيون من قبل ،وأخذوا يزحفون منها على النواحى الأخرى من صقلية فإذا قضوا مهمتهم عادوا إليها . وأخذت السرايا تخرج كل يوم فتغير فى أنحاء الجزيرة ، وترجع محملة بالرقيق والغنائم.وكان من أثر عمليات النهب هذه أن ضعفت روح المقاومة عند كثير من المدن والقلاع ، فاستأمن كثير منها إلى المسلمين[2] وبثت السرايا الرعب حيثما اتجهت .

وعلى هذه الأعمال التمهيدية اعتمد الفتح فى كثير من الأحيان ، وكان حرق المزروعات خطةً مقصودة لتوهين الناحية الاقتصادية ومن ثم إضعاف روح المقاومة عند السكان . إذ كانت المقاومة التى يلقاها المسلمون مزدوجة ، فهم يواجهون القوات المحلية التى يقودها بطريق صقلية ، ويواجهون الجيوش والأساطيل التى ترسلها حكومة القسطنطينية لتدافع عن الجزيرة . وكانت أعنف مراكز المقاومة ثباتاً هى قصريانة وسرقوسة وطبرمين ومنطقة دمنش ، ولذلك كانت السرايا المبثوثة تحاول فى يأس أن تعمل شيئاً . واستولى المسلمون على مسينة

---

(١) انظر أمارى .S. D M المجلد ١ ص ٢٦ .

(٢) ابن الأثير ٦ / ٢٠٢ والمكتبة : ٢٢٨ .

فانفتحت أمامهم الطريق إلى جنوبى إيطاليا . والظاهر أن جهودهم هذه حولت انتباههم عن بقية صقلية، وأتاحت للمدن فرصة تتقوى فيها . لكن أعمال السرايا القائمة على التخريب لم تنقطع فكانت تخرج فى الصيف والشتاء .

وانضم إلى هذه الأعمال الابتدائية عامل ساعد على الفتح ، وبه انهار الركن الثانى من المقاومة — ذلك هو الخيانة المحلية فبمساعدتها تم الاستيلاء على قصر يانة فى ولاية العباس بن الفضل . ففى سنة ٢٤١ أقام العباس ثلاثة أشهر حول قصريانة ، يقتل ويصيب ويغنم ، وكان ممن أسره المسلمون رجل كان له عند الروم قدر ومنزلة[١] فلما رأى هذا الرجل أنه مقتول ، طلب إلى العباس أن يستبقيه ووعده بأن يسهل للمسلمين فتح قصريانة — كان الوقت شتاء والثلجُ قد غطى البقاع ، وأهل قصريانة آمنون من قصد المسلمين وغير مستعدين للقاء ، فأرسل العباس مع الرومى نحو ألفى فارس من عسكره ، فدلهم على المدخل إلى المدينة، فدخلوا ووضعوا السيف فى الروم وفتحوا الأبواب ، ولما دخلها العباس بنى فيها فى الحال مسجداً ونصب فيه منبراً وخطب فيه الجمعة ، وقتل من فيهـا من المقاتلة وأسر من فيها من بنات البطارقة بحليهن ، وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه، وأهدى من سبيها للمتوكل وبسقوطها ذل الشر يومئذ بصقلية ذلا عظيما[٢]. وارتجت المعنويات واهتزت لسقوطها القسطنطينية ، وأرسلت أسطولا ليثأر لها ففجأه المسلمون وقضوا عليه .

ولم تعترف صقلية بالهزيمة لأن قسمها الشرقى وهو أقربها إلى القسطنطينية كان لا يزال ممعناً فى المقاومة بتحريض من الإمبراطور ، بل إن كثيراً من القلاع التى استسلمت للمسلمين انتقضت عليهم سنة ٢٤٦ ولم يجد الوالى المسلم بداًّ من تحصين قصريانة ، لتكون ملجأ يلوذ به المسلمون كما يلوذ الروم بسرقوسة . بل إن العباس حاول التحرش بسرقوسة نفسها ولكن منيته أدركته عند غيران قرقنة ، وطويت بموته صفحة من البطولة والشجاعة والجهاد

---

(١) ابن الأثير ٢٠/٧ والمكتبة : ٢٣٢ .

(٢) ابن الأثير ٢٠/٧ والمكتبة : ٢٣٢ — ٢٣٣ .

الدائب ، فدفنه المسلمون هناك وجاء الروم فنبشوا القبر وأحرقوا جثته [١]. وسار خلفاؤه على سنته فى بث السرايا وتخريب المزارع ، والاستفادة من الخيانة المحلية ، وبواسطتها سلمت نوطس ، واستأمنت رغوس ،وظلت سرقوسة ممتنعة وقصارى كل وال أن يبث فى أرضها السرايا فيغنم ويحرق . وكاد المسلمون يستولون على طبرمين بعون من الخيانة سنة ٢٥٥ ولكن البطء فى تنفيذ الخطة عاقهم عن ذلك[٢] .

وبعد عشرين سنة من سقوط قصريانة جاء دور الركن الثالث من أركان المقاومة وأمير صقلية يومئذ جعفر بن محمد . وظلت سرقوسة التى ظن أسد ابن الفرات أنه يستطيع فتحها تقاوم مائة تزيد على خمسين سنة ؛ ولم تهن عزيمتها إلا حين استطاع جعفر أن يملك بعض أرباضها ، ووصلت إليها مراكب الروم فأصابها المسلمون ، وتمكنوا من حصر المدينة واستمر الحصار تسعة أشهر عانى فيها السكان شدة وضيقا ، ويحدثنا ثيودوسيوس فى رسالة كتبها يصف فيها حصار المسلمين لبلده وكيف قاومت وكيف سقطت Epistolae de expugna-tione Siracusarum ، يحدثنا أن المسلمين أعدوا لحصار سرقوسة كل ما قدروا عليه من آلات الحصار [٣] . ثم نفدت المؤن من المدينة وانتشرت المجاعة بين الناس ، ويقول ثيودوسيوس الراهب الغرماطيقى فى لهجة حزينة : لقد أتينا على كل الدواجن واضطررنا أن نأكل ما كانت تحصله أيدينا ، دون أن نرعى فروض الصوم ، لأن الحبوب والأعشاب والزيت كانت كلها قد نفدت ، وأما صيد السمك فوقف منذ أن قبض العدو على زمام الميناء . وكان المقدار الضئيل من القمح — إذا تيسر — يسوى مائة وخمسين بيزانته ذهبية (الواحدة — ١٠ شلنات) ومن الطحين مائتين ، وأوقيتا الخبز ببيزانتة واحدة ، ورأس حصان أو حمار يباع بخمس عشرة أو عشرين ، أما الفرس فلا يتيسر شراؤها بأقل

---

(١) عن ابن الأثير ٧ / ٢١ والمكتبة : ٢٣٤ .

(٢) عن ابن الأثير ٧/ ٣٤ والمكتبة : ٢٣٦ .

(٣) انظر أمارى .S D.M الجلد الأول : ٥٣٧ .

من ثلاثمائه . . .[١] وكان لا بد لجيش اختلطت فيه ألوان كثيرة من الجنود أن لا يكون مثاليا فى تصرفاته حين يستولى على إحدى المدن ولكن ثيودوسيوس لا ينكر حدوث ما يدل على المعاملة الحسنة والنظام بين الجنود والطاعة لأوامر قائدهم الأعلى . وفى النهاية جعلت سرقوسة تيهاً من الخرائب،ولم تبق فيها نسمة حياة، ولم يكن هنالك ثيوقريطس أو ابن حمديس ليبكى مصرع وطنه[٢] . وأخلى المسلمون المدينة ونقلوا الأسرى والغنائم إلى بلرم[٣]وكان على هؤلاء الأسرى أن يستطعموا مرارة أخرى سوى مرارة الأسر ، تلك هى رؤيتهم مدينة بلرم التى كانوا يرون من الحطة أن يقيموا لها وزنا — رؤيتهم بلرم تحنيهم تحت نيرها . وثارت فى نفوس أولئك الأسرى تلك المنافسة البلدية ولم يستطيعوا أن يفرقوا بين بلرم التى كانت عاصمة لولاية بيزنطية وبين بلرم عاصمة الحكومة الإسلامية[٤]. ويحدثنا ثيودوسيوس بأنه نقل مع الأساقفة ورئيسهم صوفرونيوس بعد خمسة أيام إلى الأمير الأعلى ، ويعنى به والى صقلية ، فوجدوه « جالساً فى رواق وقد احتجب عن الأعين خيلاء وجبروتا » . وتحدث الأمير إلى رئيس الأساقفة والمترجم بوجه الحديث بينهما فى جدل دينى قصير ، ثم أذن لهم فانصرفوا[٥].

كان سقوط سرقوسة نهايةَ محاولات طال مداها ، ولكن لم ينته به كل عناء . فقد بقى أكثر القسم الشرقى غيرَ خاضع للمسلمين ، وظل الروم يجددون محاولاتهم لاسترداد ما فقدوه، وظلت قطانية وطبرمين وغيرها من المدن الشرقية شوكة فى جنب المسلمين ، وكانت الروح الدينية فى هذه المنطقة ذات أثر فى إذكاء نار المقاومة . وظل والى بلرم يخرج بجيشه أو يبث سراياه ويفسد الزروع والثمار ويحرق الكروم . ولما قرر إبراهيم بن الأغلب الخروج فى

(١) المصدر نفسه : ٥٣٩ — ٥٤٠ .

(٢) Amari, S. D. M. vol, I pp. 547-48.

(٣) op. cit. p. 548.

(٤) op. cit. p. 549.

(٥) Amari : S. D. M. vol, I, p. 549

جهاد متسع الأطراف سنة ٢٨٩ استطاع فتح طبرمين وكان وقع الخبر على سماع الإمبراطور مؤلماً[1] ، وارتكز همّ إبراهيم فى منطقة دمنش ، ولكن منيته لم تمهله ليتم فتح هذه المنطقة ،وأخذت الفتن المحلية تشغل بال المسلمين ،ووافق ذلك ظهور العبيديين وسقوط الأغالبة ، وكان هم أول وال عبيدى على صقلية أن يحارب دمنش ،ولكن استمرار الفتن مدة طويلة أراح شرق الجزيرة من إلحاح الجيش الإسلامى ، حتى طبرمين التى افتتحها إبراهيم عمرت من جديد واضطر أحد ولاة الكلبيين على الجزيرة أن يعاود فتحها سنة ٣٥١ ه ،ويهدمها . وبقيت المنطقة الشرقية غير معترفة تماماً بسلطان المسلمين إلى آخر أيامهم فى الجزيرة . وقنع منها الولاة بالجزية ووجهوا همتهم إلى الفتح فى جنوبى إيطاليا أو إلى صدّ الروم عن إنجاح محاولاتهم للاستيلاء على شىء فى الجزيرة .

٤

الفتن الصقلية فى فترة الانتقال من يد الأغالبة إلى بنى أبى الحسين الكلبيين

طال عهد الشقاق والفتنة بصقلية عند تغير الحكومة فى أفريقية بزوال دولة الأغالبة وقيام العبيديين ، وربما كانت تلك الفتن المتكررة (٣٠٠ — ٣٢٧) تعبيراً عن محاولات للاستقلال ، وشعوراً داخلياً من شيوخ الجزيرة بكرههم للتبعية لأفريقية ، ولكنها لم تكن كذلك فى كل مظاهر العصيان ، بل كانت أحياناً أخرى مسببة عن كره بعض الولاة للحكومة الشيعية الجديدة وميلهم بعواطفهم إلى الخلافة العباسية ، ومنذ هذا الحين نجد صقلية أولا ، وشمالى أفريقية ثانياً ، مسرحاً للتنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، وكانت الفتن فى أحيان أخرى نتيجة ظلم الولاة واعتبارهم صقلية كنزاً يغترفون منه ما يملأ جيوبهم وخزانة دولتهم بالمال. وضرب الصقليون فى هذه الفترة أمثلة كثيرة فى التقلب وعدم الثبات على حال ، وفى فزعهم إلى العدو الخارجى يستغيثون

(١) عن ابن الأثير ٧/ ٩٤ والمكتبة : ٢٤١ .

به ، كأنما كانت تسيرّهم المصلحة العاجلة وحدها دون بعد فى النظر ، وسيظل هذا هو الداء العضال الذى تشكوه صقلية ، بحكم موقعها ، وسيكون هذا الداء سبباً فى القضاء على السيادة الإسلامية فى أرجائها .

ونستطيع أن نتصور التبعية المطلقة التى كانت تدين بها صقلية لأفريقية أيام الأغالبة، إذا عرفنا أن المهدى ، حال تسامه المقاليد ، أرسل إليها بوالٍ وقاض من قبله ، ولا نعرف أنه حاول عندئذ أن يرى رأى صقلية فى المسألة ، ولا أنه حسب لامتناعها عليه حساباً ، فأعد لإخضاعها أسطولا إن هى حاولت أن تقف موقف المعاند الجرىء .

ولم يثر الصقليون على أول ولاة المهدى ، إلا حين أساء السيرة فيهم ، واعتذروا إلى المهدىّ مما فعلوه فقبل عذرهم ، وولى عليهم والياً آخر ، فلما آنسوا منه ليناً وضعفاً ، عزلوه وولوا عليهم أحمد بن قرهب [1]. ومن الطريف أن أحمد هذا كان كارهاً تولى الأمر فهرب من الصقليين وتوارى عنهم فى غار [2]. غير أن إلحاح وجوه البلد عليه وتعهدهم له بأن لا يخذلوه جعله يقبل . والحقائق التى نستطيع جمعها عن هذا الوالى الجديد تصوره رجلا بعيد الطموح ، ولكن يشك فى بُعد نظره — كان يفهم طبيعة الصقليين فهما تامًّا، ويعرف أن العنصر الصقلى قد قوى إلى حد لا يستطاع إخضاعه أو قهره بالعسكر الصقلى نفسه ، إذ كان من السهل أن يتفاهم الشعب والجيش على خصومة الوالى الأجنبى عنهم . وكان يعلم أن أهل بلرم خاذلوه دون اكتراث كثير لأيمان أو عهود ، ومع ذلك فقد قام بعدة محاولات فيها ما يناقض هذا الفهم فأسرع بنفسه إلى الهاوية ووقع فريسة لتقلب الصقليين .

حاول ابن قرهب أن يغير العاصمة فأرسل ابنه إلى طبرمين ليفتحها ويجعلها حصناً يأوى إليه هو وأبناؤه وعبيده وأمواله ، ونسى أن طبرمين امتنعت على كل قائد من قبله ، وغفل كذلك عن أن طبرمين فى منطقة مسيحية لا تتجاوب

---

(١) ابن الأثير ٨/٢٣ والمكتبة : ٢٥١ .

(٢) ابن عذارى فى المكتبة : ٣٦٤ .

معه فى العواطف ، وأنها لا تصلح حتى أن تكون ميناء يهرب منه إلى المشرق . وعند أسوار طبرمين ثبت لابن قرهب فعلا أن الجند الصقلى كان قد أصبح أداة فاسدة ، إذ اختلفوا على ابنه أثنـــاء الحصار وكرهوا طول الإقامة ، وأحرقوا خيمته ، وكادوا يفتكون به ، لولا أن حماه العرب [١]. وحماية العرب له تدل على أن ابن قرهب كان قد انحاز إلى الفئة القليلة ولم يكن ذلك يرضى الصقليين .

والظاهر أن ابن قرهب لم يكن فى بادئ الأمر يفكر فى الخروج على المهدى ؛ وشاهد ذلك أنه كتب إليه يقول: إن أهل صقلية يكثرون الشغب على أمرائهم ولا يطيعونهم ، وينهبون أموالهم ، ولا يزول ذلك إلا بعسكر يقهرهم ويزيل الرياسة عن رؤسائهم [٢] . فمثل هذا القول يدل على إخلاصه النصح للخليفة العبيدى ، ولا ندرى ما الذى غيره عن هذه الطريقة فإذا به يستميل أهل صقلية ، ويقنعهم بالثورة على المهدى والدعوة لبنى العباس ، وإذا هو يطمئن إلى الصقليين وينسى سرعة تقلبهم . وأجابه الناس إلى طاعة المقتدر فخطب له بصقلية وقطع خطبة المهدى [٣]. وكتب إلى المقتدر ببغداد أن يكون داعياً له وقائماً بأمره بجزيرة صقلية ، فأنفذ المقتدر ذلك له ، وبعث إليه بألوية سود وخلع سود وطوق ذهب ، ولما وصل إليه ذلك سُرّ به ، وأظهر الحزم والجد فى فى أمره [٤] ، فبدأ بالمقاومة العملية فأحرق أسطول المهدى بمرسى لمطة وقتل قائده وأسر من أصحابه نحو ستمائة رجل ، وبلغ الأمر عبيد الله فأرسل جيشاً يدافع عن الأسطول ، ظنًّا منه أنه لا يزال يمكن إنقاذه ، فظفر ابن هرقب بأصحابه وغنم ما معهم . ثم اتسعت خطة ابن قرهب فأراد أن يغزو المهدى فى عقر داره فبعث بأسطول إلى أفريقية ، ولكن أسطول المهدى انقض عليه ، وأخذ مراكبه ،

---

(١) ابن الأثير ٨/٢٣ والمكتبة : ٢٥٢ .

(٢) ابن الأثير ٨/٢٣ والمكتبة : ٢٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ٨/٢٣ والمكتبة : ٢٥٢ .

(٤) ابن عذارى فى المكتبة : ٣٦٤ .

وطارت أحلام ابن قرهب فى لحظة .

واستيقظ أهل صقلية من سحر ابن قرهب ، ورأوا أن الوقت حان لإعلان العصيان ، وكان البادىء بذلك أهل جرجنت فكتبوا إلى المهدى ، وتبعهم فى ذلك أهل البلاد الأخرى، وثارت صقلية كلها على ابن قرهب ودعوته العباسية ، ولم تنفعه خلع المقتدر وألويته . وحاول مداراة أهل البلد وملاينتهم فلم تثمر محاولته ، ثم فكر فى النجاة إلى الأندلس واكترى مراكب وشحنها متاعاً ، فحال أهل صقلية بينه وبين ما أراد ، وانتهبوا ما كان له وأسروه هو وابنه وقاضيه ابن الحامى[1] . وبعثوا بهم إلى المهدى فقتلهم وصلبهم وانتهت بذلك هذه الحركة الخطيرة .

ولم يكن أهل صقلية جادين فى تحولهم نحو العبيديين ، كانوا يريدون الخلاص من ابن قرهب فتم لهم ذلك؛ ثم أرادوا أن تكون الحكومة فى أيديهم وأن لا يكون للمهدى إلا الاسم ، فأرسلوا يطلبون منه واليا وقاضياً ، ويظهرون عدم احتياجهم إلى رجال أو مدد[2] ، ويشترطون شروطاً خاصة ، وكانوا ينوون من ذلك أن تظل المبادرة فى أيديهم، وأن يتحكموا فى الوالى كيفما طاب لهم ، ولكن ابن قرهب لم يمت قبل أن يفضى للمهدى بسر حالهم ، وعرف المهدى كيف يؤدبهم ، فجهز إليهم جيشاً من الكتاميين أنصاره الخلص ، وأخرجهم فى أسطول فأظهرت بلرم الامتناع ، فحاصرها القائد بجيشه وقتل جملة من أهلها ، وأحال كتامة على من ألفى فى أرباض المدينة من النساء والذرية فعبثوا بهم وافترع الجوارى الأبكار[3] . وعندئذ طلب أهل صقلية الأمان ودفعوا لقائد المهدى المحرضين على الفتنة ، فأمنهم وهدم سور مدينتهم وأخذ سلاحهم وخيلهم وضرب عليهم مغرماً ، وبعث بمن أخذ منهم إلى عبيد الله فى مراكب فانكفأت بهم فى البحر[4] . وأتاه كتاب من المهدى يأمره بالعفو

---

(١) المصدر السابق : ٣٦٥ .
(٢) المصدر نفسه : ٣٦٥ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه : ٣٦٦ .

عن العامة[١] . وولى صقلية سالم بن أبي راشد وجعل له حرساً من كتامة .

وكان سالم مثال الوالى الظالم العسوف ، فعهد بحكم المدن إلى ولاة غلاظ قساة ، وحاق بالناس ظلم أخرجهم عن طورهم وأدى بهم إلى الاستماتة فى مقاومة ذلك العسف ، فثارت جرجنت[٢] واقتدت بها بلرم فأرسل سالم إلى الخليفة القائم يعرفه أن أهل صقلية خرجوا عن طاعته وخالفوا عليه ، فأمده بجيش على رأسه خليل بن إسحاق . واستقبل الناس خليلا بالشكوى ، وخرج إليه النساء والصبيان يبكون ويشكون ، حتى رق الناس لهم وبكوا لبكائهم[٣]. وتذمروا من سالم وسياسته ، وظنوا أن الخلاص سيكون على يدى خليل ولكن سرعان ما كذبتهم الظنون فإن سالماً خلا بهم وأفهمهم أن خليلا جاء لينتقم منهم بمن قتلوا من عسكره ، وتحقق لديهم صدقه حينما أخذ خليل يهدم أسوار بلرم ، ويبنى عند المرسى مدينة ويحصنها ، وهى التى سماها « الخالصة » وأرهق الناس فى أعمال البناء ، فخاف أهل جرجنت ، وحصنوا مدينتهم واستعدوا للحرب ، فسار إليهم خليل سنة ٣٢٦ هـ وحاصرهم ثمانية أشهر ولم يخل يوم واحد فيه من قتال ، ولما حل الشتاء رحل عنهم إلى الخالصة .

وسعى أهل جرجنت فألبوا عليه المدن الأخرى ، وفى السنة التالية ثارت جميع القلاع وأهل مازر . وكاتب الجرجنتيون ملك القسطنطينية يستنجدونه فأمدهم بالمراكب فيها الرجال والطعام . وفزع خليل ورأى أن صقلية تؤول إلى الانفلات من قبضة العبيديين فاستنجد بالقائم فأمده بجيش كبير ، فأخذ يحاصر القلاع ، حتى انقضت سنة ٣٢٧ وضيق على جرجنت ، وظل يحاصرها حتى سنة ٣٢٩ ، فسار كثير من أهلها إلى بلاد الروم ، وتنصر أكثرهم ، وطلب الباقون الأمان فأمنهم على أن ينزلوا من القلعة ، فلما نزلوا غدر بهم وحملهم إلى المدينة ، ولما سقطت زعيمة الثورة أذعنت سائر القلاع ، وهدأت

---

(١) ابن الأثير ٨/٢٤ والمكتبة : ٢٥٣ .

(٢) كان والى جرجنت من قبل يسمى ابن أبى حمران ، المكتبة : ٤٣٧ عن النويرى .

(٣) ابن الأثير ٨/١٠٨ .

صقلية بعد أربعة أعوام قضاها خليل فى حرب وحصار . ولما عاد إلى أفريقية أخذ معه وجوه أهل جرجنت وفى عرض البحر خرق بهم السفينة فغرقوا .

وذات يوم كان خليل فى أحد المجالس وحوله جماعة من وجوه الناس. والحديث بينهم ينتظم ويفترق ، ولما بلغ القوم الحديث عن صقلية قال خليل مفتخراً « إنى قتلت ألف ألف يقول المكثر ، والمقلل يقول : مائة ألف فى تلك السفرة » ثم قال : لا والله إلا أكثر ؛ فرد عليه واحد من الجماعة بقوله : يا أبا العباس لك فى قتل نفس واحدة ما يكفيك » [1] .

٥

صقلية تحت حكم بنى أبى الحسين الكلبيين

ولم تحب صقليةُ ولاة من قبل الخليفة الشيعى كما أحبت بنى أبى الحسين . فى سنة ٣٣٦ هـ تولى أمرها الحسن بن على بن أبى الحسين من أسرة الكلبيين وكانت هذه الأسرة من أخلص أعوان العبيديين ، ولأفرادها مواقف جليلة فى خدمة الدولة الفاطمية أثناء ثورة أبى يزيد ؛ وتقديراً لخدمات الحسن كافأه الخليفة المنصور بولاية صقلية ، وتلقته بلرم كما كانت تتلقى من قبله من الولاة ، إذ كانت أطماع الرؤساء المحليين لا تزل مصدراً للقلق فى المدينة . وكان آل الطبرى هم زعماء المقاومة فيها . ولم يكن مع الحسن حينما نزل صقلية جيش يعتمد عليه فى مقاومة المشاغبين ، ولكنه استطاع بدهاء فذ أن يفسد خططهم . ووجد فى بلرم جماعةً قد سئموا كثرة التقاب ورغبوا فى السلامة فانضموا إلى الوالى الجديد وانحاز إليه أصحاب الدواوين وكل من يريد العافية [2] . ومال

---

(١) انظر تفصيل الأخبار عن خليل بن إسحاق عند ابن عذارى فى المكتبة : ٣٦٨ والحلة السيراء، المكتبة : ٣٣٠ وانفرد النويرى بالقول إن أهل صقلية أطاعوا خليل بن إسحق فأكرمهم وعزل عنهم عمال سالم ثم سكت عما ورد فى المصادر الأخرى .

(٢) ابن الأثير ١٥٦/٨ والمكتبة : ٢٥٨ .

إليه كل منحرف عن بنى الطبرى . ورأى أهل المدينة بشائر عدله حين قتل غلاماً له اتهم بالتعدى على أهل البلد[١] فتأكدوا أن هذا الوالى يختلف عمن سبقوه، واستبشروا به . ولما ثبتت قدمه فى المدينة قبض على أهل الفتنة وصادر أموالهم[٢].

وظل الحسن فى صقلية خمس سنين . ولما توفى حزن عليه أهل صقلية حزناً عظيما لما كان قد أجرى الله على يديه من العدل وظهور الخير[٣].

وتعاقب على صقلية من الكلبيين عشرة ولاة فى مدى خمس وتسعين سنة شهدت فى أثنائها تقدماً فى الحياة العمرانية وفى العلوم والآداب، كما شهدت جهادهم المستمر فى جنوب إيطاليا وفى مقاومة أطماع الروم فى الجزيرة . وأخلدت صقلية إلى الهدوء وجنت من ذلك خير الثمار . وكان من أسباب هذا الهدوء انشغال الجند فى أكثر الأوقات بالحروب فى جنوبى إيطاليا ، وإخلاص الكلبيين فى الدفاع عن صقلية ، واعتبار أنفسهم مستقلين استقلالا داخلياً فى شئون الجزيرة . وقد استطاعوا منذ البدء أن يرضوا الطامعين المحليين ففى سنة ٣٤٧ سار أحمد بن الحسن الكلبى ثانى ولاة الجزيرة من أسرة بنى أبى الحسين ومعه ثلاثون رجلا من وجوه الجزيرة إلى المعز بأفريقية فبايعوه وخلع عليهم المعز [٤] وفى نسخة كمبردج العربية من تاريخ صقلية أن الذى ذهب بهم إلى أفريقية هو الحسن الوالى الأول (سنة ٣٤٩هـ = ٩٦١م) وينص هناك صراحة على أنه أدخلهم فى مذهب أمير المؤمنين وكثر مقتناهم وأفضالهم[٥].

ومعنى ذلك أن العناصر القلقة التى كانت تطالب لنفسها الزعامة قد أرضيت بالمال والتقرب من الخليفة ، وأن الوجوه دخلوا فى المذهب الشيعى ولا

---

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر نفسه والمكتبة : ٥٩ .

(٣) Centenario المجلد الثانى : ٤٧٧ عن أعمال الأعلام . والاخبار عن وفاة الحسن فيها شىء من الاضطراب فأكثر المصادر أنه هاجر من صقلية وعند ابن خلدون أنه توفى من شدة فرحه عند ما جاءته الأخبار بانتصار المسلمين على الروم .

(٤) أبو الفداء ، حوادث سنة ٣٣٦ ، ٢/٩٦ والمكتبة : ٤٠٨ .

(٥) تاريخ جزيرة صقلية لمؤلف مجهول، نسخة كمبردج العربية، فى المكتبة الصقلية : ١٧٥ .

ندرى بعد هذا الخبر كيف كان حال التشيع فى الطبقات الأخرى .وابن حوقل وهو داعية من دعاة الفاطميين ينحى بالذم الشديد على الصقليين لكثرة ثورتهم على السلطان، فهل يفهم من هذا أن طبقات الشعب كانت تكره الخلافة الفاطمية ؟

واستدعى المعز الأمير أحمد ففارق صقلية بجميع أهله وماله وأولاده وإخوته فركبوا فى ثلاثين مركباً ولم يبق منهم بصقلية أحد[١] ، وولى الجزيرة يعيش المولى ففشل فى تهدئة فتنة ثارت بين كتامة والقبائل[٢] . وتطاول أهل الشر من كل ناحية ونهبوا وأفسدوا على أهل المراعى ،واستطالوا على أهل القلاع الآمنة[٣]. فأعيد الأمر إلى واحد من الكلبيين وتولى أبو القاسم الحكم سنة ٣٥٩ هـ. وأبو القاسم هو الملقب بالشهيد لأنه استشهد فى غزاته الخامسة بجنوب إيطاليا سنة ٣٧٢ هـ . وكان حسن السيرة فاضلا محبًّا للعلماء والصالحين[٤].

ولعل الجزيرة لم تشهد عهداً كعهد الأمير أبى الفتح يوسف الملقب بثقة الدولة (٣٧٩ — ٣٨٨) فقد عهد إليه أبوه بولاية صقلية وأتاه سجل من العزيز من مصر بذلك، فضبط الجزيرة وأحسن إلى الرعايا[٥] وأنسى بجلائله وفضائله كل من كان قبله من بنى أبى الحسين[٦]. وكانت أيام الناس بصقلية فى مدته على أفضل ما يشتهون . وقد ضبط البلد ضبطاً عظيما وأداخ الروم واستقامت له الأمور ، وظهر من كرمه وجوده على سائر الناس ما لا يحيط به وصف [٧]. وكان بلاطه فى بلرم مقصد العلماء والأدباء وظل قائماً بالأمر خير قيام حتى أصابه فالج عطل نصفه الأيسر فتنازل لابنه جعفر .

---

(١) النويرى فى المكتبة : ٤٤١ .

(٢) ابن خلدون ٤/٢٠٩ والمكتبة : ٤٨٢ .

(٣) ابن الأثير ٨/٢٠١ والمكتبة : ٢٦٧ .

(٤) Centenario ٢/٤٧٧ .

(٥) النويرى ، المكتبة: ٤٤٢ .

(٦) ابن خلدون ٤/٢١٠ والمكتبة : ٤٨٣ .

(٧) Centenario ٢/٤٧٩ — ٤٨٠ .

وأول وهن حدث فى حكم الكلبيين اختلاف أفراد منهم فيما بينهم على الإمارة، فقد ثار على جعفر الملقب بتاج الدولة أخوه علىّ ، واستفاد من الخلاف العنصرى فى الجزيرة فاستمال إليه البربر والعبيد ، وقام بين الأخوين قتال مرير راح فيه كثير من مشايعى على ، وأسر على نفسه فقتله أخوه ونفى من بالجزيرة من البربر بأسرهم ، فلم يبق منهم أحد وأمر بقتل العبيد فقتلوا عن آخرهم .

وكان انتصار جعفر فاتحة خذلان جديد فإنه حين قضى على البربر والعبيد اتخذ جنده من أهل صقلية، فطمعوا فيه وزادهم تمادياً تغاضيه عن كاتبه حسن بن الباغانى الذى صادر الناس وعاملهم بسوء واستحدث بدعاً فى جباية الضرائب[1] وتنكرت قلوبهم له حين استخف بأهل صقلية وشيوخ بلادها واستطال عليهم[2] ، فخرجوا عليه وحاصروه وعندئذ خرج إليهم أبوه فى محفة وكانت له منزلة فى نفوسهم ، فلما رأوه هدأت ثائرتهم وطلبوا إليه أن ينصفهم من ابنه ، فوعدهم بنزعه من ولايته فوقع اختيارهم على الأكحل أخيه .

وبر يوسف بما وعد فارتحل مع ابنه جعفر إلى مصر ، وترك صقلية فى يد الأكحل . وتسلم الصقليون حسن الباغانى فقتلوه وطافوا برأسه وأحرقوه بالنار[3]. وهدأت نفوسهم الحاقدة لما رأوا الأكحل يأخذ الأمور بجد وحزم . وكان إذا خرج فى الغزو استخلف ابنه جعفراً فحاول جعفر أن يوقع التفرقة بين العناصر ونجح فى فصل الصقليين عن الأفريقيين والتمييز بينهما فى المعاملة فحمى الأفريقيين وأخذ يتقاضى الخراج عن أملاك الصقليين وحدهم[4]، وعندئذ لم يعد الصقليون يطيقون تلك الحال ، وذهبوا إلى المعز بن باديس سنة ٤٣٧ هـ يطلبون مساعدته وإلا سلموا الجزيرة إلى الروم[5] .

---

(١) النويرى ، المكتبة : ٤٤٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه : ٤٤٤ .

(٤) انظر تفصيل ذلك فى المكتبة : ٤٤٤ — ٤٤٥ عن النويرى .

(٥) النويرى ، المكتبة : ٤٤٥ .

واستجاب المعز للصقليين وأرسل معهم ابنه عبد الله بجيش عدده ثلاثة آلاف فارس ، ومثلهم رجال ، فسار إلى الجزيرة وقاتل الأكحل وحاصره فى قصره بالخالصة . ثم اختلف أهل صقلية وانحاز بعضهم إلى الأكحل، فقتله الذين استقدموا ابن المعز غدراً، ثم اجتمع الصقليون على الندم لإدخال جيش غريب فى بلدهم، وتنكروا لابن المعز وحاربوه، فانهزم. وأخيراً ولى أهل صقلية عليهم الصمصام أخا الأكحل[1] .

٦

أمراء الطوائف

وانتهى عهد الكلبيين فى الجزيرة بإخراج الصمصام من بلرم وسيطرة المشايخ على المدينة، ثم ظهور جماعة من الزعماء الطامعين يحققون لأنفسهم شيئاً من السلطة، ويحققون للمدن المتنافسة نوعاً من الاستقلال . أما مازر وطرابنش والشاقة ومرسى على فاستقل فيها القائد ابن منكود ، ووقعت قصريانة وجرجنت من نصيب القائد ابن الحواس على بن نعمة . ثم ثار طامع يسمى محمد بن إبراهيم بن الثمنة فاستولى على سرقوسة وتلقب بالقادر بالله . ويقول ابن خلدون : إن أهل بلرم ولوه على أنفسهم حينما أخرجوا الصمصام[2] وهكذا انقسمت الجزيرة إلى ولايات متعددة .

ويزعم التاريخ أن فتح العرب لصقلية كان من ورائه مشكلة امرأة ثم تأبى المصادر العربية أن تغلق صفحاتها على صقلية الإسلامية دون أن تجعل

---

(١) انظر تفصيل هذه الفتنة عند النويرى فى المكتبة : ٤٤٥ وابن خلدون ٤ / ١١٠ والمكتبة ص ٤٨٤ والنص عنده مختلف إذ يجعل عبد الله بن الحواس (بدلا من على) مستبداً بمازر وطرابنش وهو سهو على الأغلب لأنه صحح التسمية بعد سطرين ويزيد اسم شخص آخر هو ابن المكلاتى الذى استبد بقطانية ثم غلبه ابن الثمنة وقتله سنة ٤٣١ .

(٢) ابن خلدون ٤ / ٢١٠ والمكتبة : ٤٨٤ .

للمرأة نصيباً فى الإسراع بصقلية إلى نهايتها المحتومة . فتقص علينا هذه المصادر أن ابن الثمنة تزوج من ميمونة أخت على بن نعمة؛ وذات يوم سكر وتشاجرا فأمر بفصدها، ولولا ابنه للقيت حتفها، فإنه استدعى لها الأطباء فعالجوها حتى شفيت ، وفى صحوه اعتذر لها من فعلته ، فأظهرت قبول عذره ثم استأذنته فى الذهاب إلى أخيها فأذن لها ، وقصتْ على أخيها ما كان من زوجها فحلف أنها لا ترجع إليه ، وألح زوجها يطلب رجوعها ، واشتد أخوها فى منعها ، فقامت الحرب بين الأميرين، ولما انكسر فيها ابن الثمنة ذهب يستنجد بالنورمان سنة ٤٤٤ هـ ، وبدخول النورمان ضاعت السيادة الإسلامية[١].

وبعد أن تمت هذه الأحداث فى صقلية بقليل لقيت القيروان مصيرها السيئ على أيدى العرب . فإن المعز بن باديس الذى كان متردداً فى إعلان ولائه للعباسيين حسم فى الأمر سنة ٤٤١ هـ فأزال اسم الخليفة العبيدى من السكة ونقش فيها (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين[٢]) فانتقم منه المستنصر بأن حرض العرب على الجواز إلى الغرب فتوجه منهم خلق كثير، وهاجموا القيروان وخربوها ، فهاجر كثير من أهلها إلى صقلية .

٧

الحكومة الإسلامية بصقلية

افتتحت صقلية الإسلامية عهدها بأسد بن الفرات والياً وقاضياً، ولكن هذا الجمع بين الوظيفتين لم يدم طويلا ، فما كاد المسلمون يحتلون بلرم ويتخذونها عاصمة لهم حتى أصبح الوالى والقاضى شخصيتين متمايزتين . ويحدثنا الرشاطى

(١) انظر ابن خلدون ٤/٢١٠ — ٢١١ والمكتبة : ٤٨٤

(٢) Centenario ٢/٤٥٥ عن أعمال الأعلام وانظر عن فتك المعز بالشيعة فى المغرب كتاب الاستبصار لمجهول كريمر ؛ ص ٥٥ ط . فينا . وفى الذخيرة ٤ المجلد الأول : ٦٨ أن المعز عام ستة وأربعين صرف خطبته إلى صاحب، مصر ونبذ العباسية وهو خبر مستغرب .

أن زيادة الله بن إبراهيم الذى فتحت صقلية فى زمنه ولى على صقلية ابن أخيه أبا الأغلب قطيعة له – فكانت له بجميع ما فيها – وركب إليها من سوسة فى مراكب كثيرة ومعه خيل ورجال أتوا من نواحى أفريقية لما يعلمون من كرمه وجوده[1]. ونستطيع أن نتصور من حال زيادة الله نفسه أن والى صقلية ربما قلده فى اتخاذ مجلس استشارى من حوله، وهو الذى كان يسمى فى القيروان « الجماعة » ولذلك نسمع فى تاريخ صقلية دائماً عن شيوخ المدينة (بلرم) . ولانظن أن هؤلاء كانوا مجرد زعماء وإنما المعتقد أنهم كانوا يزاولون بعض السلطان إلى جانب الوالى . وكان لا بد من وجود هذه الصبغة الإدارية فى الجماعة لأن والى صقلية فى أيام بنى الأغلب لم يكن يزيد على قائد عارف بفنون القتال ، مستعد للغزو والجهاد ، وكثيراً ما كان الجيش ينتخب الوالى دون أن ينتظر مجىء وال جديد من أفريقية . على أنه لابد أن نلحظ أنه ليس من الواضح لدينا إن كان الذى يولى الوالى هو الجيش أو شيوخ البلد أو الفريقان معاً . ولا نسمع عن وال فى العهد الأغلبى لم يكن يخرج فى الغزو إلا عن الأمير محمد ابن عبد الله بن الأغلب فإنه كان مقيماً ببلرم لم يخرج منها وإنما كان يخرج الجيوش والسرايا فتفتح وتغنم . وتحدثنا المصادر أن العباس بن الفضل لما وقع عليه الاختيار أخذ يبث السرايا وهو مقيم فى بلرم، فلما جاءه التصديق على ولايته من أفريقية قاد الجيش بنفسه . وربما أشار هذا إلى أن قيادة الجيش كانت هى الصفة الأولى التى تفترض حكومة القيروان توفرها فى الوالى . وكان أكثر الولاة فى الدولة الأغلبية من أسرة بنى الأغلب أو من أقربائهم. وليس بين أيدينا مادة تصور شخصيات الولاة أو تميزهم سوى كثرة الحرص على الجهاد والغزو ؛ إلا ما كان من أمر أبى مضر زيادة الله فإنه كان فى أثناء ولايته على صقلية عاكفاً على اللهو وشرب الخمر ولم يرض هذا أباه فعزله . وقد رأى الراهب ثيودوسيوس والى بلرم – وهو يومئذ جعفر بن محمد – ووصفه بأنه

---

(١) Centenario ٢/٤٧٢ .

متكبر متجبر ، واستدل على ذلك من جلوسه وراء حجاب . ولم يكن الوالى يستند إلى حرس خاص ولذلك نسمع عن وثوب أهل صقلية به وعزله أو إخراجه من بينهم .

وكان الوالى يسكن القصر فى بلرم ويودع فيه المال والسلاح والكساء[١]. ومن قصره ذاك كان يشرف على نواحى المدينة وكان له أن يعين من قبله ولاة على المدن يخضعون له مباشرة .

وظل الحال كذلك فى أيام الكلبيين إلا أن الاستقرار وخضوع أكثر أجزاء الجزيرة للمسلمين مكن الوالى من توسيع سلطانه الإدارى والاهتمام به . ومنذ أن بنى خليل بن اسحاق الخالصة أصبحت هى مركز الوالى بدلا من القصر القديم ، ومن حوله الخاصة . وأصبح كل وال بعد ابن قرهب يتمتع بحماية حرس غريب عن الجزيرة . فلم يعد فى إمكان أهل صقلية أن يطردوه بسرعة ، إذ صار فى إمكانه أن يتحصن منهم ويقاتلهم فى مدينتهم . ومحك الخبرة عنده أن يتمكن من إقرار التوازن بين العناصر فلا يتظاهر بتفضيل عنصر على آخر وأن لا يمس المسائل المالية بتغيير يضر بصالح الأهالى . إلا أن بعض الولاة كان يطلق يد أعوانه فى صقلية فيستبيحون لأنفسهم الغلو فى تقاضى الأموال .

وارتبطت صقلية فى أيام الكلبيين بالخلافة الفاطمية فى أفريقية وأصبح يدعى على منابرها للخليفة الفاطمى[٢] وبذلك أصبح الوالى الصقلى ممثلا للخليفة ثم انتقل الفاطميون إلى مصر ، ولا شك أنه كان فى جيش جوهر الصقلى كثير من الصقليين ، فالعنصر الصقلى فى جيش العبيديين وأساطيلهم أقدم من ذلك ومنذ سنة ٣٠٧ هـ نجد أسرى صقليين فى مصر ، وقد منّ عليهم حاكمها بالإطلاق بعد تغلبه على جيش أخرجه صاحب أفريقية لقتاله[٣] . وبارتباط صقلية

---

(١) انظر Centenario ٢/٤٧٦ .

(٢) هذا هو الشيء الطبيعى والنص صريح فى مسالك الأبصار جـ ٣ المجلد الأول الورقة ١٢٨ بأنه خطب لهم بجزيرة صقلية .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة : ٢٧٦ نشر جست .

بمصر أصبحت تتأثرها فى أساليب الحياة ويهاجر إليها طلاب العلم وتقوم فيها الأنظمة الحكومية على غرار ما هى فى مصر .

وكان الوالى فى صقلية يدين بنوع من التبعية للقاهرة ، ويستمد منها القوة الإدارية والحربية ، ولا بد أن يكون فى يده سجل بولايته من الخليفة ، وأن تصله منه الخلع والألقاب والتشريفات . وأصبحنا نسمع فى صقلية ألقاباً مثل ثقة الدولة وتاج الدولة وتأييد الدولة وصمصام الدولة ولعل هذه الألقاب استحدثت منذ أيام الخليفة الحاكم أو قبله بقليل[1] ولم تنفك مصر عن هذه المراسيم بتقليد الولاية حتى كانت آخر خلع وصلت من مصر للصمصام[2] .

ولم يكن الخليفة يكتفى بهذا النوع من التدخل ، أو يقنع بهذا القدر من العلاقة بينه وبين الوالى فى صقلية ، بل كثيراً ما كان يتدخل فى الشئون الداخلية معتبراً صقلية جزءاً من مملكته ، له حق التصرف فيه ؛ فكان يعقد الصلح مع الروم على شروط نافذة فى صقلية ، دون أن يأخذ رأى واليها ولم يكن للوالى إلا أن ينفذ ما يراه سيده مناسباً وإن كره ذلك وكرهه الناس . عقد المعز صلحاً مع الروم سنة ٣٥٨ هـ على أن يخلى المسلمون رمطة وطبرمين وأرسل إلى الأمير أحمد فى صقلية بتنفيذ ذلك فصدع بالأمر على غير رغبة من المسلمين[3] . وقد يقال إن هذا كان يحدث قبل الإذن للوالى بالاستقلال وأن استقلال والى صقلية لم يتم إلا بعد هذه السنة فى عهد الأمير أبى القاسم؛ ولكن حتى بعد إحراز هذا السلطان لم يكن الحاكم يسلم من تدخل الخليفة تدخلا قد يفقده أجزاء من ولايته ، ففى ولاية جعفر بن محمد الكلبى (٣٧٣ — ٣٧٥) كتب إليه العزيز أن يدفع إلى الراهب أخى جاريته السيدة العزيزة قلاعاً من بلاد صقلية فيها بنقش (؟) وطبرمين ورمطة وأن يدفع إليه كل سبى عنده قديم وحادث[4] ، ولولا مماطلة جعفر وتلويحه لسيده بالعصيان لاقتطعت

---

(١) أول من تقترن المصادر اسمه باللقب هو الأمير يوسف الملقب بثقة الدولة (٣٧٩ — ٣٨٨).

(٢) انظر أنباه الرواة ، ١/٥٨٢ وقد وصلت الصمصام ألقاب كثيرة .

(٣) النويرى ، المكتبة ص ٤٤١ .

(٤) Centenario ٢/٤٧٩ .

هذه الأجزاء من ولايته وأصبح لصقلية واليان .

وظلت صقلية إلى عهد متأخر ملكاً لسلطان مصر ، على حد تعبير ناصر خسرو [١] ونكاد نجزم بأنها كانت تدفع مبلغاً معيناً من المال سنوياً للدولة الفاطمية ، وهذا واضح من قول ناصر خسرو : « وتغادرها كل سنة سفينة تحمل المال إلى مصر [٢] » وفى مرآة الزمان [٣] أن السبب فى استقدام النورمان إلى صقلية عجز وال يسمى ابن البعباع عن دفع المبلغ المطلوب لصاحب مصر مما أدى بالوالى إلى أن يستنجد بالفرنج . وهذا الخبر المتأخر نسبياً ليس له فى المصادر الأخرى وجود، وربما لم يكن فيه من الصحة إلا دلالته على وجود علاقة بين صقلية ومصر تفرض على الجزيرة أداء مبلغ من المال كل سنة .

وكان القاضى أكبر شخصية فى الجزيرة بعد الوالى وانفصل القضاء عن الإمارة منذ أول الأمر . ولقضاة صقلية فى العهد الأول صورة واضحة قائمة على المثالية والصدوف عن متاع الدنيا فالقاضى رجل زاهد، أو إن شئت فقل إنه يختار عمداً من بين الزاهدين الذين صدقت ظواهرهم وبواطنهم أو من الفقهاء الصالحين كابن أبى محرز وميمون بن عمرو وسليمان بن سالم الكندى . وكثيراً ما كان القاضى يجمع بين القضاء والتدريس، وكان بعض المتعففين لا يتقاضى راتباً فقد خرج أبو عمرو ميمون بن عمرو المعلوم [٤] من سوسة للقضاء بصقلية فلم يخرج معه إلا كساء وفروة وخُرْج فيه كتبه وجارية سوداء تخدمه ومعها جبة وكساء وكانت السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فضل ذلك . ولما مرض ودخل عليه الناس يعودونه وجدوا كل ما لديه من أثاث وسادتين محشوتين تبنا وحصيرة من البردى . وعاد إلى سوسة بما خرج به منها ولم يزد

---

(١) ناصر خسرو ، سفر نامة ترجمة الدكتور الخشاب ص ٤٥ ط . لجنة التأليف ١٩٤٥

(٢) سفر نامة ، ص ٤٥.

(٣) سبط ابن الجوزى ، المكتبة : ٣٣٦ .

(٤) فى الأصل الملعون والتصحيح عن تعليقات الأستاذ نللينو على تاريخ أمارى ج ٢/ ٧ من التعليقات .

عليه شيئاً[١]. ومن أمثلة هؤلاء القضاة المتقشفين سليمان بن سالم الكندى وكان يقضي ويدرس، ونقرأ أنه لما مات لم يوجد له مال[٢] وهذه إشارة قد يفهم منها أنه كان يتقاضى راتباً .

وقد لحظنا من قبل أن القاضى كان يجيء صقلية من الخارج وظل ذلك كذلك مدة طويلة فى أيام الدولة الفاطمية . وفى أيام الخليفة الحاكم أضيف إلى قاضى القضاة بمصر أحكام صقلية مع بلدان غيرها[٣] . ولا نسمع عن قاض من صقلية نفسها إلا فى أيام ابن حوقل . ونحن مدينون له بمعرفة قاض ورع من صف القضاة الأولين ليس له فى المصادر الأخرى ذكر وذلك هو عثمان بن الخزاز . وقد أراد ابن حوقل — كما هى طريقته فى الذم — أن ينفذ إلى الحط من الجماعة الصقلية فى حديثه عن القضاء فيها، فصور لنا القضاء فى حال انحطاط حين انحدر إلى أيد صقلية ، فالقاضى ممن له سابقة فى قبض الرشا ، والشهود الصقليون يستسهلون شهادة الزور حتى إن ابن الخزاز لم يكن يقبل شهاداتهم « وصارت أكثر أحكامه جارية على الصلح وشك فيهم فلم تثنه إليهم رغبة ولا رهبة، إلى أن هلك بينهم وحضرته المنية، فقال ليس بجميع البلد من يوصى إليه، ودفع ديوانه إلى رجل كان بها من الغرباء يعرف بالغضائرى من أهل القيروان وكان يزكيه[٤] » أما ابن الماجلى القاضى الصقلى الأصل فهو فى نظره معلم برقجانى لم يكن ممن يستحق تولى القضاء وله فصول فيه مضحكة، وكثيراً ما كان يمد يده إلى الخصوم بالضرب[٥]. وربما استنتجنا من هذا أن صقلية كانت قد سئمت استقدام القضاة من الخارج وأخذت تشعر أنها مسلوبة السلطان فنزعت إلى أن تعهد بالقضاء لأناس منها كما أنفت مصر ذات يوم أن يكون قاضيها غريباً عنها[٦] حين شاءت الدولة

(١) رياض النفوس ، المكتبة : ١٩١ – ١٩٢ .
(٢) عن المعالم ٢/١٣٦ – ١٣٧ .
(٣) الكندى ، الولاة والقضاة : ٦١١ .
(٤) ابن حوقل ١/١٢٥ .
(٥) المصدر نفسه (٦) الكندى : ٣٦٩ .

العباسية أن تعاملها بقريب من معاملة الفاطميين لصقلية .

وكان للقضاء كتبة ودار خاصة فى بلرم منذ عهد مبكر . ونسمع أن ميمون بن عمرو لما وصل المدينة قيل له هذه دار القضاء تنزل فيها فقال " هذه دار عظماء ايش أعمل فيها " فنزل فى دويرة لطيفة[١].

أما الوظائف الحكومية الأخرى فكان ينهض بها أصحاب الدواوين والموظفون فيها وقد عدت المصادر من الدواوين :

١ — ديوان الخمس
٢ — ديوان الصناعة
٣ — ديوان الخاصة
٤ — ديوان الإنشاء .

أما ديوان الخمس فإن متوليه كان يسمى « صاحب الخمس » وشخصيته ذات شأن فى تاريخ صقلية وأدبها، فهو يتولى أمر البلد حين لا يكون لها وال، وهو بحكم مركزه مقصد الأدباء والشعراء . وقد ذكرت المصادر أسماء بعض ممن تولوا هذا الديوان منهم عمران الذى قتل فى بلرم سنة ٣٠١ = ٩١٣[٢] وخليل الذى ضبط المدينة حين خلت من واليها سنة ٣٩٨[٣] . ومنهم ابن

---

(١) رياض النفوس، المكتبة ص ١٩١، ١٩٢، وقد جمعت أسماء أربعة عشر من قضاة صقلية هم أسد بن الفرات (+ ٢١٣) ابن أبى محرز (+ ٢٢١ هـ) ، سليمان بن سالم (+ ٢٨٩) انظر طبقات علماء أفريقية ص ١٤٨ ، محمد بن محمد خالد القيسى الطراطرى (آخر دولة بنى الأغلب) أبو القاسم الطرزى كان موجوداً فى أول ظهور المهدى وقد أهانه بالضرب (انظر المعالم ٣ / ٨) والطرزى بقى قاضياً فى صقلية مدة عشر سنين ، إسحق بن المنهال (المصادر نفسه) أول قاض أرسله المهدى لصقلية ، ابن الحامى قاضى ابن قرهب ، أبو عمرو ميمون بن عمرو (+ ٣١٦) محمد بن أبى صبيح (+ ٣٣٤) وقد حمل معه الملح إليها تورعاً ، عثمان بن الخزاز (قبل ابن حوقل) ، إسحاق الماجلى (كان فى القضاء سنة ٣٦٢) ، أبو إسحاق إبراهيم بن مالك المعافرى (كان فى القضاء سنة ٣٧٥) ، أبو الفضل الحسن بن إبراهيم الشامى الكنانى (فى القرن الخامس) ، محمد بن قاسم بن زيد اللخمى الكاتب القاضى فى أيام أمراء الطوائف ، عاصر ابن الحواس ومدحه وليس هناك ما يؤيد أنه زاول القضاء وربما كانت لفظة القاضى لقباً .

(٢) نسخة كمبردج العربية ، المكتبة : ١٦٨ .

(٣) النويرى ، المكتبة : ٤٣٥ .

الرقباني[١] وابن الشامي صاحب الخمس أيام صمصام الدولة . أما الخمس نفسه فهو ضريبة معينة عدها ابن حوقل من جملة ما تحصله خزينة الدولة بصقلية ولكنه لم يوضحها . ويظهر أنه من الصعب تعيينها بدقة لأنها تضمنت غير دلالة واحدة . ويرى الأستاذ أماري أنها خمس الغنيمة والأرض التي أخذت عنوة [٢] . ويقول دوزي: صاحب الخمس هو متولي الأرض التي أصبحت ملكاً للدولة في مدن افتتحت عنوة[٣] ويعرف المقريزي[٤] الخمس بأنه الضرائب المختصة بالثغور أي هو ما يؤدي في مصر مثلا من تجار الروم الواردين في البحر عما معهم من البضائع ، بمقتضى ما صولحوا عليه، وربما بلغ ما يستخرج منهم ما قيمته مائة دينار ومائتان وخمسة وثلاثون ديناراً وربما انحط عن عشرين ديناراً، ويسمى ذلك خمساً ومثل هذا المعنى الأخير محتمل وجوده في صقلية لموقعها البحري لولا أن ابن حوقل يميز بين ثلاثة أنواع من الضرائب هي الخمس ومال البحر وقبالة الصيود .

وأما ديوان الصناعة فليس هناك شيء واضح عنه وكل ما نعرفه هو ما ذكره ابن سعيد في ترجمة أبي الحسن علي بن المعلم إذ قال إنه صاحب ديوان الصناعة[٥] . وأما ديوان الخاصة فيذكره المقريزي والقلقشندي باسم ديوان الخاص . وفي مختصر الدرة أن ميمون بن أبي بكر الوراق الشاعر مدح علي ابن القطاع المتقلد ديوان الخاصة[٦] وربما كان هذا الديوان خاصاً بالإشراف على إقطاعات الوالي وشئون قصره ، وفي أيام المقريزي كان يشمل دار الضرب[٧] .

---

(١) مختصر الدرة الورقة ١٠٢ وقد وصفه بأنه كان ملجأ للقصاد والرواد أما ابن الشامي فسيتردد ذكره عند الحديث عن الشعر في صقلية .

(٢) Amari : S. D. M. vol, 2, p. 169.

(٣) Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes وهامش أماري ٢/١٦٩ من إضافات الأستاذ نللينو ، رقم ٣ .

(٤) المواعظ والاعتبار ١/١٧٦ .

(٥) انظر الترجمة رقم (١٢٠) في مجموعة الشعر الصقلي .

(٦) مختصر الدرة الورقة ١٠١ .

(٧) المواعظ والاعتبار ١/١٧٨ .

وأحفل هذه الدواوين بالصبغة الأدبية ديوان الإنشاء إذ لم يكن يتولاه إلا أجل الكتاب بلاغة، وعلاقته بالوالى متينة، وليس يحجب عنه أبدا، ومن أصحابه فى صقلية ابن الطوبى وابن الودانى وغيرهما من مشاهير كتابها . ونجد فى العهد النورمانى ديوانين آخرين هما ديوان الطراز وديوان التحقيق . والأرجح أن هذين كانا موجودين فى العصر العربى وربما كان ديوان الطراز هو ديوان الصناعة نفسه إلا إن فرضنا أن هناك خطأ نسخياً وأن ديوان الصناعة هو فى حقيقة الأمر دار الصناعة ، وكان عمل ديوان التحقيق المقابلة على الدواوين جميعاً[1] ، وله فى مصر الفاطمية وجود، ومن ثم لا يستبعد وجوده فى صقلية الإسلامية .

(٤) المواعظ والاعتبار ٢٤٢/٢ ؛ والقلقشندى ٤٩٣/٣ .

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية

١ — طبيعة الفتح العربى
٢ — أهل الذمة
٣ — الأجناس التى دخلت صقلية
٤ — الأنظمة المالية والتفاوت فى الثروة
٥ — النهضة الزراعية والصناعية
٦ — الدين والأخلاق

١

طبيعة الفتح العربى

فى طبيعة الفتح العربى – كما أجملته فى فصل سابق – ما يفسر طابع المجتمع الصقلى من نواح عدة . فهذا الفتح هو الذى أضاف إلى العناصر الصقلية القديمة عناصر جديدة تجمعها غاية عسكرية أو وحدة دينية ، وتفرق بينها نزعات عنصرية . والخط البيانى لسير الفتح يرسم توزيع المجتمع الجديد ، ويشير إلى انحسار العناصر القديمة أو انعزالها . وعلى أساسه تعلل الفوارق التى قامت بين الجهات الشرقية وغيرها من صقلية . وبعبارة موجزة إن الفتح خط قوى عميق يكاد يفصل بين صقلية فى كل ما عرفت من حضارات وبين صقلية الإسلامية ، لأنه الحركة الخارجية التى استطاعت أن تغيّر النظم الاجتماعية وتبسط على الجزيرة قيما جديدة ودينا جديداً ؛ نعم لم يكن الفتح خيراً كله لأن صقلية شقيت به حيناً بالقتل والسبى والتخريب وحرق المزروعات وقطع الكروم ، وانهزمت أمامه بعض الحريات ، والمعتقدات القديمة ، ولكنا حين نتحدث عن الفتح يجب أن لا ننسى أننا نستعيد صورة من صور القرون الوسطى وكل هذا لا ينفى أثره فى الهيئة الاجتماعية الأصلية : فى الثقافة وفى نظام الطبقات وفى الحياة العمرانية .

٢

أهل الذمة

ويظهر أن الفاتحين جعلوا صقلية ولايات ثلاثا هى ولاية مازرونوطس ودمنش وإن يكن هذا الظن يفتقر إلى شواهد تؤيده[١] . وفى هذه الولايات عاش السكان الأصليون الذين سموا ذميين على أربع أحوال – وخاصة فى الفترة الأولى من العهد الأغلبى – فكان فيهم المستقلون الذين يصرفون شئونهم

---

(١) ليس فى الوثائق المتخلفة من العهد النورمانى الأول ذكر صريح إلا لولاية دمنش انظر Amari : S. D. M. vol. I p. 607.

الداخلية حسبما يريدون ، ويدبر أمورهم سلطات بلدية كما كان الحال قبل الفتح ، وهم ممتنعون وراء الأسوار ، خاضعون فى كثير أو قليل للإمبراطور البيزنطى ، ويتآمرون معه على المسلمين ، وإذا رأوا المصلحة فى السلام عقدوا معهم معاهدات لا تزيد فترة إحداها على عشر سنين[1] . وانتهى استقلال أكثرهم حين خرج إبراهيم بن الأغالب فى الجهاد سنة ٢٨٩ هـ وفتح طبرمين عنوة فهرب كثير من أهلها إلى البيزنطيين ووقع الباقون فى السجن [2]. وتمخض جهاد إبراهيم عن نقص فى الجنسين الإغريقى والإيطالى،فى شرق الجزيرة وأصبحت البقية الباقية منهم تحيا حياة ضنك وشدة وخطر ، وتحولت المدن التى كانت مستقلة إلى مدن تدفع الجزية ، وانفصمت علاقاتها الوثيقة ببيزنطة ، وزادها انفصاما ذلك السلام الذى قام بين البيزنطيين والفاطميين[3]. وكان من سياسة إبراهيم فى جهاده أن يرفض الجزية من المدن التى تغلب على أمرها، وأن يفرض على الذميين سياسة متشددة، ويأمرهم بالتميز بعلامات فارقة . ولكن طبرمين عادت إلى وجودها شبه المستقل حتى فتحت عام ٣٥١ هـ فى أيام الكلبيين وقبل أهلها النزول على حكم العبودية حتى منحوا الأمان[4].

وفى هذه الفترة كانت الروح الدينية فى ولاية دمنش تنمى نفسها بين السكان وتوجه حياتهم الحضارية ، وفى ظل تلك الروح قام القديسون يبثون فى الشعب الكراهية للفاتحين ويشجعونهم على المقاومة . ولا تزال منطقة دمنش إلى اليوم إغريقية الطابع إذا قورنت بغيرها من جهات صقلية .

وفريق آخر من الذميين هم أهل الجزية ولنا أن نقدر فى هؤلاء تغير الناحية النفسية من قوم يتمتعون بقسط من الحرية إلى قوم مغلوبين ؛ وكان هؤلاء يعيشون فى أمان إذا هم وفوا بما عاهدوا المسلمين عليه ، ودفعوا الضرائب المطلوبة منهم ، ولكنهم كانوا ينتهزون اختلاف المسلمين فيما بينهم أو يستجيبون للكره

---

(١) op. cit. p. 613

(٢) ابن الأثير ٧/٩٤ والمكتبة : ٢٤١ .

(٣) Amari : S. D. M. vol. 2 p. 250.

(٤) ابن الأثير ٨/١٧٩ فى حوادث ٣٥١ هـ.

الديني والروح القومية ، فيحطمون حدود المعاهدات ويتخطون شروطها[١] وكانت مدنهم يحض بعضها بعضا على الثورة فتضطر الجيوش الإسلامية إلى إخضاعها بالقوة ، وحينئذ لا تعود الجزية كافية مقنعة للمسلمين — ولياج وطبرمين أيام إبراهيم مثال على ذلك — بل يصبح أهل هذه المدن أشبه بجماعات العبيد التي لا تملك شيئاً من الحرية . وقد شاع الولاء في المناطق الإسلامية مثل ولاية مازر . وهذا ما يجعلنا نفهم قول ابن حوقل في الصقليين « والغالب عليه الرعاع . . . وأكثرهم برقجانة وموال يدعون ولاء قوم افتتحوها وقد هلكوا »[٢].

والطبقة الرابعة من الذميين هم العبيد وقد أحدث فيهم الفتح أكبر أثر مباشر وقد رأينا العبيد وكولوني الأرض في العصر البيزنطي وعرفنا سياسة السادة نحوهم والحيف الذي صبّه جرجوريو عليهم ، فلما شاهد هؤلاء جيوش الفاتحين وجدوا طريقاً للخلاص من قيودهم القديمة ، وأملوا أن يجدوا في أسيادهم الجدد قلوباً أرحم ومعاملة ألطف ، فنبذوا دينهم القديم ، وتملقوا الأسياد الجدد باعتناق دينهم الجديد ، ليكفلوا لأنفسهم شيئاً من الرفق في المعاملة ، وأصبح الأرستقراطية القدماء ينظرون بحيرة إلى مزارعهم وهي خالية من عبيدهم الابقين[٣].

وأصبح العبيد في المجتمع الإسلامي طبقة كبيرة وزاد عددهم بكثرة الأسر والسبي والشراء ، وهيأ لهم الفتح حرفة جديدة تدر عليهم دخلا معقولا ، إذ دخلوا في صفوف الجيش ، وكان الفيء لهم موردا من الرزق منظماً ، إلا أن الجيش شقي بهم فيما بعد حتى أصبحوا عنصراً خطراً قابلا للثورة ، وتضخم عددهم بعد الفتوحات في قلورية ، وأضاف إليهم إبراهيم بعض الذين نفاهم من أفريقية . وفي أيام جعفر بن ثقة الدولة اتحدوا مع البربر وأيدوا علياً أخا جعفر وكان من من نتيجة ثورتهم هذه أن قتل العبيد عن آخرهم[٤] وهو خبر لا نفهمه إلا إن

---

(١) Amari : S. D. M. vol. 2. p. 614.

(٢) ابن حوقل ١/١٢٤ .

(٣) Amari : S. D. M. vol. I. p. 627

(٤) النويري المكتبة ص ٤٤٣ .

قدرنا أن الذين قتلوا هم العبيد فى الجيش . ومن كثرة العبيد والعناصر المحلية فى الجيش أصبح الوالى فى أيام بنى الأغلب عاجزاً عن أن يسوسه أو يتحكم فى أمره وزاد عنف الجنود وتحكموا فى شئون السياسة حتى جاء ابن قرهب فنصح الخليفة الفاطمى بأن يكبح من جماح العسكر الصقلى بجيش خارجى ، وأصبحنا نسمع فى صقلية بجيش الأفريقيين وأغلبهم من كتامة . ثم كان من أسباب فساد الجيش أيام الكلبيين إعطاؤهم اقطاعات بدلا من النقود .

٣
الأجناس التى دخلت صقلية

تلك هى حال الذميين أما العناصر الإسلامية الجديدة التى دخلت الجزيرة فاتحة أو مهاجرة ، أو منفية ، أو لاجئة ، فكانت خليطاً ضخماً من جنسيات عدة منها ما ينسب إلى أصول بلدية كالشامى والسوسى والباغانى ، ومنها ما ينسب إلى أصول قبلية كالكلبى والقيسى والكتامى واللواتى ، ومنها ما ينسب إلى الحرفة كالوثائقى والغضائرى والخراز . وكانت بلرم تعكس صورة هائلة من هذا الخليط المتموج المتحرك ، منذ أول عهدها بالفتح العربى . وقبل ابن حوقل بمائة عام تقريباً وصفها الراهب ثيودوسيوس بقوله : « حافلة بالناس من أهلها والغرباء حتى كأنه قد اجتمع فيها كل المسلمين من شرق إلى غرب ومن شمال إلى جنوب ، وبين أهلها من صقليين وإغريق ولمبارديين و يهود ترى العرب والبربر والفرس والتتار والزنوج ، بعضهم يرتدى العباءة والعمامة ، وبعضهم يلبس الجلود وفيهم أنصاف عراة وثمة وجوه مستطيلة أو مربعة أو مستديرة من كل سحنة وهيئة ، ولحى من كل لون طويلة أو قصيرة »[١].

وقد أضاف ابن حوقل إلى هؤلاء ذكر الصقالبة وكان لهم فى بلرم حارة مستقلة ، أما اليهود فكانوا مستقلين أيضاً بحارتهم ، وربما كان المركز التجارى

(١) Amari : S. D. M. vol. 2, p. 49.

للجزيرة يهيئ لهم مقاماً نافعاً . ونسمع عن صلات كانت لهم بيهود المشرق وخاصة فى فلسطين . وهناك رسالة بعث بها يوشع روش يشيبا إلى المجامع القاطنة فى المدن الصقلية يطلب فيها مساعدات مالية من يهود صقلية ، وقرئت الرسالة فى معابد الجزيرة ووعد المصلون بالدفع ، ولكن قبل أن يتمكنوا من جمع شيء وقع اليهود تحت طلبات جديدة بهظتهم بها الحكومة وأعجزتهم عن الاكتتاب فى سبيل إخوانهم ، واضطر بعضهم إلى الهرب من صقلية ، وأبى شيوخ الجماعة (ولعلهم شيوخ بلرم) أن يردوا على رسالة يوشع دون أن يرفقوا إجابتهم بشيء من المال . وربما كانت هذه الرسالة فى زمان الخليفة الحاكم[١].
وظل اليهود بصقلية فى العصر النورمانى ولما زار بنيامين التطيلى صقلية (١١٦٩ م) فى أيام غليالم الثانى وجد فى مسينة مائتى يهودى وفى بلرم ألفا وخمسمائة[٢].
وربما كان لبعض هؤلاء اليهود نشاط علمى إلى جانب نشاطهم المالى .

وتدل أسماء الأعلام والأماكن الصقلية على الأجناس والقبائل التى كانت تملأ الجزيرة ، وهى تثبت أن صقلية اكتظت بأناس من جميع الشعوب الساكنة فى الإمبراطورية الإسلامية ومن هؤلاء عرب عدنانيون وقحطانيون ، ومن القحطانيين وهم الأكثرية الغالبة من الجنس العربى همدانيون وكلبيون ، وجاء الفتح إلى صقلية بالخراسانيين وغيرهم من الفرس ، ودخلوها من إفريقية فى القرن الثامن ، وربما كان ركمويه زعيم السفهاء فى إحدى الفتن فارسى الأصل ، كما أن بنى الطبرى من أعيان بلرم تشير نسبتهم إلى طبرستان ، وتدل عين السندى وبلهرا على مهاجرين من أصل هندى ، وهذه الأسماء والمنازل تعين النواحى التى نزلها المسلمون وخاصة بلرم والشاطئ الممتد منها إلى طرابنش .

ودخل الجزيرة جماعات كثيرة من البربر سكنوا النواحى الشمالية من ولاية

---

(١) Mann : The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimids, vol. I, pp. 73-7

(٢) The Travels of Rabbi Benjamin of Tudela in Early Travels in Palestine, ed. wright, p. 124.

مازر ، وكانت جرجنت عاصمة للجماعات البربرية ، وأسماء الأماكن الواقعة بين مازر ولقاطة تدل على القبائل البربرية فهناك اندرانى ، وقرقود ومزيزينو وحجر الزناتى ومليلى وكلها أسماء أماكن تشير إلى القبائل البربرية ، إنداره ومزيزة وزناته ، ومليلة ، وفى أيام الفاطميين امتازت كتامة ودخلت مع خليل ابن إسحاق إلى صقلية ، وغير هذه القبائل قبائل بربرية أخرى كثيرة .

وكانت هذه العناصر تتحرك بالفتن فيما بينها حتى انصبغت الثورات أيام لأغالبة بمظهرين : ثورات بين شيوخ المدينة وبين الأغالبة والدافع إليها التنافس على انتخاب الوالى ، وثورات بين العرب والبربر ، ويمكن أن يقال إن البربر الذين منحوا الإقطاعات أجوراً لهم هم الذين اشتهروا بخلع الطاعة لأنهم لم يكونوا يطيقون الإخلاد إلى حياة الزراعة وإنما كانوا يفضلون أخذ الفيئ أجوراً لهم[1] أما العرب فبرزوا أيام الكلبيين وخاصة اليمنية منهم ، ولكنا لا نسمع لهم بعصبية ظاهرة إلا أيام ابن قرهب ، ولا نجد لحسن الحظ خلافاً بينهم على أصول القيسية واليمنية لأن القيسية فيما يظهر كانوا قليلى العدد . وحيناً كان العرب والبربر يتحدون تحت اسم الأفريقيين ويواجهون الصقليين ، ولما دخلت كتامة أرض الجزيرة وأصبحت مستند الوالى خفت صوت الصقليين لضعفهم النسبي إزاء العناصر الأخرى . ثم كانت فتنة صقلية الأخيرة عودة لسيادة العناصر الصقلية بعد قتل العبيد ونفى البربر .

ولما وقعت الهدنة بين الخليفة المعز والإمبراطور البيزنطى كتب المعز إلى والى صقلية — الأمير أحمد — يعرفه بالصلح ويأمره ببناء أسوار المدينة وتحصينها ويعلمه أن البناء اليوم خير من غد ، وأن يبنى فى كل إقليم من أقاليم الجزيرة مدينة حصينة وجامعاً ومنبراً ، وأن يأذن أهل كل إقليم بسكنى مدينتهم ، ولا يتركوا متفرقين فى القرى ، فسارع الأمير أحمد إلى ذلك وشرع فى بناء سور المدينة وبعث إلى جميع الجزيرة مشايخ ليقفوا على العمارة[2] . وينفرد

---

(١) انظر تاريخ أمارى (S.D.M.) المجلد الثانى من ٤٩ — ٥٥ والتعليقات فى ٥٣ — ٥٥

(٢) النويرى ، المكتبة : ٤٤١ .

النويرى بهذا الخبر الطريف وحديثه عن سور بلرم يوافق قول ابن حوقل بأن سور بلرم من حجارة مانع شامخ ، ويتفق مع الاصلاحات التى ينسبها الرحالة للأمير أحمد فى أبواب المدينة[١] . أما بقية الخبر فلا نستطيع أن نفهمه إلا بنوع من التأويل . ويرى الأستاذ أمارى أن « أهل كل إقليم » ليس من الضرورى أن تعنى كل السكان مسيحيين كانوا أو مسلمين ، أحراراً أو ذميين أو عبيداً ، نبلاء أو وضعاء ، بل ليس من الضرورى أن تعنى كل المسلمين ويستنتج أن الإقليم فى الاصطلاح يعنى منطقة عسكرية ، وأن أهل الإقليم تدل على الجند وحدهم . ويفترض أمارى أن الوالى كان يقسم على الجنود —وخاصة فى ولاية دمنش — إقطاعات بدلا من النقد ، فأصبح الجند مشتتين فى القرى يفلحون أرضهم ، وانتشر على آثارهم جامعو الضرائب ، وكان هذا سبباً فى الفوضى وفى وقوع الحيف على الذميين[٢] وكان من ذلك صدور الأمر من المعز إلى الأمير أحمد .

أما الجامع والمنبر فقد كانا تأييداً للخليفة فى كل مدينة بالجزيرة وتثبيتا للدعاء له . وأضاف المعز إلى هذه السياسة من تألف الصقليين ما أنفقه على أهلها سنة ٣٥١ هـ فى إعذار بعض الأمراء من بنيه وقد حمل فى هذه المناسبة إلى صقلية سوى الخلع والثياب خمسون حملا من الدنانير ، كل حمل عشرة آلاف دينار . وختن من أهل صقلية وحدها خمسة عشر ألف صبى[٣] ولم يعف أولاد المليين والذميين من الختان . وهذا الرقم لا يستطيع أن يدل على نسبة معينة فى سكان الجزيرة ، ويقدر ابن حوقل عدد سكان بلرم بثلثمائة ألف نفس . ولا شك أن خليل بن إسحاق أهلك بأعماله الحربية ثلث سكان ولاية مازر الإسلامية . ولعل عدد سكانها سنة ٩٣٨ م مع بلرم كان مليونى نسمة ، المسلمون منهم أقل من النصف[٤] . وأكثر السكان الصقليين القدماء

---

(١) ابن حوقل ١٢٢/١ والمكتبة ص ٤ ، ٧ ، ٨ .
(٢) انظر توضيح هذه النقطة فى تاريخ أمارى المجلد الثانى ص ٣١٤ — ٣١٧ .
(٣) المقريزى ، اتعاظ الحنفا : ١٣٦ نشر الدكتور الشيال .
(٤) Amari : S. D. M. vol. 2, pp. 251-62.

الذين انحازوا إلى ولاية مازر كانوا يضمون بعض الأحرار وكثيراً من أهل الموالى والعبيد، وكان بعضهم مسيحيين وبعضهم يهودا، وكان معظمهم يعيش فى المدن وأقلهم فى القرى[١] .

٤

الأنظمة المالية والتفاوت فى الثروة

خضع السكان على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم للأنظمة الإسلامية فى الضرائب ، فوضع العشر على أراضى المسلمين ، وخضعت بعض الأراضى التى يملكها غير المسلمين لخراج مؤقت ، كما فرض على بعضها خراج دائم وبقيت أملاك أخرى كالحبوس والأوقاف تطبق عليها أنظمة خاصة[٢]. والحقيقة أننا لا نملك وثائق عن هذه الأمور نستبين منها حال صقلية بالذات ،وأقصى ما يمكننا عمله أن نقيس صقلية بما كانت عليه الحال فى أفريقية والأندلس ونتعرف إلى طرق الجباية وأنواع الضرائب والإقطاعات فيها ثم نحاول أن نقول إن الأمر فى صقلية كان كذلك ، وليس هذا مما يقدم البحث كثيراً لأن الهدف المنهجى الأول أن ندرس صقلية نفسها بكل ما تهيئه من معلومات، قلة وكثرة .

والنص القديم الوحيد الذى نملكه عن الضرائب بصقلية هو ما أورده ابن حوقل إذ يقول إن الضرائب تضم : « خمسها ومستغلاتها ومال اللطف والجوالى المرسومة على الجماجم ومال البحر والهدية الواجبة فى كل سنة على أهالى قلورية وقبالة الصيود وجميع المرافق . . . [٣]» ولا تزال بعض هذه الضرائب غامضة مثل المستغلات ، فهل تدل على نوع محدود من الضريبة ؟ ومال اللطف هل هو

---

(١) op. cit.

(٢) Amari: op. cit. p. 33.

(٣) ابن حوقل ١/١٣٠ .

المال الحاصل من هدايا خاصة فى مواسم معينة ؟ أما الخمس فقد بينت المعانى التى يتحملها ، وأما الجوالى المرسومة على الجماجم فهى مال الجزية المفروضة على غير المسلمين . والجزية فى أيام المقريزى تسمى الجوالى ويقول القاضى الفاضل فى متجددات سنة ٥٨٧ إن الجوالى قلت جداً لكثرة إظهار النصارى للإسلام [١] وهذا يقطع بأن الجوالى هى الجزية . وأما مال البحر فهو ما يحصل على السفن الراسية فى الموانئ الصقلية . والقبالة نوع من الضمان أى أن المصايد كانت تعرض على متقبلين بمبالغ معينة وقد يكون المتقبل هو المباشر للعمل أو ينتدب له من يريد[٢] وإذا لم تكن « المرافق » كلمة عامة فهى تدل على ما يحصل من مال على المراعى والمنتجات المحلية . وكانت المرافق فى مصر تشمل المال الهلالى أيام ابن المدبر ثم أسقطها أحمد بن طولون وأحياها العبيديون وأصبحت تعرف بالمكوس[٣] . ولا شك أن الضريبة العشرية كانت على أراضى من اعتنق الإسلام من المسيحيين وأكثرها كان يحصل من ولاية مازر فى القرن التاسع ثم من ولاية نوطس ودمنش فى القرن الذى يليه[٤] . وكان بعض الولاة يطلق يد العشارين فيجورون على الناس . وفى نسخة كمبردج العربية[٥] أن ابن سالم أتى سنة ٢٤٣٥ = ٩٢٧ م بشيخين استغرما أهل صقلية وكرر هذا العمل سنة ٣٤٤٠ = ٩٣٢ م ولا نستطيع أن نفهم من هذا الخبر إلا استهانة بعض الولاة بأهل البلاد مع أن التهاون فى النواحى المالية كان من أكبر الأسباب الحافزة للسكان على الثورة . وفى خبر من أواخر العهد الإسلامى أن ابن الباغانى الكاتب غير الضريبة على أهل صقلية ، فجعل الأعشار من طعامهم وثمارهم وإنما كانت العادة أن يؤخذ على الزوج البقر شىء معلوم ولو أصاب ما أصاب . والخبر يدل على الطريقة التى كانت متبعة فى صقلية لعهد

(١) المقريزى ، المواعظ والاعتبار ١/١٧٣ .
(٢) المصدر السابق ١/١٣١ ١٣٢ .
(٣) المصدر نفسه ١/١٦٧ .
(٤) A mari : S. D. M. vol. 2 pp. 40-41.
(٥) المكتبة الصقلية : ٤٤٣ .
(٦) النويرى ، المكتبة : ٤٤٣ .

طويل . ولما أخذ جعفر بن الأكحل بالتضريب بين العناصر الصقلية والأفريقية حمى أملاك الأفريقيين وأخذ الخراج على أملاك الصقليين فأعلنوا الثورة .

غير أن أهم أثر أحدثته النظم الإسلامية فى الأرض هو طرق توزيعها ، فقد كان الجرح العميق الذى تشكو منه صقلية هو الإقطاعات الكبيرة ؛ وفى فترة قصيرة قضى نظام الإرث الإسلامى على هذه الإقطاعات . وفى القرن الثانى عشر نجد فى ولاية مازر أسماء عربية كثيرة تملك مساحات صغيرة من الأرض ولكن النظم الإسلامية لم تكد تنقذ صقلية من الإقطاعية الكبيرة حتى عادت هذه إليها مع الفتح النورمانى[1] .

وليس معنى ذلك أن الإقطاعات الكبيرة فقدت فى العهد الإسلامى بل ظل الأمراء والخاصة يحتفظون لهم بإقطاعات واسعة واحتكارات خاصة تدر عليهم أموالا طائلة . وقدم إلى أحد العباد فى القيراون كعك فرده ، وقال : لست آكل سكر صقلية وعلل امتناعه عن أكله بأنه يعمل من ضياع اقتطعها السلطان[2] . وكان الحديد مستغلا لبعض بنى الأغلب ثم انتقل إلى أيدى بنى أبى الحسين ، ومنه كانت تعمل مراكب السلطان وقرسطياته [3]وكان جزء من البردى محتكراً لعمل طوامير للسلطان خاصة .

وفى هذه البيئة قام التفاوت البين فى الثروة بين الطبقات . ومع أننا نعلم مثلا أن أبا القاسم الكلبى لم يخلف دينارا ولا درهماً ولا عقاراً لأنه وقف أملاكه كلها على الفقراء وأبواب البر [4] إلا أننا نعرف كذلك أن ثقة الدولة ارتحل إلى مصر ومعه ٦٧٠ ألف دينار و ١٣ ألف حجرة سوى البغال وغيرها [5] — كل هذا الثراء بينما الفرد العادى من الطبقة التى عاشرها ابن حوقل لم يملك بدرة عين ولا رآها إلا عند سلطان، إن كان ممن يدخل إليه، ومحله محل من يؤذن

---

(١) Amari : S. D. M. vol. 2, pp. 40-41.

(٢) المكتبة الصقلية ، الملحق الأول : ٣ .

(٣) ابن حوقل ١٢٣/١ .

(٤) ابن الأثير ٥/٩ المكتبة ص ٢٧٠ .

(٥) النويرى المكتبة ص ٤٤٤ .

له عليه[١] وكان المهاجرون إلى صقلية فى النصف الأول من القرن العاشر أهل حرف أو جنوداً أو لاجئين [٢] . ولدينا ما يفيد أن أحد الأفريقيين ورث من أخ له مات بصقلية أربعمائة دينار أعانه عليها إبراهيم بن أحمد الأمير [٣] . وتحت عنوان الفقر تستطيع أن تسلك طبقة المعلمين ، ولم يكن يزيد دخل بعضهم عن عشرة دنانير فى العام ، ومثلهم بعض الشعراء ، وتسمع عن شاعر يسمى الرزيق كان محدوداً محارفاً وقد بره مرة بعض الولاة بدنانير فلما عاد إلى بيته وجد اللص قد استصفى ما فيه[٤] ، وكذلك كان كثير من العلماء فقراء .

والحقيقة التى لحظها ابن حوقل أن هناك فقراً شاملا إلا لأقلية معينة ، واستتبع هذا الفقر وقلة المال فى أيدى الناس رخصاً فى الحاجات وقلة فى النفقات . ومما زاد الرخص كثرة العرض فى السلع وخاصة الزراعية منها لخصب الجزيرة وهو الموضوع الذى تقف منه المصادر العربية وقفة المعجب . ومنذ القرن التاسع نسمع الاصطخرى يقول بأن فى صقلية من الخصب والزرع والمواشى والرقيق ما يفضل سائر مدن الإسلام المتاخمة للبحر[٥] . ولكن لابد من أن نقر بأن الجدب كثيراً ما كان يعترى الجزيرة وفى سنة ٣٢٤هـ = ٩٣٦ م جاءت ريح عاصف قبلية حرقت الدوالى والثمار ولم يكن فى تلك السنة قطاف[٦] . وبعد الحروب المهلكة التى قام بها خليل انتشرت المجاعة فى المدينة والبوادى « حتى أكلوا الوالدون أولادهم[٧] » . واشتدت المجاعة كثيراً حتى خربت قلاع صقلية وبواديها . وكثيراً ما كانت الفتن تجعل الناس يغفلون عن العناية بمحاصيلهم فيسوء حالهم . ويحدثنا ابن حوقل أنه لما دخل صقلية كانت قد استحالت جميع أمورها من الخصب إلى الجدب[٨] .

---

(١) ابن حوقل ١/١٣٠ .

(٢) Amari : S. D. M. vol. 2, p. 252.

(٣) رياض النفوس فى المكتبة : ١٩٠ .

(٤) الخريدة ١١ الورقة ٤٤ ومجموعة الشعر رقم ٤٣ :

(٥) الاصطخرى « مسالك الممالك : ٧٠ ط . بريل ١٨٧٠ والمكتبة : ٣ .

(٦) تاريخ جزيرة صقلية ، نسخة كمبردج العربية ، المكتبة ص ١٧١ .

(٧) المصدر نفسه : ١٧٣ .

(٨) ابن حوقل ١/٢٣٠ .

٥

النهضة الزراعية والصناعية

ومن أسباب رخص الحاجيات وكثرتها أيضاً النهضة بالزراعة والأساليب الزراعية واستغلال كل أرض صالحة لأن تفلح ، وتهيئة الأرض لأنواع جديدة من المزروعات . فنى أيام البيزنطيين كانت صقلية تهتم بالقمح والكرمة وتعتمد فى الزيتون والزيت على شمال أفريقية، ويظهر أنها ظلت تستمدهما من هناك فى العصر الإسلامى أيضاً ؛ لأن صاحب كتاب الاستبصار لا يزال يقول فى زيت سفاقس « وعليه معول أهل صقلية وإيطالية وأنكبورده وقلورية »[١] وفى أخبار الفتح نسمع عن الكروم حول طبرمين وكلاما مبهماً عن الزروع . أما المسلمون فإنهم أدخلوا إلى صقلية كثيراً من أنواع الزراعة جاءوها بالليمون والبرتقال والقصب والأرز والنخيل والقطن والبردى حتى نشأت فى صقلية أساليب زراعية تلائم بيئتها وأصبحنا نسمع فى كتاب الفلاحة بما يسمى طريقة صقلية فى زراعة البصل مثلا[٢] أو عادة أهل صقلية فى زراعة القطن[٣] أو طريقتهم الخاصة فى عمل معنب من عصير العنب الحلو[٤] . وأكثر الناس من زراعة الخضروات وبعض أنواعها أدخله المسلمون إلى الجزيرة . وكانت بلرم وضواحيها عامرة بالبساتين والأجنة والطواحين على وادى عباس[٥] . وكانت الأراضى السبخة القريبة منها مزروعة بالقصب الفارسى وبالمقاثى الصالحة، وكان فى خلال أراضيها بقاع قد غلب عليها البربير وهو البردى المعمول

---

(١) الاستبصار : ٧ ط . فينا ، والمؤلف مجهول ولكنه كان يعيش فى عصر أبى يوسف أمير المؤمنين .

(٢) ابن العوام ، الفلاحة النبطية ، المكتبة : ٥٤٥ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه : ٥٤٦ - ٥٤٧ .

(٥) ابن حوقل ١/١٢٣ والمكتبة : ٥ .

منه الطوامير وأكثره يفتل حبالا للمراكب وأقله يعمل للسلطان منه طوامير لا يزيد على قدر كفايته[١]. ويذكر المقدسي كثرة الفواكه والخيرات والأعناب فى بلرم وضواحيها[٢] وتتردد فى الشعر بساتين المعسكر ومتنزهاته وفواراتها؛ ولم يغير الفتح النورمانى كثيراً من عمران صقلية ولذلك نستطيع أن نعتمد على ما كتبه الأدريسى لنتصور الحالة الزراعية بصقلية فى العصر الإسلامى . وليس هنالك من بلد مذكور فى نزهة المشتاق لا يقترن به ذكر البساتين والمنازه والمياه والمزارع الطيبة — كذلك كان الحال فى بلرم وجفلوذ ومسينة وقطانية وقارونية ولنبياده وبثيرة وجرجنت وسائر القلاع والحصون ، داخلية كانت أو ساحلية . وحول شنت ماركو خاصة كان يكثر البنفسج ذو الرائحة الفائحة العطرة[٣].

وشملت النهضة أيضاً الحياة الصناعية ، وكانت هذه ذات أصول فى العصر البيزنطى . وقد مر بنا أن الجلود الأرجوانية اللون والحرير اللازوردى وبعض الصوف كانت مما يحمل من صقلية إلى راڤنا . ولكن الصناعة فى العصر الإسلامى كثرت وتقدمت وشمل الإتقان عدة أنواع منها . واعتمدت الصناعات على الحاصلات النباتية والحيوانية والمعدنية فقامت صناعة السفن على الخشب من حول جفلوذ[٤] وعلى الحديد من بلهرا[٥] وكان القطن الذى يزرع حول جطين[٦] يصدر بكثرة إلى بلاد أفريقية[٧] ومن ميلاص يتجهز بالكتان الكثير الطيب[٨] ، وكان الكتان الصقلى ذا شهرة واسعة . ويذكر ابن حوقل أن ثياب الكتان فيها لا نظير لها جودة ورخصاً ، ويباع مستعملها مما يقطع قطعين من الخمسين رباعياً إلى ستين رباعيا فيزيد على ما يشترى من أمثاله

---

(١) المصدر نفسه ١٢٣/١ والمكتبة : ٨ — ٩ .
(٢) أحسن التقاسيم ٢٣١ والمكتبة الملحق الأول : ٥٥ .
(٣) نزهة المشتاق، المكتبة : ٣٢ .
(٤) نزهة المشتاق، والمكتبة : ١١١ .
(٥) ابن حوقل ١٢٣/١ والمكتبة ص ٩ .
(٦) المكتبة الصقلية : ١١٠ .
(٧) المصدر نفسه : ١٥٩ .
(٨) نزهة المشتاق : ٣٣ .

بمصر بالخمسين والستين ديناراً كثيراً[١] . وفى خطط المقريزى أنه وجد لعبدة بنت المعز فى جملة ما وجد فى خزائنها ثلاثون ألف شقة صقلية[٢] . وربما دلت هذه الشهرة المبكرة فى الكتان على رسوخ صناعته فى العصر الأغلبي إن لم يكن قبله . ويقول المقدسى : ومن صقلية تحمل الثياب المقصورة الجيدة[٣] ويقول ناصر خسرو : ويجلبون منها كتاناً رقيقاً وثياباً منقوشة يساوى الثوب منها فى مصر عشرة دنانير مغربية[٤] .

ولا ننس بجانب المنسوجات صناعات أخرى قائمة على المواد الحيوانية كالجلود، لشهرة صقلية بالمواشى كما فى أشعار بندار . أما تلك التى يذكرها ثيوقريطش فى قصائده فهى أنواع من المعزى وبعض المعزى الموجودة فيها اليوم من ذوات الأذن المتدلية مما يرجح أن العرب هم الذين جلبوها[٥] وكان لخيول صقلية فى العصر البيزنطى شهرة واسعة إذ كانت تربى بكثرة فى إقطاعات البابا ويستمد الباباوات خيولهم منها . ولما دخل العرب صقلية دخلتها الخيول العربية وطمست شهرة الخيول المحلية ، وكذلك جاء المسلمون بالجمل إلى صقلية ولكنه انقرض منها .

وقد مر بنا أنه كانت تصنع فيها الحبال والطوامير والسكر ، ويذكر ابن حوقل صناعة الخمور وتحضير القند[٦]. كما كانت تعتمد صادراتها على مستخرجات الثروة المعدنية كالكبريت والشب والزفت والقطران ، وعلى ثروة الغابات وخاصة من جبل إتنا الذى يؤخذ منه الجوز والقسطل وخشب الأرزن[٧] أضف إلى ذلك مستخرجات البحر والأنهار كسمك التن والمرجان . أما الواردات

---

(١) ابن حوقل ١/١٣١ .

(٢) الخطط ٢/١٦٤ .

(٣) أحسن التقاسيم : ٢٣٩ المكتبة الملحق الأول : ٥٧ .

(٤) سفر نامه ص ٤٥ .

(٥) Freman : History of Sicily vol. I p. 93.

(٦) أراد ابن حوقل أن يقلل من قيمة صقلية فى المنتجات فقال : إنها لم تختص بوجه من فضائل البلدان غير القمح والصوف والشعير والخمر وصبابة من القند إلى شىء من ثياب الكتان ١/١٣١

(٧) المكتبة : ١١٨ ، ١٤٥ .

إليها فكانت تشمل كل ما تدفع إليه الحاجة من سائر الطلبات[1].

واستدعت النهضة الصناعية تعدد الحرف فى أيدى الناس . وفى بلرم وحدها عد ابن حوقل أصنافاً كثيرة منها وذكر أن لكل أهل حرفة سوقاً . فبين مسجد ابن سقلاب والحارة الجديدة كانت تقع أكثر الأسواق كسوق " الزياتين بأجمعهم والدقاقين والصيارفة والصيادنة والحدادين والصياقلة وأسواق القمح والطرازيين والسماكين والأبزاريين وطائفة من القصابين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة والريحانيين والجرارين والخبازين والجدالين ، وطائفة من العطارين والجزارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين خارج المدينة . وببلرم طائفة من القصابين والجرارين والأساكفة وبها للقصابين دون المائتى حانوت لبيع اللحم والقليل منهم برأس السماط ويجاورهم القطانون والحلاجون والحذاءون" [2] . وهذه الفقرة الإحصائية غنية بالدلالة على حال السوق فى بلرم أثناء العصر الإسلامى .

٦
الدين والأخلاق

ونجد ابن حوقل يصف الصقليين[3] بقلة المروءة ، وبإقبالهم على شهادة الزور ، ويرميهم بقلة الفطنة وكلال الفهم وحدة الجهل وسرعة الطيش وموت اليقظة وبراعة اللؤم ، ويصل بين هذه الصفات فيهم وبين أغذيتهم السيئة ومطاعمهم المنتنة وخاصة إكثارهم من أكل البصل — الأمر الذى بلد إحساسهم ؛ ويصمهم بغلظ الطباع وسوء الخلق وغلبة الجفاء وطول المراء . وهذا الوصف منصرف إلى أهل بلرم . أما أهل بواديها وأرباب تلك البوادى فتغلب عليهم

---

(١) ابن حوقل ١/١٢١ .

(٢) ابن حوقل ١/١١٩ .

(٣) هذه الأوصاف مجموعة من مواطن متفرقة . انظر ابن حوقل ١/١٢٣ — ١٣١ .

بهيمية غامرة لألبابهم، وغفلة عن الحقوق والواجب ظاهرة فى معاملاتهم، وقول من الحق بعيد، وشنآن للغريب والطارئ عليهم عظيم شديد، لا يألفون ولا يؤلفون، وهم فى كرههم للغرباء يشبهون أهل بلرم حاضرتهم فقد طبع أهلها على بغض التجار والغرباء المجهزين، مع جفاء معدوم النظير فى أجفى الجبليين، مع أن مصالحهم تعتمد على الجلابين، وهم محتاجون إلى المسافرين لقيام حياتهم على التجارة.

وليس من الضرورى أن نصدق ابن حوقل فى كل ما يقول لأنه يصور أخلاق قوم كرههم، فليس من السهل أن نأخذ ما يقوله فى هذه الناحية بالتسليم وبخاصة لأنه يتحدث عن أمور اعتمد فى تصويرها على الشعور فأشبه بذلك الشاعر الذى يهجو. ثم إن الأخلاق نسبية تتغير من إقليم إلى إقليم ولا شك أنه كانت بين العراق وصقلية فوارق فى الحياة الاجتماعية جُعلت ابن حوقل يكره من صقلية ما لم يكن عراقى الصبغة، وكذلك حال ابن حوقل فى الأندلس فإنه لم يستسغ فيها أشياء كثيرة، وهذه الفوارق نمت مع الزمن وصورها ابن سعيد فى المفاضلة بين المشرق والمغرب [1] وهى أمور يلمحها الغريب. وقد انتقد ابن جبير الرحالة أشياء فى الشاميين وجدها تخالف ما عليه حال الناس فى بلده وأحس بالكره لها. والأساس الذى يبنى عليه ابن حوقل قلة المروءة والبلادة فى الصقليين فاسد، ونحن اليوم نمر بهذه الثورة على البصل مبتسمين. أضف إلى ذلك أن ابن حوقل كره صقلية لأنه غريب لم يجد فيها التقدير الذى يتطلع إليه غريب مثله، وهو عندئذ ذو حساسية خاصة بما يأتى من معاملة، وإذا صح أن الصقليين كانوا يكرهون الغرباء فإن من السهل أن نعلل ثورة ابن حوقل على صقلية. ثم هو قد كره صقلية لأنها كانت تثور على السلطان وتنقض الطاعة، ومن مهمته فى رحلته أن يؤكد الناس ولاءهم للسلطان وخضوعهم له، وهو كذلك قد وجد فيها قوماً يشتمون أهل العراق ويستهجنون

---

(١) انظر هذه المفاضلة والرد عليها فى مسالك الأبصار للعمرى المجلد الأول، الجزء الثالث من نسخة دار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ معارف عامة.

مبادئهم فى القدر والإرجاء . وتدل رحلته على أنه لم يختلط إلا بطبقات معينة ، وأنه كان يألف الغرباء ويطمئن إليهم أكثر من أهل الوطن . وفى هذه الفترة نسمعه ينحى بالذم على أهل البوادى التابعة لبلرم ولكن أتراه زارها ؟ وإن كان زارها فأين الوصف الدقيق الذى سجلته عينه النفاذة وجرأته النفسية ؟

ومهما ننكر مما قاله ابن حوقل فى ذم أخلاق الصقليين لا نستطيع أن ننكر أنه زار صقلية حين لم تكن تنعم إلا ببوادر الهدوء والطمأنينة فى ظل الكلبيين ، وكانت قد مرت بها سنوات عصيبة ، حتى إن ابن حوقل وجدها قد حالت من الخصب إلى الجدب . كما لا نستطيع أن ننكر أن أهل البلاد الأصليين ، إن كان يعنيهم ابن حوقل بالتسمية الصقلية ، كان أغلبهم من الموالى والعبيد ، ولم يدفع هؤلاء إلى الإسلام إلا الرغبة فى التخلص من بعض القيود الاجتماعية والمادية . ويحدثنا ابن حوقل أنه كتب كتاباً مستقلا فى صقلية جعله عشرة أبواب ، بدأ فيه بذكر ما يتفاخر به أهل الأمصار والقبائل والبلدان وما يلحقهم من الفضائل وكيفية لحاقها بالكور والمدن والرذائل المقصرة ببعضها عن الفخر والطيب والحسن ، ووسمه بكتاب صقلية ولم يترك لهم من فضيلة ورذيلة إلا ذكرها وسمى فيه معلميهم وذكر فتنهم وخلعهم للسلطان وطاعته وبعض فرقهم الدينية[1] ولا شك فى أن هذا الكتاب الذى ذكرت فيه الفضيلة إلى جانب الرذيلة أثمن من تلك الصفحات التى جعلها فصلا من كتاب « صورة الأرض » . وخير ما يظهر لنا انحياز ابن حوقل إلى جانب المساوئ ما ذكره جغرافى آخر وصف أهل صقلية بقوله : « وأهلها مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الأعراض والثياب والأحوال ، متميزون بالجميل فى الناس وحسن الصور والقصد فى المعاش إلى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة »[2] .

ومن مستغرب ما ذكره ابن حوقل عن أهل صقلية كرههم للغريب وهو شىء شاذ فى بيئة تجارية تعتمد على الغرباء والجلابين ، ولعل هذا الكره نشأ

(١) ابن حوقل ١/١٢٩ .
(٢) المكتبة الصقلية : ١٣ .

فى نفوسهم أولا نحو المهاجرين ، ثم عم حتى شمل كل الغرباء المقيم منهم والعابر ، وأصبحوا يظنون أن كل غريب فإنما جاء ينافسهم فى بلدهم ويستولى على أرزاقهم . أما الجفاء فهو أمر نسبي ولكنا نجد ابن قلاقس يلمسه حين زار صقلية فهو يقول فى قصيدة أرسلها إلى أبى الفتح بن خلف الصقلى :

وقمت لى من جفاء فى صقلية　　　بلطف مصر عليه ظرف بغداد

غير أن ابن جبير لم يلحظ فى البلاد حين زارها إلا اللطف فى المعاملة ، ولعل الفرق بينه وبين ابن حوقل وابن قلاقس أنه كان مشمولا بالعطف الدينى على مسلمى الجزيرة وأنه مغربى وهما مشرقيان ، يحسان بفرق واسع فى الطباع بين المشرق وصقلية .

على أى حال صور لنا ابن حوقل بهذه الأوصاف مجتمعاً صقليًّا منحلا ضعفت فيه الروابط الخلقية إلى حدٍ غير قليل وتعارضت مقاييسه وقواعد الدين الإسلامى أحياناً . فقد وجد الرحالة فيها « رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحونة بالرياء والنفاق والبطالين والفساق متمردين شيوخ وأحداث أغثاث رثاث قد عملوا السجادات ، منتصبين لأخذ الصدقات وقذف المحصنات ، نقم منزلة وبلايا شاملة وحتوف مصبوبة منصوبة وأكثرهم يقودون ومنهم من لايرى ذلك لشدة الرياء والسمعة ،وأكثرهم بالزور تطوعاً يشهدون ، مع جهل لا يفرق فيه بين فرض الوضوء وسنته ،ويقصدهم من أعوزه المكان لبطالته والموضع لعيارته فيؤونه ، وربما شاركوه بتافه من المأكول على أحوال يقبح ذكرها »[1]. ماذا نفهم من هذه العبارات على غموضها ؟ وما معنى الذين اتخذوا السجادات ؟ أكانوا يبتزون أموال الناس بإظهار الصلاح ؟ وما معنى قوله : ومنهم من لا يرى ذلك لشدة الرياء والسمعة بعد قوله وأكثرهم يقودون ؟ لقد أراد ابن حوقل — فيما يظهر — أن يصور فى هذه العبارة جانباً مظلماً من حياة بعض الجماعات فى بلرم ، وهى طبقة من الناس احترفت البطالة وأقامت فى رباطات على ساحل

(١) ابن حوقل ١/١٢١ وفى المكتبة الصقلية : ٧ اختلاف قليل جاء فيه « وأكثرهم يقودون ويلوطون وإنما أووا إلى هناك لعجزهم وعدم السكنى ومهانة أنفسهم » .

البحر ، تحاول أن تكسب عيشها بشتى الطرق ، وكلها دنىء خسيس قائم على إهدار الكرامة وعلى النصب والاحتيال .

ومن أهم ما لحظه ابن حوقل فى صقلية فرقة ذات مذهب خاص تسمى المشعمذين وإليها ينتمى أكثر أهل الحصون والبوادى والضياع أى هى منتشرة فى الأرياف ، وخاصة بين طبقات الموالى والعبيد . « ورأى هؤلاء التزويج إلى النصارى على أن ما كان بينهم من ولد ذكر لحق بأبيه من المشعمذين، وما كانت من أنثى فنصرانية مع أمها — لا يصلون ولا يتطهرون ولا يزكون ولا يحجون، وليس فيهم من يصوم شهر رمضان أو يغتسلون إذا صاموا من الجنابة ، وهذه منقبة لا يشركهم فيها أحد ، وفضيلة دون جميع الخلق أحرزوا بها فى الجهل قصب السبق ، ولقد أعررت كتابى هذا بذكرهم[١] » . ومن هذا الوصف يتبين لنا إلى أى درجة تقبلت نفوس الصقليين الدين الجديد ، وهى نفوس أقوام من الفلاحين والجنود والأرقاء . وهذه ناحية تفسر فى الواقع أكثر مظاهر الحياة العقلية والأدبية وقصورها على فئات المهاجرين . وإذا قرأنا كتب التراجم وجدنا فيها صورة غير هذه ، تمثل لنا لوناً من التشدد فى المحافظة على الدين ومقاييسه فى الفضائل . ألم يكن فى تلك الطبقة من العباد والحجاج والمصلين — ألم يكن فيهـــم صقليون أصليون ؟ إن من الظلم لصقلية أن نؤمن بأن الفضل كان وقفاً على جماعات المهاجرين من عرب وبربر وغيرهم ، ولكن ابن حوقل بعد ذلك إنما يؤرخ ما شاهده فى فترة معينة مما قد لا ينطبق على صقلية من بعده . ومن العبث أن نحاول رد من نعرف تراجمهم من الصقليين إلى أصولهم لنعرف أكانوا صقليين أصلا أم صقليين من أصل غريب عنها لنثبت أن فيمن كانوا من صقلية أصلا قوماً متدينين يحجون ويصلون ويزكون ويتطهرون .

وليس معنى هذا أنى أدفع تهمة الانحلال الخلقى عن البيئة الصقلية فطبقات الموالى والعبيد كانت مطعونة فى نفسياتها، وهى خصبة لنمو الرياء والملق والنفاق ، واختلاط الأجناس يعطى الفرصة لوجود ذلك الانحلال . ثم إن قيام الحياة

---

(١) ابن حوقل ١/١٢٩ .

فى المدن الصقلية على التجارة يدعو فى الغالب إلى العناية بظواهر الأشياء أكثر من الاحتفال بالتربية النفسية ، ولا شك فى أن كثرة المساجد ، حتى يكون منها فى قرية قريبة من بلرم مائتا مسجد ، لا تدل دائماً على تدين . وفى مثل هذه البيئة ما يسمى مراعاة العواطف وخاصة فى المآتم والأفراح ، وهذا الملق الظاهرى يفسر السجادات ، والمصلحة الفردية تفسير للتطوع بشهادة الزور ، والفقر من وراء كل تلك الرذائل ، أى أن الاختلال فى نظم الحياة الاقتصادية هو العامل الأول فى تلك النقائص ولست أستطيع أن أتصور إلى أى درجة كانت كثرة الأجناس من ناحية وشعور الأقليات بالانكماش على نفسها من ناحية أخرى ، يمدّان الحياة الاجتماعية بتفكك فى الروابط ، واتضاع فى القيم ، وقصر ومحدودية فى النظرة إلى النفع والضرر ، وخاصة أن مادة الخصام على أصول العصبية وغيرها كثيرة وفيرة .

وقد نلاحظ أن العصبية الإقليمية أوحت لابن حوقل بشىء كثير من الشنآن للمجتمع الصقلى ، وباعدت بينه وبينه ، وهى عصبية غير مستغربة حين نعرف أنها كانت تقوم بين بلدان صقلية نفسها ، وهى مشاعر ورثتها منذ العصر البيزنطى ، وقد رأينا كيف اغتاظ السرقوسيون لما رأوا بلرم فى أول العهد الإسلامى قد أصبحت تتحكم فى مصايرهم بعد أن كانت مدينة لا يأبهون بها ، وفى أيام المسلمين كانت جرجنت مركز البرابرة تنافس بلرم عاصمة الأرستقراطية العربية . بل لا نستبعد أن يكون الانقسام الأخير فى صقلية قام على أسباب من بينها تلك العصبية البلدية ، أى أن الأقاليم كانت ثائرة على زعامة بلرم وصادف ذلك هوى فى نفوس القواد المحليين ، فانتهزوا الفرصة لما سنحت ، واستقلوا ، وكانت بلرم تمثل الحضارة رفعة ودنوًا وتهيئ لمن ينزل فيها كل ما يمكن أن تقدمه الحضارة من خير وشر . وكان قد نشأ بينها وبين المدن الأخرى تفاوت واسع حتى كانت مثالا يثير المنافسة والحسد ، وهذا الفرق فى الترف نلمحه فى صيحة ابن منكود صاحب مازر فى وجه ابن البر اللغوى حين عرف أنه يشرب الخمر : « إذا كان ولا بد من شرب الخمر فهذا النوع

ببلرم وربما يعز وجوده هنا »[1].

ولعل فى هذا ما يدل على نزعة المفاضلة بين البلدان كما أنه يدل على ميل ابن منكود ليجعل من مازر ملجأ لما اعتقد أنه فضائل إسلامية ولكن روح التدين شىء والسياسة شىء آخر ، وقد أثبتت الأيام أن ابن منكود كان مخفقاً فى السياسة[2] .

---

(١) انظر إنباه الرواة فى ترجمة ابن البر ٢/١٤٦ وما بعدها .

(٢) انظر عن سوء تدبير ابن منكود بعد خروجه من صقلية : ٢٧٢ فى المكتبة الصقلية .

أ

الفصل الثالث

الحياة العقلية

١ ــ صقلية والصلات الثقافية

٢ ــ المدارس والمعلمون

٣ ــ هجرة الكتب إلى صقلية

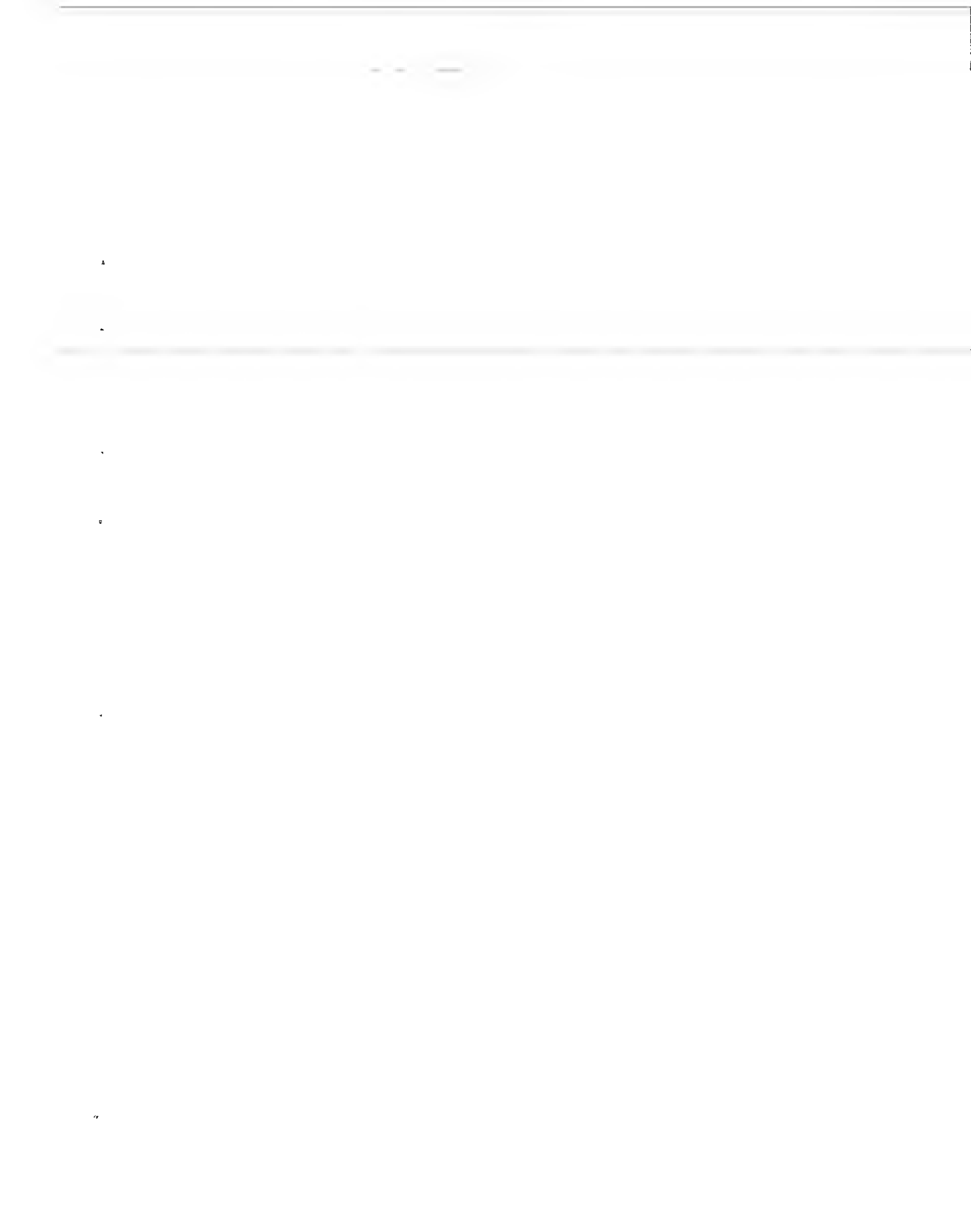
٤ ــ الفقه والحديث والقراءات

٥ ــ النواحى اللغوية

٦ ــ الزهد والتصوف

٧ ــ علوم الأوائل

٨ ــ نظرة إجمالية



١
صقلية والصلات الثقافية

كانت صقلية تهتدى بالأنوار المنبعثة من القيروان ، وكان لكل حادث أفريقى هام صدى فيها ، وسر هذا ليس فى أن صقلية قريبة فى موقعها من شمال أفريقية فحسب ولكن لأن أهل أفريقية هم الذين افتتحوها ، ومن ثم ظلت العلاقات قائمة بين المهاجرين وإخوانهم فى الوطن الأصلى ، وزاد هذه العلائق توثقاً تجدد الهجرة من أفريقية إلى صقلية ورحلة الصقليين إلى القيروان فى فى طلب العلم ، وهى ظاهرة نراها موجودة حتى بعد أن أصبح لصقلية فى النواحى العلمية اسم مذكور .

وفى أيام الكلبيين تمتعت صقلية بشىء من الاستقلال الذاتى مصحوب ببعض السيطرة الفاطمية ، وكان هذا الوضع السياسى ذا مظهرين : أما أولا فقد تبلورت فى صقلية جهود علمية خاصة ، وأصبح الجيل الناشىء من أبناء الفاتحين صقلى الروح والإنتاج ، إلى حد ما ، وأما ثانياً فقد أصبحت القاهرة تشارك القيروان فى توجيه الحياة الثقافية فى الجزيرة . وفى هذه الفترة أعلنت بلرم عن وجودها الثقافى والعقلى ، وأصبحت تذكر مع القاهرة والقيروان وقرطبة ، وأضحى لها علماء وأدباء يهاجرون إلى الأندلس ومصر وشمال أفريقيا . ونحسب أن كثيراً من هؤلاء المهاجرين كان يبحث عن الشهرة فى بلد كالقاهرة أو قرطبة إلى جانب بحثه عن وسائل العيش . وإلى جانب هؤلاء جماعة ممن كانوا يسافرون فى طلب العلم أو لأداء فريضة الحج ثم يعودون إلى ديارهم .

وعلى هذا لم تكن صقلية تعيش فى عزلة تباعد بينها وبين غيرها من البلاد الإسلامية ولكن الحركة كانت بطيئة ، وكانت أخطار البحر تحد من نشاطها . ومع ذلك فقد كانت الأسواق الصقلية مجالا لتبادل السلع والأفكار والرحلة

وعاملا أكيداً فى تفاعل الآراء ، كما كانت الرسائل المتبادلة بين أهلها وناس فى خارجها حلقة من حلقات الربط الثقافى .

غير أن هذا الاتصال — لم يعم بحيث يفقد صقلية شخصيتها بل لعلها احتفظت بعلامات مميزة وسمات خاصة رأينا لها أثراً فى الزراعة والصناعة والعادات والمعتقدات ، ونحاول أن نتلمس لها وجوداً فى النواحى الأدبية والعلمية وإن لم يكن من السهل أن نعثر عليها ، لأن صقلية فى هذه النواحى كانت تستند إلى موروث تشارك فيه غيرها من البلاد الإسلامية ولأن روح المحافظة حالت بينها وبين التفرد الواضح . وإذا كانت هذه المميزات مما يخفى أثره فليس معنى ذلك انعدامها ، ولا يمكن أن يكون علم صقلية كله جلباً يرد إليها كما ترد السلع التجارية إلى موانيها فذلك يتنافى مع أبسط حقائق الأشياء .

ثم ما هو طابع الحياة العقلية بجزيرة ترتكز الحياة فيها على قاعدة من النشاط الحربى أولا بينما النشاط المدنى يجىء فى المقام الثانى؟ سنرى بعد قليل أن الحياة العسكرية كانت ذات أثرين متناقضين التقيا فى النهاية : فقد صرفت الناس صرفاً إلى الحياة الثقافية فى بعض النواحى وكثرت عدد المدارس والمدرسين فزادت الكمية ولم تعن بالنوع ، وألقت بطلبة العلم إلى أيدى جماعة من المعلمين المتخلفين ، الذين اختفوا وراء الجلباب العلمي ليحميهم من حياة الجندية ، فتضاءل عدد الأكفاء من أهل التعلم . وصرفت الناس من وجهة أخرى عن الاستقرار والهدوء ورمت الأفكار بالقلق والتململ ، فأفقدت الدراسات شيئاً من العمق ، حتى إن تلك الصفحات الدامية التى تطالعنا بها الكتب التاريخية لتجلعنا نعجب — كما عجب المؤرخ سكوت[١] — كيف أمكن للمسلمين أن يضربوا بسهم فى الحياة العمرانية المدنية وكيف تأتى لهم أن يعملوا فى زراعة أو صناعة . غير أن الحرب لم تكن كل مظهر، فوراء الأحداث التى نقرؤها فى تاريخ ابن الأثير وابن خلدون والنويرى مسرح جانبى ترتسم فيه معالم واضحة، بعض الشىء، للمسجد والسوق والبيت والمزرعة .

(١) S. R. Scott : History of the Moorish Empire in Europe vol. 2 p. 61.

٢

المدارس والمعلمون

وفيما كتبه ابن حوقل عن صقلية ما ينقل إلينا شيئاً عن النشاط الثقافى فيها أثناء فترة معينة . فقد سجل هذا الرحالة — حينما زار بلرم — ظاهرتين كانتا متلازمتين تقريباً هما كثرة المساجد وكثرة المعلمين ، فعرف أن فى بلرم ما يزيد على مائتى مسجد ، وقرر أنه لم ير مثل هذا العدد فى بلد من البلدان الكبار ولا سمع به إلا فيما يتذاكره أهل قرطبة . قال " ولقد كنت واقفاً ذات يوم بها فى جوار دار أبى محمد القفصى الفقيه الوثائقى فرأيت من مسجده فى مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصرى ومنها شىء تجاه شىء وبينها طريق [١] " وعلة هذه الكثرة فيما استطاع أن يتعرفه من سؤال الناس " أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه ، لا يحب أن يشركه فيه غير أهله وحاشيته ، وربما كان أخوان منهم متلاصقة دارهما متصاقبة الحيطان ، فعمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده [٢] . "

وربما كان هذا التعليل الذى يقول به ابن حوقل صحيحاً لأن فيه ما يصور تلك الروح الفردية التى كانت تغلب على الحياة الإسلامية هنالك . غير أنا لا ننسى أن المسجد لازم استيطان المسلمين فى كل بلد من بلدان صقلية حتى كان القائد يبنى المسجد والمنبر تواً إثر استيلائه على بلد أو حصن ، وهى ظاهرة صاحبت الفتح الإسلامى فى أقطار أخرى ، ولكنها كانت فى صقلية أشد وأعنف ، لرسوخ المسيحية فيها عند الفتح ، فالإكثار من بناء المساجد

---

(١) المكتبة الصقلية : ٦ — ٧

(٢) المصدر نفسه : ٧ .

خير ما يقنع الجماعة الإسلامية بانتصارها على كل موروث صقلي ، وخير ما يطمئن الأذهان إلى تثبيت الصبغة الإسلامية فى تلك البلاد ، وهى طمأنينة لازمة فى بلد مجاور للعدو المتربص . وثمة شيء آخر وهو أن ابن حوقل إنما دهش لكثرة المساجد فى بلرم وحدها لأنه لم يزر من صقلية بلداً آخر فيما يظهر ، وكانت بلرم يومئذ هى العاصمة ومجتمع أهل الأدب ومنتجع طلاب العلم من سائر أنحاء صقلية ، فنشاط الحركة التعليمية فيها كان سبباً فى الاستكثار من المساجد وانضاف إلى هذا ما قاله ابن حوقل من التكاثر بها ، وأصبح غرض كل واحد من بناء المسجد « أن يقال مسجد فلان لا غير »[١].

فى هذه المساجد وفى المكاتب كثر المعلمون ، حتى كان منهم فى بلرم ما لا يقل عن ثلاثمائة معلم . وفكرة ابن حوقل عن المعلم مستمدة من الصورة الساخرة التى رسمها الجاحظ ، وهى فكرة وجدت سبيلها أيضاً إلى الأندلس حيث نجدها عند أبى عامر بن شهيد حين يقول فى تصويره ثقافة المعلم « وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غليظة وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون إلى فطن حمئة وأذهان صدئة سقطت إليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليمانى من الرقص والإيقاع »[٢].

ويغلو ابن حوقل فى حملته على المعلمين حتى ليراهم يمثلون الجنون والصرع ويعتقد أن الناس أجمعوا على أن المعلم محكوم عليه بالنقص والجهل والخفة وقلة العقل . غير أن معلمى صقلية فى نظره يتفوقون فى هذه الصفات على معلمى كل بلد . ومما كثرهم فيها " فرارهم من الغزو ورغبتهم عن الجهاد ، وذلك أن بلدهم ثغر من ثغور الروم وناحية تحادّ العدو ، والجهاد فيهم لم يزل قائماً والنفير دائماً مذ فتحت صقلية "[٣] ولذلك لم يكن يعفى من الجهاد إلا

---

(١) المكتبة الصقلية : ٧ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة القسم الأول المجلد الأول : ٢٠٥ .

(٣) ابن حوقل (الطبعة الثانية) ١/١٢٦ .

المعلمون ، أو من بذل الفدية عن نفسه ، أو تخلف مع رابطة السلطان ، فكان من السهل على من يخشى لقاء العدو أن يتخذ التعليم حرفة له ولذلك نزع إلى التعليم بلههم وحسنه لديهم جهلهم »[١].

هذه الكثرة فى عدد المعلمين والمساجد والمكاتب تشير إلى نشاط تعليمى واسع ؛ ومهما تكن الأسباب التى أدت إلى كثرة المعلمين — وما ذكره ابن حوقل لا يعدو الحق . فالذى لا شك فيه أن المعلم فى هذا العصر كان شخصية طاغية الأثر فى حياة الناس . وكان أهل صقلية يخالفون ابن حوقل فى نظرتهم إلى المعلمين — كانوا يرون أنهم " أعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم ومحصلوهم وأرباب فتاويهم وعدولهم ، وبهم عندهم يقوم الحلال والحرام وتعقد الأحكام وتنفذ الشهادات وهم الأدباء والخطباء " [٢]. وقد رأى ابن حوقل من هؤلاء المعلمين من يتولى خطبة الجمعة ، وعرف منهم العدول ، وسمى من توصل من بينهم إلى إلى منصب القضاء . فكان هؤلاء المعلمون هم الذين يوجهون الرأى العام فى أمور الدين والدنيا ، ولعل تدخلهم فى الأمور السياسية هو الذى جعل ابن حوقل يصبّ عليهم نقمته المريرة ويرميهم بكل نوع من أنواع الخسة والنذالة ، دل على ذلك قوله فيهم « حتى إنهم المتكلمون على السلطان فى سيره واختياراته . والإطلاق بالقبائح من ألسنتهم بمعايبه وإضافة محاسنه إلى مقابحه »[٣]. فمن هو السلطان الذى يعنيه ابن حوقل ؟ أهو حاكم صقلية أم الخليفة الفاطمى ؟ سواء أكان هذا أم ذاك ففى كلمات ابن حوقل دلالة على المقاومة التى كان يقودها جماعة المعلمين فى وجه المذهب الشيعى .

ويفهم مما ذكره ابن حوقل أن حرفة التعليم لم تكن تدرّ خيراً كثيراً على أصحابها ، حتى كان فيهم من لا يصيب من طلابه على كثرتهم أكثر من عشرة

---

(١) المصدر السابق : ١٢٧ .
(٢) ابن حوقل ١/١٢٧ .
(٣) المصدر السابق : ١٢٦ .

دنانير فى السنة[1] ويريد ابن حوقل أن يثبت من ذلك أن المعلم قد قنع باليسير هرباً من الجهاد، وأن الهرب من الجهاد نقص فى الرجولة والمروءة، ولكن ابن حوقل نفسه يتحدث فى مكان آخر عن فقر أهل صقلية – على كثرة خيراتها – وأنه ليس فيهم رجل تملك بدرة عين ولا رآها قطّ إلا عند سلطان إن كان ممن يدخل إليه ومحله محل من يؤذن له عليه[2] . وهذا الفقر العام يفسر قلة ما كان يحصله المعلم، فإذا أضفت إلى الفقر كثرة المتنافسين فى صنعة واحدة عرفت سر الضآلة فى المحصول . ولقد كان عبد الحق الفقيه إماماً من أئمة صقلية لا مدرساً فى كتاب ومع ذلك فلم يجد بيده من المال ما يشترى به كتاباً ، واضطر أن يبيع بعض ما يملك فى سبيل شرائه . وربما كان النقد فى أيدى الناس قليلا لتعاملهم بالمقايضة والبدل ، وهذا يجعلنا نظن أن المعلمين لم يكونوا يأخذون أجرهم نقداً دائماً ، وإنما كان يصلهم من طلابهم محاصيل متنوعة على طريق الأجر أو الهدية .

ومع كل ذلك فقد كان يزاول مهنة التدريس كثير من أعيان البلاد ، ويتخرج فى المدارس كثير من أولاد السراة[3] . وقد أطلعنا ابن حوقل على صورة راقية من صور الكتاب حين حدثنا عن واحد منها لم يكن ينفرد بالتعليم فيه معلم واحد بل يدرس فيه خمسة معلمين لهم من بينهم رئيس هو مدير الكتاب[4] .ولم تعجب هذه الصورة ابن حوقل ووصفها بأنها من أرثّ ما رآه فى صقلية وأغثه ، وتهكم بأشخاص المعلمين فيه ، وأزرى على خلقهم ، وضحك من بكائهم على أحدهم حينما مات وخرج زملاؤه يشيعونه .

وفى هذه المكاتب وفى حلقات الشيوخ بالمساجد كان الصقلى يتلقى علومه الأولى ، فإذا نزعت به فى مستقبل حياته نزعة علمية ، غادر صقلية

---

(١) المصدر السابق : ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٧ .

(٣) المصدر نفسه وقد تحمل العبارة هنالك على محمل آخر .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٣٠ .

إلى المشرق فدرس على أساتذة مشهورين، ورجع يحمل إجازات كثيرة ، أو كاتب هؤلاء الأساتذة دون أن يرحل ، واستجازهم كتبهم، أو طمح إلى زيارة الكعبة فالتقى فى رحلته بالشيوخ المشهورين ، فسمع منهم وتلقى عنهم ، وعاد إلى بلده ، فزادت الرحلة من مكانته ، واعتقد الناس أنه قد أصبح علماً يقصد لعلمه . وكانت مصر مهبط كثير من هؤلاء الراحلين فى طلب العلم لعلاقتها بصقلية ، ولنشاطها العلمى ، ولأنها على الطريق إلى الحجاز .

وإذا استأنسنا بما رواه المازرى عن نفسه فى تأليف كتاب « المعلم » قدرنا أن المدرسين كانوا يلقون العلم إلى الطلبة إملاء ، وأن الطلبة كانوا يدونون ما يلقى إليهم من محاضرات ، ثم يكون من بعد ذلك كتاب ينتشر باسم الأستاذ الذى أملاه[١] .

وقد أشار ابن حوقل إلى أن صبيان المكتب كانوا كثيرين[٢] . وتحدثنا إحدى الروايات الموسومة بشىء من التفصيل أن عدد الطلبة كان يصل أحياناً إلى ثمانين طالباً فى الحلقة الواحدة ، وأن هذا العدد كان يضم طلبة من بلدان مختلفة[٣] وهو عدد ضئيل إذا قارناه بما روى عن مجالس بعض الأعلام كالجوينى فقد كان يجلس فى حلقة درسه كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة ومن الطلبة[٤] .

ولم تكن علاقة التلميذ بأستاذه دائماً نوعاً من العرفان بالجميل فقد كان الطالب أحياناً ينشق على أستاذه ، وينبه على أوهامه ، ويعيب عليه بعض آرائه [٥] ، أو يسىء الأدب معه ويتتبع سقطاته[٦] .

---

(١) ابن الأبار ، التكملة رقم ١٥١٢ .

(٢) ابن حوقل ١ /١٢٧ .

(٣) ابن بشكوال ، الصلة رقم ٣٥١ .

(٤) السبكى ، طبقات الشافعية ٣ /٢٥٥ .

(٥) Centenario ١ /٣٧٣ نقلا من كتاب ترتيب المدارك .

(٦) المصدر السابق : ٣٨١ .

٣

هجرة الكتب إلى صقلية

وكانت الكتب التى يتداولها الطلبة والأساتذه مما يرد على الجزيرة من بلاد المشرق والأندلس والقيروان أو مما يؤلفه الأساتذة أنفسهم . وإذا استطعنا أن نعرف الكتب الواردة التى راجت فى صقلية، أو أمثلة منها على الأقل، كان ذلك خير معين لنا على تصور الثقافة السائدة فى الجزيرة وعلى مدى الامتزاج والتفاعل فى تلك الثقافة . وقد كانت الكتب ترحل كالناس فى بطء ، وتتحرك من مكان إلى آخر فى أناة ، وربما كان انتقال كتاب من بلد إلى آخر حدثاً يستحق التأريخ . فليس بغريب أن يصرح ابن القطاع الصقلى حين سأله المصريون عن كتاب « الصحاح » للجوهرى بأن الكتاب لم يصل إليهم فى صقلية [١]. ويحدثنا ابن رشيق أن أول من أدخل كتاب « اليتيمة » للثعالبى إلى القيروان هو أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادى الدارمى سنة ٤٣٩[٢] ه ، ولما رحل ابن البر الصقلى إلى المشرق كان كتاب اليتيمة أحد مروياته عن شيخه أبي محمد إسماعيل بن محمد النيسابورى ، وعنه تلقاه فى صقلية تلميذه ابن القطاع [٣].

وقد دخلت « المدونة » فى الفقه المالكى عند فتح صقلية أو بعيد ذلك بقليل ، وكان كل نشاط الفقهاء يدور حولها اختصاراً وشرحاً ، وبياناً لما فيها من غريب ، ونسجاً على منوالها . وظل الأمر كذلك حتى آخر أيام العرب فى صقلية. وبديهى أن الموطأ كان يدرس فى صقلية أيضاً ويقوم بتدريسه محدثون

---

(١) القفطى ، إنباه الرواة ١/٢٣٦ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ٤ مجلد ١ ص ٦٨ .

(٣) ابن ظافر ، بدائع البدائه على هامش معاهد التنصيص ١/٩٢ .

أعلام، مثل الفقيه السمنطارى ،وكان الطلبة لكثرة دروج الاسم على أفواههم يلفظونه بغير همز . ويستعملون إلى جانبه كتاب « الملخص » وهو كتاب ألفه القابسى ولخص فيه ما اتصل اسناده من حديث الموطأ وكان الطلبة يسمونه الملخص بالفتح مع أن صاحبه سماه الملخص بالكسر [١]. وألف ابن جعفر القصرى كتاباً سماه بكتاب « تجديد الإيمان وشرائع الإسلام » يشتمل على نيف وستين جزءاً وفيه بحث فى المعجزات فدخل صقلية وقرأه الناس [٢].

وفى القرن الخامس وردت إلى صقلية نسخة من كتاب « التقريب » وهو كتاب اختصر به البرالى البلنسى (البريلى بخط ابن بشكوال) كتاب المدونة وجمع فيه أقوال أصحاب مالك حتى قال فيه بعضهم : من أراد أن يكون فقيها من ليلته فعليه بكتاب البريلى [٣] وقرأه عبد الحق شيخ فقهاء صقلية فى عصره ، وأراد أن يشتريه فلم يتيسر له ثمنه ، فباع حوائج من داره واشتراه [٤] ، فلما عرف أهل صقلية ذلك زادت قيمة الكتاب فى أعينهم ، فأقبلوا عليه وتنافسوا فى اقتنائه .

وتحدثنا المصادر أن على بن حمزة اللغوى راوية المتنبى ذهب إلى صقلية وعاش فى بلرم وتوفى بها سنة ٣٧٥ ﻫ وربما روى عنه الصقليون بعض كتبه التى كانت فى أكثرها ردوداً على الأئمة كالرد على ابن السكيت فى إصلاح المنطق والرد على الجاحظ فى الحيوان والرد على ثعلب فى الفصيح . . . [٥] إلخ وربما استنتجنا بأنه درس هنالك ديوان المتنبى. وأيّاً كان الأمر فمن المحقق أن صقلية عرفت ديوان المتنبى معرفة وثيقة إذ كان جزءاً من ثقافة عالمها اللغوى ابن البر ، درسه على ابن رشدين بمصر ثم أخذه عنه طلبته بصقلية [٦] . ولعل

---

(١) ابن مكى ، تثقيف اللسان نسخة الآستانة الباب ٣٦ .
(٢) الصلة رقم ٣٧٩ .
(٣) رياض النفوس فى المكتبة : ١٩٤ .
(٤) ابن فرحون الديباج المذهب : ١١٣ .
(٥) ياقوت ، معجم الأدباء ١٣/٢٠٨ .
(٦) ابن الأبار ، التكلة رقم ٣٦٧ .

دواوين كثيرين من شعراء المشرق دخلت صقلية أيضاً فنحن نسمع أن المغنين فيها كانوا يغنون أشعاراً لقيس بن الخطيم ، وابن الرومى وذى الرمة وسحيم عبد بنى الحسحاس وكثير عزة وجرير وجميل والشريف الرضى وغيرهم[١].

وفى الأسانيد ما يدل على أن طلبة ابن البر اللغوى رووا عنه « مقدمة ابن بابشاذ » فى النحو . ومن الكتب التى درسها هذا العالم كتاب « أدب الكتاب » لابن قتيبة وعنه تلقاه تلميذه أبو العرب الصقلى ثم درسه فى الأندلس حين ارتحل إليها[٢].

ولا ننس أن كتاب كليلة ودمنة من الكتب التى راجت فى صقلية . ولما دخل ابن رشيق إلى صقلية دخلتها كتبه وخاصة كتاب « العمدة » ، وجرى تدريسه فى مدينة مازر حتى لقد رأى القفطى على إحدى نسخ العمدة قراءة ابن منكود والى مازر لهذا الكتاب على مؤلفه[٣]. وقد اختصره فيما بعد أحد الصقليين وهو عثمان بن على الخزرجى وكان فى أيام يحيى بن تميم بن المعز[٤]. ويدلنا العمدة على بعض المصادر التى كان يستطيع أن يطلع عليها أهل المغرب ومن السهل أن ترتحل هذه الكتب إلى صقلية بعد أن تصل إلى القيروان، أى أن أهل صقلية ربما عرفوا كتب قدامة بن جعفر والرمانى والعسكرى وغيرهم . وقد أثر قدامة فى توجيه النقد فى المغرب فى غير ابن رشيق ، ونسمع أن الشاعر المعروف بابن ميخائيل[٥] أحد شعراء المعز كان شديد الانتقاد للشعر على مذهب قدامه[٦] .

وعرفت فى المغرب أيضاً كتب أبى حيان التوحيدى ورسائل إخوان الصفا

---

(١) ابن مكى ، تثقيف اللسان ، الباب الأربعون .

(٢) ابن الأبار ، التكملة رقم ٣٨٦ .

(٣) القفطى ، إنباه الرواة – ترجمة ابن رشيق ١/٢٧٧ .

(٤) ياقوت ، معجم الأدباء ١٢/١٣٥ .

(٥) هو محمد بن الحسين بن أبى الفتح القرشى المغربى . انظر ترجمته فى كتاب المحمدين من الشعراء للقفطى (نسخة دار الكتب المصورة رقم ٢١٧٧ تاريخ الورقة ٧٦) .

(٦) المصدر السابق .

وكان أول من أدخل هذه الرسائل إلى الأندلس هو الكرمانى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ[١] ، ولعلها دخلت صقلية فى تاريخ مقارب .

ولعل صقلية كانت تستمد بعض الكتب فى الطب من شمال أفريقية فمنذ بدء العصر الفاطمى عرفت القيروان نشاطاً واسعاً فى الطب ، واشتهر فيها إسحاق بن عمران وابن سليمان الإسرائيلى وابن الجزار وقد ترك هذا الأخير ما يقرب من ثلاثين مؤلفاً ولا يعقل أن تكون هذه الكتب مجهولة كلها فى صقلية .

٤

الفقه والحديث والقراءات

استمدت صقلية من إفريقية ناساً يعمرونها بعد الفتح ، فذهب إليها هؤلاء بعقلياتهم وثقافاتهم ومذاهبهم ، فإذا أردنا أن نتصور حياة ناحية ثقافية فى صقلية كان لابد لنا من أن نتعرف إلى حالها فى أفريقية قبل ذلك .

وفى الفقه كان يغلب على أفريقية فى القديم مذهب الكوفيين ومذهب الأحناف [٢] . ثم أخذ جماعة ممن درسوا مذهب مالك يحاولون نشره ، ولكن هذا المذهب لم يستطع أن يبسط ظله على أفريقية إلا أيام أسد وسحنون اللذين استمدا ثقافتهما الفقهية من المشرق .

وأصحاب سحنون هم الذين نشروا مذهب مالك فى صقلية فكان عبد الله ابن حمدون (أو حمدويه) الكلبى الصقلى أحد من سمع منه (توفى سنة ٢٧٠ هـ[٣]) من أوائل فقهائها ، وكان من أصحابه أيضاً دعامة بن محمد الفقيه

---

(١) ابن أبى أصيبعة ، طبقات الأطباء ٢ / ٤٠ .

(٢) Centenario p. 261. نقلا عن المدارك .

(٣) Centenario المجلد الأول : ٣٦٩ .

الذى ولى فيها القضاء لبنى الأغلب (توفى سنة ٢٩٧ هـ)[١]. ومنهم أيضاً محمد بن ميمون بن عمر والأفريقى قاضى القيروان أولاثم قاضى صقلية (٣٢٠)[٢] وكان لقمان بن يوسف الغسانى يدرس المدونة ويأخذها فى اللوح مدة أربع عشرة سنة أقامها فى صقلية ، ويقال إنه كان عالماً باثنى عشر صنفاً من العلوم (٣١٩هـ)[٣] .

وفى سنة ٢٨١ عين سالم بن سليمان الكندى للقضاء فى صقلية فسار فيها بسيرة العدل ، وكان إلى جانب القضاء مهتما بتدريس الفقه ، ولذلك انتشر عنه مذهب مالك فى صقلية وظل فى القضاء حتى سنة ٢٨٩ هـ وعرف فيه الناس حسن أخلاقه وتقشفه وبره بطلبة العلم ، ولعله أن يكون ألف فى صقلية كتابه فى الفقه الذى دعى « السليمانية » نسبة إليه [٤].

كل هذا يفيد أن مذهب مالك أخذ فى الانتشار فى صقلية قبل انتهاء القرن الثالث . فكيف نوفق بين هذا وبين قول المقدسى " والغالب على أهل صقلية أصحاب أبى حنيفة "[٥] ؟ إذا عرفت أن المقدسى كتب كتابه بعد قيام الدعوة الفاطمية فى إفريقية قدرنا أن يكون المذهب المالكى قد انهزم أمام هذه الدعوة فى صقلية كما انهزم فى إفريقية . ولكن لم يقبل الناس هنالك على مذهب أبى حنيفة ولا يأخذون بالمذهب الفاطمى ؟ ربما كان فى صقلية أقلية من أتباع أبى حنيفة فلما هزم المذهب المالكى ظهروا على غيرهم وربما لجأ المالكيون إلى مذهب أبى حنيفة فرارا من ترك السنة لأن بنى أبى عبيد كانوا متسامحين مع الأحناف متشددين مع المالكية . .

---

(١) المكتبة الصقلية ، الملحق الأول : ٥ ، نقلا عن البيان المغرب .

(٢) رياض النفوس فى المكتبة الصقلية : ١٩١ وانظر الديباج المذهب : ٣٣٤ .

(٣) رياض النفوس فى المكتبة الصقلية : ١٩٢ وانظر كذلك طبقات أبى العرب : ١٧١

(٤) Centenario, vol., II, p. 108. نقلا عن المعالم الجزء الثانى : ١٣٦–١٣٧ وانظر طبقات أبى العرب : ١٤٨ .

(٥) المكتبة الصقلية ، الملحق الأول : ٥٧ وأحسن التقاسيم ص ٢٣٨ .

وكان من المقاومة العنيفة التى واجه بها المالكية بنى عبيد ، ثم إخفاق ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد التى كانت تعبيراً عن نقمة الفقهاء المالكيين على العبيديين — كان من ذلك أن هاجر كثير من الأفريقيين إلى صقلية لينجوا بأنفسهم من الاضطهاد المذهبى .

غير أن بلاط صقلية — وصاحبه فاطمى الهوى — كان يؤوى الفقهاء الذين يميلون إلى بنى عبيد أو الذين لا يقفون منهم موقف المتشددين ، لأن من كان متساهلا من الفقهاء فى نظرته إلى العبيديين ، لم يكن يقدره علماء القيروان المتشددون — كرهوا أبا إسحاق التونسى لأنه لم يفت بكفر من يقول بتفضيل على بن أبى طالب على سائر الصحابة[١] ، وكرهوا البرادعى (خلف بن أبى القاسم الأزدى) لأنه كان يصحب سلاطين القيروان ولأنه — فيما يقال — تمثل فى بعض كتبه مشيراً إلى العبيديين :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا   وإن وعدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

فأفتوا بطرح كتبه[٢] فلما نبت به القيروان خرج إلى صقلية وقصد أميرها فحصلت له عنده مكانة — وهذا دليل على ترحيب البلاط الصقلى بمن كان يسالم المذهب والسياسة الفاطمية — وفى صقلية ألف البرادعى كتبه مثل كتاب التهذيب فى اختصار المدونة وغيره. وطارت كتبه بصقلية حتى لقد قيل إن المناظرة فى جميع بلدانها كانت بكتابه المسمى بالتهذيب[٣] . وواضح من مقدمة هذا الكتاب أنه ألفه تسهيلا على الطلبة فى دروس الفقه إذ يقول هنالك : " هذا كتاب قصدت فيه إلى تهذيب مسائل المدونة والمختلطة خاصة دون غيرها ، إذ هى أشرف ما ألف فى الفقه من الدواوين ، واعتمدت فيها على الإيجاز والاختصار ، دون البسط والانتشار ، ليكون ذلك أدعى لنشاط الدارس ،

---

(١) القاضى عياض ، ترتيب المدارك ٢ / ١٥١ .

(٢) ابن فرحون ، الديباج المذهب : ١١٢ .

(٣) المصدر السابق (الديباج) .

وأسرع لفهمه وعدة لتذكرته . . . وجعلت مسائلها على التوالى حسبما هى فى الأمهات ، إلا شيئاً يسيراً قدمته أو أخرته ، واستقصيت مسائل كل كتاب فيه ، خلا ما تكرر من مسائله أو ذكر منها فى غيره، فإنى تركته مع الرسوم وكثير من الآثار كراهية التطويل[١] » وقد فرغ البرادعى من كتابه هذا سنة ٣٧٢ هـ . وفى مقدمته — التى اقتبست منها آنفاً — ما يشير إلى أن الطريقة المدرسية فى تلخيص المطولات كانت قد أخذت تجد طريقها إلى حلقات العلم بصقلية ، وهى طريقة فيها شىء من الخطر يشبه من الناحية الأخرى كثرة التعلق بالشروح والحواشى . وليس للبرادعى فى « التهذيب » رأى ذاتى ومع ذلك فقد استدرك عليه عبد الحق الصقلى فيما وهم فيه على المدونة مع أن البرادعى صرح فى مقدمة كتابه بأنه صحح روايته على أبى محمد بن أبى زيد[٢] .

ولم يتكون لصقلية مدرسة فقهية من أبنائها إلا فى أواخر القرن الرابع حين نجد أمثال الحصائرى أبى بكر الصقلى الفرضى الذى كان عليه اعتماد الطلبة الصقليين فى دراسة الفرائض ، وأبى بكر بن أبى العباس الفقيه الذى كان يشتغل بالتدريس ، وكل هؤلاء استمدوا ثقافتهم من أساتذة غرباء فى صقلية أو غيرها ثم كان لهم الفضل فى تخريج أكبر فقهاء صقلية ومحدثيها فى القرن الخامس فمن تلامذتهم ابن يونس ، وعبد الحق الصقلى والسمنطارى .وعلى يد هؤلاء تخرج متأخرو الفقهاء الصقليين الذين أدركهم الفتح النورمانى ومنهم من بقى فى صقلية كابن الحكار الصقلى وابن مفرج وابن الكلاعى وابن القابلة[٣] ومنهم من غادرها عند الفتح كأبى الحذاء القيسى الصقلى وأبى البهاء عبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقرئ وأبى القاسم السرقوسى[٤].

---

(١) البرادعى ، تهذيب المدونة (نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٠٥ فقه مالكى) الورقة الأولى .

(٢) البرادعى ، تهذيب المدونة ص ١ .

(٣) Centenario ، المجلد الأول ص ٣٨٣ ما بعدها .

(٤) السلفى ، المعجم ورقة ١٢٠ ، ٢٤٦ .

ومع امتياز طبقة ابن يونس ، وعبد الحق والسمنطارى فى الشهرة التى كسبوها خارج حدود صقلية ، لا نجد لهم تميزاً بدراسة معينة فكلهم يحومون لحول المدونة فى الفقه وحول الموطأ فى الحديث . فتناول ابن يونس الفرضى المدونة وأضاف إليها غيرها من الأمهات وجعل من ذلك كتاباً كان عليه اعتماد طلبة العلوم للمذاكرة حتى لقد انتقل الكتاب إلى المغرب وانتسخ فى سبتة[1] وهذا أول مثل على كتاب تصدره صقلية إلى الخارج . وبعد أن تفقه عبد الحق بالشيوخ القرويين ، وحجّ أول مرة ، والتقى بالقاضى عبد الوهاب المالكى وأبى ذر الهروى — بعد ذلك عاد إلى صقلية يتناول المدونة يدرسها ويؤلف الكتب حولها فألف كتاب « النكت والفروق لمسائل المدونة » — وهو من أول ما ألف — واشتهر الكتاب وأقبل عليه الطلبة[2] ثم ندم على تأليفه هذا وتغيرت نظرته إليه ، فتولاه بالتغيير ورجع عن كثير من اختباراته وتعليلاته ، وكان يقول لو قدرت على جمعه وإخفائه لفعلت[3] . وألف كتاب تهذيب الطالب واستدرك على تهذيب البرادعى للمدونة ، وكتب جزءاً فى بسط ألفاظ المدونة . وبسببه أقبل الناس على كتاب « التقريب » وهو اختصار للمدونة .

ومع ذلك فإن عبد الحق أكبر فقيه صقلى أحرز شهرة فى وطنه وفى خارجه حتى إنه لما حج حجته الثانية سنة ٥٤٠ هـ ولقى بمكة الجوينى أعجب به إمام الحرمين وكان يجله ويعترف بفضله — كما أعجب به عبد الحق — وكان الجوينى يخاطبه فى كتبه إليه بالشيخ الأوحد والشيخ الجليل إذ تبودلت الرسائل بينهما وهما فى مكة ، ومن العجيب أن يتبادلا هذه الرسائل وهما فى بلد واحد ، ولكن يظهر أن عبد الحق أراد أن يثبت أجوبة الجوينى فى كتاب ينشره على الناس ، وتدور الأسئلة التى تقدم بها عبد الحق على عدة موضوعات فقهية وكلامية فقد سأله مثلا عن اعتقاد بعض العوام أن الله سبحانه كالأجسام

---

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب : ٢٧٤ .

(٢) المصدر السابق : ١٧٤ .

(٣) المصدر السابق .

العظيمة التى تعظم بكثرة الأجزاء ، وعن ذهول العوام عن وجه الدلالة على صدق الأنبياء هل يضرهم ، وثمة أسئلة عن الجوهر والعرض وعن الكرامات وما يصح منها وما لا يصح، وهل يجوز ازدياد الطعام كرامة للولى مع منع انقلاب الدجلة ذهباً، وأسئلة عن المنجمين ، وعن معنى تمثل جبريل للنبى عليه السلام فى صورة دحية الكلبى ،وهل تنفصل أجزاء ثم تعاد أثناء هذا التمثل أم تصير بعض الأجزاء على صفة رجل وتبقى الأجزاء الأخرى [١] .

ونحن نتساءل هل كانت هذه المسائل تدور فى رءوس الفقهاء ودارسى الفقه بصقلية أو أنها صورة مما كان يعتلج فى نفس عبد الحق وحده ؟ وإلى أى حد تمثل أسئلته عن الكرامات وعن التنجيم جوانب من الحياة العقلية فى بلده ؟ وهل كان الناس مهتمين حقاً بالاطلاع على أمور تتعلق بالصفات وثبوت النبوات ؟ وهى أسئلة لا يمكن أن نقطع فيها بالقول الفصل .

وعن طريق عبد الحق امتد أثر صقلية إلى الخارج فقد درس فى صقلية والقيروان ومكة والإسكندرية — درس عليه فى القيروان ابن الحياط [٢] ومحمد بن نعمة الأسدى [٣] ولقيه بمكة ابن قطرى الزبيدى [٤] وعبد الرحمن بن المعافرى [٥] . ودخل أثره الأندلس لأن بعض تلامذته هاجر إليها كثابت الفقيه الصقلى [٦] وكان من تلامذته فى صقلية نفسها طلبة أندلسيون كما كان فيمن لقيه أثناء رحلاته جماعة من الأندلسيين أيضاً كابن أبى الدنيا القرطبى [٧] الذى صحبه بمكة ومصر وأخذ عنه كثيراً ، وابن الحصار [٨] الذى درس عليه فى صقلية نفسها ،

---

(١) مسائل الشيخ عبد الحق بن محمد بن هارون الصقلى (مجموعة رقم ١١ ش فقه مالكى بدار الكتب المصرية) .

(٢) ابن بشكوال : الصلة رقم ٨٣٦ .

(٣) المصدر السابق رقم ١٢٠٧ .

(٤) ابن الأبار : التكلة رقم ٥٠٨ .

(٥) ابن الأبار : رقم ١٦٤٨ .

(٦) ابن بشكوال رقم ٢٨٧ .

(٧) ابن بشكوال رقم ٤٥٥ .

(٨) ابن بشكوال رقم ٣٩٢ .

وأبى عبد الله الميورقى الذى صحبه فى رحلته الثانية وأخذ عنه تواليفه [١]. وليس لدينا من مؤلفات عبد الحق ما يجلى لنا أثره الصحيح فى الفقه ، ولعله كان متشددا فى أحكامه وفتاواه والمثال الوحيد الذى نملكه على ذلك افتاؤه بعدم جواز الصلاة خلف من يظهر فى قراءته النون الخفيفة أو التنوين عند الياء والواو وعد هذا من اللحن ، قياساً على من يتكلم فى الصلاة متعمداً[٢].

أما ثالث المشهورين وهو عتيق السمنطارى فقد انصرف إلى تدريس الحديث وتلقى ثقافته على الفرضى والحصائرى بصقلية ، وسكن بلرم ، أى أنه هجر قريته سمنطار ولزم حلقات الدرس فى المدينة . وكانت له رحلة زار فيها الحجاز فحج وساح فى البلدان من أرض اليمن والشام إلى أرض فارس وخراسان، ولقى بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاد فكتب عنهم جميع ما سمع وصنف كل ما جمع [٣] ، وقد كان للسمنطارى نشاط واسع فى التصوف — سنتحدث عنه فى حينه — كما أنه ألف فى الفقه تأليف وصفت بأنها فى غاية الترتيب والبيان [٤] . وقام السمنطارى على الموطأ وأفرغ له كثيرا من جهده كما دأب عبد الحق على المدونة . وظل عتيق يدرس الحديث فى صقلية حتى سقطت فى يد النورمان . ويحدثنا أحد تلامذته أنه رآه ببلرم ووصفه بأنه كان مستجاب الدعوة فعندما قوى دوقه [٥] الإفرنجى على الجزيرة وأهلها قال : اللهم إنك قضيت على المسلمين بما قضيت فإن تمت ولايته فسخره لهم . فلما ملكها صار عليهم أحن من الوالد على الولد [٦] . وفى سنة ٤٦٤ هـ توفى السمنطارى ، وهاجر بعض تلامذته من صقلية ووصل مصر منهم ابن الحذاء القيسى الصقلى وعبد الكريم

(١) ابن الأبار رقم ٤٤٣ .

(٢) ابن مكى الصقلى : تثقيف اللسان (الباب ٣٥) .

(٣) معجم البلدان لياقوت مادة « سمنطار » والمكتبة الصقلية : ١١٣ .

(٤) المصدر السابق

(٥) فى الأصل ذوقه : وهو رجار الأول وظاهر من النص أنه استعمل اللقب ظناً منه أنه الاسم

(٦) السلفى الورقة ٢٨٦ .

بن عبد الله بن محمد المقرئ الواعظ [١].

وظل الفقه بعد هؤلاء الأعلام ، يدور حول المدونة ومختصراتها ، حتى إن ابن الحكار الصقلي شرحها بتفصيل في نحو ثلاثمائة جزء[٢] ، وذكر من حضر مجالسه أنه كان يناظر بالبرادعي ويتكلم عليه كلاماً دقيقاً [٣] . ثم جاء ابن فروج الصقلي (أو ابن مفرج) فأعاد النظر في تمهيد البرادعي ورتبه على نسق المدونة[٤].

وفي غضون هذا العصر اعتنق كثير من المالكية مذهب الأشعري في تأييد السنة فكانوا حرباً على الأعتزال كما كانوا متشددين في التمسك بحرفية مذهب أبي الحسن ، يقول السبكي « والأشاعرة ولا سيما المغاربة منهم كانوا يستصعبون الخروج عن حرفية ما رسمه الأشعري ولا يرون مخالفة أبي الحسن في نقير ولا قطمير [٥]. وقد التقى ابن حوقل في صقلية بمن يكره أهل العراق ويسميهم مرجئة لتركهم القطع على أهل الكبائر بالخلود ، ومن يرى المعتزلة فرقة ضالة ويكفر أهلها[٦] ، ولكن هذا لا يعني أن الجزيرة خلت من الاعتزال والتشيع ومذهب الخوارج وغير هذه من مذاهب . وكيف تخلو وسكانها أصلهم من أفريقية وقد كانت المذاهب في أفريقية متنوعة ، فالتشيع في كتامة ومذهبا الإباضية والراسبية منتشران في قسطيلية وقفصة ونفطة والحامة ، والاعتزال في مزاتة وزناتة من قبائل البربر على مذهب واصل بن عطاء ، وفي السوس شيعة ومالكية وبينهم القتال المتصل والدماء الدائمة[٧] . ولا بد أن القائلين بالاعتزال

---

(١) المصدر السابق ورقة ١١٠ ، ٢٤٦ .

(٢) Centenario المجلد الأول : ٣٨٣ .

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق

(٥) طبقات الشافعية : ١٢٤/٤ .

(٦) ابن حوقل ١٢٧/١

(٧) المصدر نفسه ٩٦/١ .

فى صقلية قد أظهروا رءوسهم عند قيام الدعوة الفاطمية كما تقوت نفوس المتشيعين .

ويكاد ما تقدم من بحث يكون قاصراً على الفقه دون غيره من الدراسات كالحديث والتفسير والقراءات لأن المعلومات التى بين أيدينا عن هذه الفروع لا تعدو النتف ، وهى لا تطلعنا على شىء مهما جهدنا فى تتبعها واستقصائها فقد يقال لنا مثلا إن عمار بن المنصور الكلبى كان ذا يد فى الفقه والحديث[١] وأن ابن مكى كان فقيهاً محدثاً[٢] أو ما هو من هذا القبيل . ولكن مثل هذه الأخبار لا تسند البحث بشىء ذى بال . وكل ما هو واضح لدينا أن دراسة الحديث كانت تدور – إبان ازدهار الدراسات الدينية – حول الموطأ أو ملخصات منه ، وأن عبد الحق الصقلى والسمنطارى من أكبر من قاموا بهذه الدراسة فى عصر واحد . ومن الطريف أن أحد تلامذة السمنطارى روى فى مصر حديثاً رواه فيها تلميذ آخر من تلامذة عبد الحق[٣] . وقد عقد ابن مكى فى كتاب تثقيف اللسان فصلا فى أغلاط المحدثين[٤] وهو فصل لا يدل على نشاط متميز بخصائص معينة ، ولكن له دلالة أبعد ، ففيه إشارة إلى أن علماء صقلية كانوا يتحرزون من الخطأ اللغوى فى الحديث ، وربما لم يكونوا يجيزونه إطلاقاً . فابن مكى لم يكن لغوياً فحسب ، ولكنه كان فقيها محدثاً ، وتعقبه لأخطاء الباحثين لا يمليه عليه الحس اللغوى وحده ، وإنما يبعث عليه أيضاً مبدأه الفقهى ، وابن مكى أيضاً ممن سمع عبد الحق وتتلمذ له .

وإذا كنا نعرف هذا القدر الضئيل عن الحديث والمحدثين ، فنحن فى

---

(١) العماد الأصفهانى : الخريدة الجزء الحادى عشر الورقة ٤٢ والترجمة رقم ٣٧ من مجموعة الشعر .

(٢) المصدر نفسه الورقة ٤٥ والترجمة رقم ٤٦ من مجموعة الشعر .

(٣) هو قول الرسول : الذى تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله ، انظر معجم السلفى الورقة ١٢٠ ، ٢٤٦ .

(٤) هو الباب السادس والثلاثون .

الواقع نجهل كل شيء عن التفسير والمفسرين ، لأن المصادر لا تذكر شيئاً من ذلك خلا مرة واحدة جاء فيها أن محمد بن عبد الله المقرئ من أهل صقلية المقيمين بها ، كان من أهل القرآن والتفسير[١].

وربما لم يكن حظنا من المعلومات عن القراءات بأحسن كثيراً من حظنا فيما نعرفه عن الحديث ولكنه على أى حال خير من معلوماتنا عن التفسير . ونستطيع أن نطمئن إلى أن هذه الدراسات تكاد تكون من نصيب كل دارس للعلوم الإسلامية فالفقيه محدث مقرئ فرضى أصولى، والمقرئ لغوى نحوى محدث وهكذا . وإذا اتخذنا القيروان مثالاً لصقلية لستطعنا أن نحكم بأن قراءة نافع هى التى كانت شائعة فيها فمنذ أن حل محمد بن عمر بن خيرون المعافرى الأندلسى مدينة القيروان ، وكان إماماً فى هذه القراءة أخذ يقرئ الناس بها فى مسجد هنالك عرف باسمه، وكان يأخذ أخذاً شديداً على مذهب المشيخة من أصحاب ورش ، وقد روى القراءة عنه عامة أهل القيروان وسائر المغرب[٢].

ونستطيع أن نلمس أثر مصر فى توجيه القراءات بصقلية ، حقًّا ربما كان المعافرى الأندلسى ذا أثر فى هذه الناحية ولكنا نرى محمد بن خراسان (توفى ٣٨٦) — وأبوه مولى بنى الأغلب — يطلب العلم بمصر ويجمع إلى النحو معرفة بالقراءة ويتصدر للإقراء والحديث فى صقلية ، ومنه سمع بها يوسف بن أبى حبيب بن محمد وأبو الحسن غيلان ابن تميم الفزارى[٣] .

وفى عصر عبد الحق والسمنطارى كثر أهل القراءات فى صقلية من الصقليين والغرباء ، فكان من الصقليين عبد الله بن فرح المدينى ومحمد بن إبراهيم بن الشامى المدينى ومحمد بن على الأزدى بن بنت العروق ومحمد بن عبد الله القتال (القناد ؟) وهؤلاء جميعاً هم « شيوخ المدينة بصقلية والمقدمون

---

(١) القفطى : إنباه الرواة ٢ / ١٢١ .

(٢) ابن الأبار : التكملة رقم ٣١٩ .

(٣) المقفى للمقريزى فى المكتبة الصقلية : ٦٦٥ .

للإقراء[١] » وكان يشاركهم جماعة من الوافدين فيهم أحمد بن محمد بن عباد الأشبيلى وأبو عبيد الله بن جمهير[٢] ولعل أشهر المقرئين الصقليين فى صقلية نفسها هو ابن بنت العروق الذى درس عليه ابن الحصار القرطبى ثم تصدر بعد ما أحسن القراءة للاقراء بالمسجد الجامع بقرطبة[٣].

غير أن أعظم ما قدمته صقلية فى فرع القراءات لم يتم فى صقلية نفسها وإنما تم فى خارجها ، مما سأشير إليه فى فصل آخر .

٥

النواحي اللغوية

لعل الحياة التعليمية التى وصفناها كانت خير مجال للدراسة النحوية واللغوية منذ قرّ المسلمون على أرض الجزيرة . ولكن اللحن كان قوام الكلام فى الحياة اليومية ، فأصبح عمل المكاتب وحلقات الدروس ضبط الألسنة عن الخطأ فى كتاب الله وحديث الرسول وعند قراءة الكتب وإلقاء الخطب . وعجزت فى هذا أيضاً ؛ فأما المتحرزون المتدينون فتعففوا عن رواية الحديث لئلا يقعوا فى الخطأ[٤] وأما من لم تقو فى نفسه الدوافع لذلك فاندفع يكتب أو يخطب غير مُلْقٍ بالا إلى ما يقع فى كلامه من أخطاء . وقد شهد ابن حوقل خطيباً فى بلرم فى يوم جمعة وسمعه يجزم الأسماء مع الصلة ويجرّ الأفعال من أول خطبته إلى آخرها ، ولم يكن فى الناس من يعترض عليه مع أنه خطبهم نحو حولين[٥] . وقد

---

(١) معجم السلفى ٢/٢٤٦ .

(٢) المصدر السابق

(٣) الصلة رقم ٣٩٢ والمكتبة الصقلية الملحق الأول : ٤٨ .

(٤) معجم السلفى ٢/٢٤٦ .

(٥) ابن حوقل ١/١٢٧ .

تطور أمر هذا اللحن وتعدى دائرة الحديث اليومى ودروس الوعظ وخطبة الجمعة ، وامتد إلى الكتابة والتدوين ، وأصبح التصحيف فى « المشهور من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، واللحن فى الواضح المتداول منه ، وتعمد الوقف فى مواضع لا يجوز الوقوف عليها من كتاب الله عز وجل وتغيير أشعار العرب وتصحيفها ، وتصنيف كتب الفقه وغيرها ، ملحونة تقرأ كذلك فلا يؤبه إلى لحنها ، ولا يفطن إلى غلطها »[1] . وقد ذكر لنا صاحب تثقيف اللسان أمثلة من أغلاط سمعها أو قرأها قال « ولقد وقفت على كتاب بخط رجل من خاصة الناس وأفاضلهم يقول أحب أن تشهد لى فى كذا وكذا بالشين يريد تجتهد ، ورأيت فى آخر أكبر منه وأعلى منزلة بيت شعر على ظهر كتاب وهو قول الشاعر :

زوامل للأسفار لا علم عندهم   بجيدها إلا كعلم الأباعر

كتبه للأصفار بالصاد . . وكتب إلى آخر من أهل العلم رقعة فيها « وقد عزمت على الإيتيان إليك» بزيادة ياء . وشهدت يوماً رجلا قبله تخصص وفقه وحفظ للأخبار والأشعار ، وقد سمع كلاماً فيه ذكر الشدق فلما سمعه بالدال غير معجمة أنكر وتعجب من أن يجوز ذلك — وليس يجوز سواه[2] .

ويتضح من كتاب ابن مكى هذا أن صقلية كانت إلى عصره قد انفردت بلهجة ميزتها عن المشرق والأندلس ، قال : " ألا ترى أن أهل المشرق يقولون النِّسيان وآمّين عند الدعاء بالتشديد وأخذت للأمر هبته ، وليس فى بلدنا أحد يقول إلا النِّسيان وآمين بالتخفيف وأخذت للأمر أهبته ، ومثل ذلك كثير مما ذكره علماؤهم وأخذوه عليهم وقد يغلطون فيما لا يلفظ به أهل بلدنا ، ولا سمعوا به قط ، مثل قولهم فاقرة فى الفاقورة وعنب ملاّحى وهو مخفف اللام وقارورة فى القاريه وتوقّر وتحمّد فى توقّر وتحمّد ، فى أشباه لذلك كثيرة

(١) ابن مكى : الورقة الثانية .

(٢) ابن مكى : الورقة ٢ — ٣ .

فيما ملأوا به كتبهم ، فإذا قرأه من لا يعرفه ولا يستعمله لم يستنفع به كبير منفعة ، وكان معرفة ما يستعمله ويغلط فيه أولى به ، وأعود بالفائدة عليه ، وكذلك غلط أهل الأندلس ربما وافق غلط أهل بلدنا وربما خالفه حكى الزبيدى أنهم يقولون فى التيْن َتين وفى النوْى َنوْى وفى القبيط قبيد ومثل ذلك كثير مما لاغلط عندنا فيه ولا حاجة بنا إلى التنبيه عليه[١] » .

ومن مميزات هذه اللهجة أنهم كانوا يقولون « تار » وآخذ بتارى ، ُودخْرا لك ، ويقولون سكّينة وعروسة، ويستعمل العامة منهم لفظة حلّوة والخاصة لفظة حلاوة بدلا من حلوى ويقولون عنكبوتة وشفة[٢] بضم أولها وتشديد ثانيها إلى غير ذلك من ألفاظ تثبت لصقلية تميزاً بلهجة معينة .

وظل هذا اللحن ينمو ويبسط ظله على اللغة حتّى إذا بلغنا العصر النورمانى وجدناه يظهر فى الشعر ، فقد حدثنا العماد أنه وجد فى شعر الغاون الصقلى أحد شعراء ذلك العصر لحناً كثيراً ، وربما لو روى لنا شعر كثير من هذا العصر على حقيقته لكنا وجدنا للغاون هذا مشابه بين الشعراء الآخرين[٣] .

وأكبر الظن أن مكاتب المعلمين وحلق المدرسين أحست إحساساً خفيّاً بإخفاقها أمام تيار الحياة ، فأخذت تلتوى على نفسها وتجتّر غذاءها ونسيت واجبها الأول ، فسارت بالنحو إلى مرحلة الألغاز والأحاجى كالذى نجده فى مثل قول ابن الدباغ الصقلى[٤].

إنّ هند المليحـــة الحسنـــاء وأى من أضمرت لخل وفاء

وليس من الغريب الشاذ أن لا نجد لهؤلاء النحاة كتاباً أو تعليقة إذ كان أكثرهم من أرباب المكاتب . وهب أن أولئك النحويين ألفوا كتباً وقاموا

---

(١) ابن مكى : الورقة ٢ — ٤ .

(٢) كذلك كان يلفظها أهل الأندلس كما هو واضح من أزجالهم .

(٣) الخريدة الجزء ١١ الورقة ١١ .

(٤) السيوطى : بغية الوعاة : ٤٢٢ وإنباه الرواة ٢/٣٦٠ .

بتعاليق وشروح ، فالذى حدث أن هذه كلها فقدت ولم يصلنا منها شيء .

وليس الأمر كذلك فى اللغة فقد اشتهر فيها علماء أعلام امتدت شهرتهم إلى غير بلدهم ، كما اجتذبت صقلية إليها فريقاً من مشاهير اللغويين درسوا فيها وأفادوا . فمن هؤلاء راوية المتنبي الذى تقدمت الإشارة إليه ومنهم موسى ابن أصبغ المرادى القرطبي الذى طلب علم اللغة فى المشرق ، ودخل العراق ، ولقى ابن دريد ، ثم اتخذ صقلية وطناً له ، وفيها نظم « المبتدا » فى ثمانية آلاف بيت [١] ومن هؤلاء أيضاً صاعد اللغوى فقد اختل حاله بالأندلس وعجز عن ستر ولده وأهله واستأذن الخليفة بالانطلاق عن الأندلس فلم يأذن له خوفاً من أن يهجوه ، فخرج مستخفياً سنة ٤٠٣ هـ واتصل بصاحب صقلية وفارق البؤس وراجع النعمة ثم عاد إلى الأندلس ثم انكفأ إلى صقلية ، ومات بها سنة ٤١٠ [٢] هـ ومن اتصاله بصاحب صقلية نعرف أنه أقام بمدينة بلرم ، ولكنا لا نستطيع أن نعرف مدى تأثيره فى الدراسات اللغوية أثناء مقامه هنالك .

فإذا ذهبنا نبحث عن جهود صقلية نفسها وجدنا نهضتها اللغوية تعاصر نشاطها فى الفقه وألفينا مدرسة ابن البر اللغوى تظهر جانب مدرسة عبد الحق والسمنطارى فى الفقه والحديث . إلا أن ابن البر أسس مدرسة فى مازر ، ثم انتقل إلى بلرم ، بينما لم يبارح عبد الحق والسمنطارى بلدهما إلى بلد آخر من صقلية .

وفى المدرسة اللغوية تخرج ابن القطاع وأبو العرب وعمر بن خلف بن مكى الصقلى ومن ثم كانت مدرسة واضحة المعالم لأننا نعرف أصحابها بأعيانهم وببعض آثارهم ، ونستطيع أن نتصور مبلغ نشاطهم وخطوط اتجاهاتهم . وقد ضم ابن رشيق جهوده إلى جهود هذه المدرسة وقوى فيها الناحية الأدبية النقدية .

---

(١) السيوطى : بغية الوعاة : ٤٠٠ والمكتبة الصقلية : ٦٧٨ .

(٢) الذخيرة ، القسم الرابع الجزء الأول ص ٣٨ — ٣٩ وصاحب صقلية حينئذ هو جعفر ابن ثقة الدولة .

أما شيخ هذه المدرسة فهو محمد بن على بن الحسين بن البر التميمى الغوثى ، ولد بصقلية ثم رحل عنها فى طلب العلم إلى المشرق ، وكان أكثر عنايته موجها إلى دراسة اللغة ، فدرسها على جماعة من اللغويين منهم النجيرمى وأبو سهم محمد بن على الهروى اللغوى ، وصالح بن رشدين وعلى هذا الأخير سمع شعر أبى الطيب المتنبى سنة ٤١٣ ه[١]. وواضح أنه استفاد أكثر معرفته اللغوية فى مصر حتى أصبح أحد الأئمة فى علم العربية واللغة والآداب وجمع إلى ذلك جودة الضبط وحسن الخط ؛ وشهد له مترجموه بأن كل ما وجد له من تقييد فى غاية الإفادة والإمتاع ، وفى سنة ٤٠٥ ه اتفق مع أبى طاهر التجيبى البرقى أن يغادرا مصر معاً من الإسكندرية إلى المغرب قال التجيبى « واتفق له بعد مفارقتى أن صحب فتياناً من أهل القيروان فألفهم وآثر صحبتهم ، وقد أقلعنا من الإسكندرية فى يوم واحد بريح طيبة وتغيرت من بعد[٢]. . . وفى نهاية الرحلة عادا فالتقيا بالمهدية » .

ولما عاد إلى صقلية اختار مازر مقاماً ، واتصل بصاحبها ابن منكود ، فقربه وأكرمه ، وفى مازر ورد عليه الطلاب يدرسون اللغة ويحدثنا أندلسى من الراحلين إليه فى طلب العلم أنه حضر إلى مازر ليدرس عليه فصادف فى ذلك الوقت أن علم ابن منكود بأن ابن البر يشرب الخمر فتأثر من ذلك وأرسل إليه من يقول له « إننا إنما أردناك لعلمك ودينك وأردنا منك الصيانة وإذا كان ولا بد من شرب الخمر فهذا النوع ببلرم وربما يعز وجوده هنا[٣] » وخجل ابن البر من هذا القول وأحس أن مازر تضيق به وتتبرم بوجوده ، فارتحل عنها إلى بلرم ، وهناك أخذ يدّرس اللغة . والظن أن تلميذه على بن جعفر السعدى المعروف بابن القطاع درس عليه فيها ، وكذلك فعل أبو العرب

---

(١) التكملة رقم ١٠٥١ .

(٢) انظر شرح المختار من شعر بشار : ٢٥٣ — ٢٥٤ .

(٣) إنباه الرواة مجلد ٢ الورقة ٢٤٦ وما بعدها .

الصقلى الشاعر ومحمد بن سابق الصقلى الملقب بالجزيرى — نسبة إلى جزيرة شقر . وهؤلاء هم أشهر تلامذته الصقليين ، ودرس عليه من غير صقلية أبو القاسم عبد الرحمن بن عمر القصيرى وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم الصيرفى وأبو الطيب عبد المنعم بن من الله القروى المعروف بابن الكماد[١] . وقد سمع عليه الصيرفى شعر أبى الطيب فى شهر ربيع الأول سنة ٤٥٩ وسمع عليه أبو العرب الصقلى كتاب أدب الكتاب لابن قتيبة وعن أبى العرب روى الكتاب بالأندلس إذ درسه فى أواخر حياته حين مقامه بطرطوشة[٢] . وقبيل سقوط بلرم ارتحل ابن البر إلى الأندلس فدخلها سنة ٤٦٠ هـ[٣].

وقبل أن يتفرق تلامذة ابن البر فى الأمصار ، ويهاجر أستاذهم من بلرم ، ألف تلميذه ابن مكى كتابه « تثقيف اللسان » ولولا هذا الكتاب لما استطعنا أن نحكم بوجود علاقة بين ابن البر وابن مكى إذ يقول المؤلف فى مقدمة كتابه « وعرضت جميع ذلك على الإمام الأوحد العلم المفرد أبى بكر محمد بن على بن الحسين بن البر التميمى — أيده الله — فأثبت ما عرفه وارتضاه ، ومحوت ما أنكره وأباه ، لأزول عن مواقف الاستهداف ، وأريح نفسى من عهدة التغليط ، وأقطع لسان كل حاسد ، وأفل غرب كل مكابر ومعاند »[٤].

فلابن البر رأى فى هذا الكتاب ، ولابن مكى علاقة به ولا بد أن نفترض وجود هذه العلاقة قبل سنة ٤٦٠ هـ ، لأن ابن البر غادر صقلية فى هذا العام ، وفيه أو بعيده ارتحل ابن مكى إلى تونس حيث تسلم الخطابة فيها ، وكان كما يذكر من ترجم له بليغاً فى خطبه حتى إنها لم تكن تقصر عن خطب ابن نباتة[٥].

---

(١) التكملة : رقم ١٠٥١ .

(٢) التكملة رقم ٨٣ .

(٣) المصدر نفسه رقم ١٠٥١ .

(٤) تثقيف اللسان الورقة ٩ .

(٥) الخريدة ١١ الورقة ٤٥ وإنباه الرواة المجلد الأول الورقة ٦٢٢ .

إذن فكتاب تثقيف اللسان الذى عنينا به فى غير موطن من هذا الفصل أصدق نتاج لصقلية بعامة ، ولمدرستها اللغوية بخاصة ، كما أنه — فى بابه — خير أثر صقلى قاوم الفناء لنتصور منه كثيراً من جوانب الحياة اللغوية فى تلك الجزيرة . ويقول لنا مؤلفه إنه كتبه استجابة لرغبة سائل سأله أن يجمع له مما يصحّفه الناس فى ألفاظهم ، وما يغلط فيه أهل الفقه ، فلما انتهى من الكلام فى التصحيف خطر له أن يضم إليه غيره قال : « فأضفت إلى ذلك غيره من الأغاليط التى سمعتها من الناس على اختلاف طبقاتهم من ما لا يوجد فى كتب المتقدمين التنبيه على أكثره ، لأن كل من ألف كتاباً فى هذا المعنى فإنما نبه على غلط أهل عصره وبلده ، وأهل البلدان مختلفون فى أغاليطهم . . . إلخ »[١]. فليس لدينا ما هو أصدق من هذا الكتاب تعبيراً عن الشعور باستقلال صقلية فى طابعها اللغوى ، فى كل ما خلفه الصقليون ، وربما ابتزمنا هذا الثناء لأنه رمز لوعى قوىى فى نفس مؤلفه ، ودليل على معاناته تجربة للرصد والتحرى والإصغاء لما يقرأ ويسمع ، وربما استحق صاحبه تقديرنا لخضوعه للإشراف العلمى الصحيح ، وأخذه بتوجيه أستاذه .

وبعد أن جمع المؤلف أغلاطاً سمعها من الأفواه فى بلده ، قسم كتابه إلى خمسين باباً تحدث فيها عن التصحيف والتبديل والزيادة فى الأسماء والنقص فيها ، والزيادة فى الأفعال والنقص فيها ، وتأنيث ما هو مذكر وتذكير ما هو مؤنث . . . إلخ وتحدث عن الأغلاط التى يقع فيها العامة والخاصة معاً . وعما يصيب فيه فريق دون آخر ، وقدم لنا فصولا ممتعة عن أخطاء القراء وأهل الحديث والفقة والوثائق والطب والسماع ، وفى هذه الفصول خاصة استطعنا أن نستشف بعض معالم الحياة العقلية بصقلية فى صفحة الخطأ اللغوى .

والنتيجة التى ننتهى إليها فى هذا البحث أن لغة التأليف لم تكن سليمة

(١) تثقيف اللسان الورقة ٣ ، ٤ .

ـ إلى جانب لغة الكلام ـ أو أنها على الأقل لم تكن ترضى أهل اللغة القائمين بالمحافظة عليها . والفقهاء على وجه الخصوص هم الواقعون تحت تهمة التهاون فى لغتهم. وهى تهمة ترجع إلى ما قبل هذا العصر إذ نراها عند ابن فارس[١] وأبى حيان التوحيدى[٢] قبل ذلك . وهذه مشكلة تواجه الصحة فى التعبير قبل أن تواجه الجمال فيه، وربما استطعنا أن نتلمس شيئاً منها فيما كتبه ابن حوقل، فقد حاول أن يسخر من الصقليين فى بلاغتهم وتندر على رجل رآه فى المسجد الجامع ببلرم وفى يده قصة مهر ، وهو مقبل على قراءتها وكلما مر له فصل داوم على تقريظه لحسن ما تأتى له من المعانى الجيدة والشروط البديعة واستيفاء أسباب البلاغة[٣] . ومعنى هذا الخبر أن كتاب العهود والوثائق كانوا قد تطاولوا إلى مقام أهل الكتابة الفنية ، وهو قلب للأوضاع ، لأن البلاغة ليست عنصراً من العناصر التى لا بد أن تستوفيها أوراق العقود وتعابير الشروط . ومن هذا نرى أن صحة التعبير التى كانت لازمة لأصحاب الوثائق ، قد أهدرت وحاول القائمون عليها أن يمسحوها بمسحة من جمال ليخفوا قبح الخطأ فيما يكتبون .

كان هؤلاء الوثائقيون طائفة مهمة فى الحياة اليومية وكان الواحد منهم يسمى فلاناً الوثائقى ، وكانت صناعتهم قد اتخذت لها أصولا ، وكتبت فيها الكتب ، وربما كان معلمهم فيها ابن الهندى القرطبى الذى كان بصيراً بعقد الوثائق ، فألف فيها ديواناً كبيراً وشحنه بالخبر والحكم والأمثال والنوادر والشعر والفوائد والحجج ليضمن لأصحاب الصناعة شيئاً من خلابة البيان ، واخترع فى علم الوثائق فنوناً وألفاظاً وفصولا وأصولا وعقداً عجيبة[٤]، ولا

---

(١) الصاحبى : ٣٢ ط . المطبعة السلفية .

(٢) البصائر والذخائر (نسخة خطية بدار الكتب المصرية) المجلد الأول الورقة : ١٥ .

(٣) ابن حوقل ١/١٢٥ .

(٤) الصلة رقم ١٩ .

نستبعد أن يكون الوثائقيون فى صقلية قد انتفعوا بهذا الكتاب وباصطلاحاته وأصوله، كما لا نستبعد أيضاً أن يكون فيهم من ألف فى الوثائق كتباً تهدى المبتدئين إلى ما يريدون معرفته من هذا الفن .

ولكن اللغة تقلبت على أسنة أقلامهم حتى كادت تكون عامية، ومرجعنا فى تصور هذه الناحية كتاب تثقيف اللسان[1] .

٦

الزهد والتصوف

منذ أن توجه المسلمون لفتح صقلية ظهر فيهم ميل إلى الجهاد مصحوب بميل آخر إلى المرابطة والعبادة . ومن أجل ذلك بنى رباط على الساحل الأفريقى التجأ إليه الزهاد والصالحون ليطمئنوا إلى الهدوء فى تحنفهم، وليطمئنوا على وطنهم من الغارات الخارجية. وظل هؤلاء يحملون سلاحين أحدهما من الحديد والثانى من الدعوات حتى جاء المهدى فنزع الأول ن أيديهم وبقى الثانى يدافعون به عن فرديتهم ويلوحون به فوق رءوس أعدائهم .

وفى وقت قصير أصبحت صقلية كلها رباطاً يستدعى اليقظة فى الهجوم والدفاع وعاد النوعان من الميل يظهران فى نفوس الناس ، ففريق من الصالحين آثر الحرب والجندية ، وفريق قنع بالانفراد والانقطاع عن الدنيا . وبين هذين كان فريق ثالث وجده ابن حوقل فى طبقات المعلمين إذ لجأوا إلى التعليم فراراً من الجندية .

وإلى الفريق المتقشف المتقلل من متاع الدنيا تنتمى تلك الطبقة من القضاة الأولين الذين دخلوا صقلية ، مثل ابن أبى محرز وعمرو بن ميمون ، ومنه أيضاً بعض زهاد صقليين فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، أوضحهم شخصية

---

(١) الباب الثامن والثلاثون .

أبو الحسن الصقلى الحريرى الذى قضى عمره صامتاً لا ينطق إلا بذكر الله تعالى أو بما يعنيه، فإذا أقيمت الصلاة تأوه واجتر نفسه وتواجد وقال: "واذهاب عمرى فى خسارة " [١].

وحين حاول الصقليون أن يفاسفوا الزهد أقاموا التصوف على الحياة الواقعية وعلى السلامة الفقهية المذهبية ، وعلى اللباذ بعالم الأساطير والكرامات وبذلك اجتمع فى التصوف ، زهد القاضى المتعفف وصبر المجاهد وكرامات العابد . وقد خضع هذا التصوف فى نشأته لمؤثرين قويين أضعفهما الاتصال بالمشرق عن طريق الحج إلى مكة ومشاهدة الصقليين للعباد المنقطعين حول البيت . أما المؤثر القوى فهو الحياة الاجتماعية نمسها لأنا نحس أنه لازم نشأة التصوف الشعور بتغير الأحوال وسيرها من سىء إلى أسوأ ، والاستدلال بفساد الظاهر على فساد الباطن ، وعدم اقتران العلم بالعمل ، وطلب بعض الناس للدنيا بطريق الزهادة والنسك، فكان التصوف فى واقعه ثورة نفسية على سوء الحال ، ومحاولة لإصلاح الباطن فى الفرد ، من أجل أن تصلح الجماعة .

وكان فى التصوف المشرق رد على سطحية الفقهاء ، أما فى صقلية فإنه اقترن بالفقه ولم ينفصل عنـــه فكان المتصوفة فقهاء بنوا آراءهم فى التصوف على أصول فقهية ، وأشبهوا الوعاظ لتعلقهم بالقصص والأساطير ، وجعلوا حديث الكرامات مادة مجالسهم . وكان الخضر وشعيب أهم شخصيتين فى تلك الأحاديث .

وربما كان عبد الرحيم الصقلى من أوائل من ألفوا فى التصوف على هذه الطريقة إذ ذهب إلى القول بخرق العادات ، فتصدى له الفقيه أبو محمد بن أبى زيد ونقض كتابه بتأليفه " الكشف وكتاب الاستظهار ورد كثير مما تقلده من خرق العادات على ما فى كتاب شنعة المتصوفة[٢] " . وقد يبدو من هذا الخبر أن الفقه أخذ منذ البدء بمناهضة التصوف ولكن الأمر ليس كذلك فإن

---

(١) رياض النفوس فى المكتبة : ١٩٤ .

(٢) Centenario ١/٣٧٢ .

إنكار ابن أبي زيد منصب على ناحية واحدة .

ومن أقدم المتصوفة الصقليين محمد بن إبراهيم بن موسى المصرى الصقلى الذى خرج إلى العراق فى طلب الحديث وكان يحضر مجالس الجنيد[1]. ولكن خير من يمثل التصوف الصقلى الشيخ العارف المحقق أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الصقلى " إمام الحقيقة وشيخ أهل الطريقة "[2] . فقد طلب العلم فى القيروان وذهب فى رحلة إلى المشرق وحج وسمع بمكة سنة ٣٥٠هـ وكان إلى جانب تصوفه محدثاً فقيها أصولياً .

والف أبو القاسم الصقلى فى التصوف عدة مؤلفات منها :

١ — الأنوار فى علم الأسرار ومقامات الأبرار ويسمى عادة أنوار الصقلى[3]

٢ — كتاب فيه الدلالة على الله تعالى

٣ — الشرح والبيان لما أشكل من كلام سهل بن عبد الله التسترى

٤ — صفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء

٥ — كرامات الأولياء والمطيعين من الصحابة والتابعين ومن يتبعهم بإحسان.

وقد حفظت الأيام كتابيه الأول والثالث وقطعة من الثانى . وهذه القطعة تشتمل على كثير من الحكايات المروية عن الصوفية وكراماتهم وكثيراً منها سمعه الشيخ الصقلى عن شيوخه ، وفيها أقوال لمشاهير المتصوفة ، كبهلول وبشر بن الحارث وإبراهيم بن أدهم وسفيان بن عيينة وحكايات عن الخضر وشعيب ، وربما كانت قطعة من كتابه الخامس مع اختلاف فى التسمية .

وأما كتاب الأنوار فقد بنيت قواعد التصوف فيه على الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح وترك الآراء والاستحسان[4] . ولذلك تجده

---

(١) المقفى فى المكتبة الصقلية : ٦٦٣ .

(٢) Centenario ٢ / ١٠٠ نقلا عن المعالم ط . تونس ٣ / ١٨١ .

(٣) ورد فى المكتبة الصقلية باسم جواهر الألفاظ وظهور الأنوار (انظر ص ٦٩٨) عن نسخة ليدن رقم ٥٢٩ .

(٤) Centenario ٢ / ١٠٠ نقلا عن المعالم ط . تونس ٣ / ١٨١ — ١٨٣ .

يجعل الأصل الثانى من العلم بعد معرفة الله ، معرفة دين الله من جهة الاتباع لكتابه ولسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والائتساء به فى أمره ونهيه وترغيبه وترهيبه وآدابه وأخلاقه ، محبةً بالقلب ، وعملا بالجوارح[١] ونجده أيضاً يقول : " عليكم بالاتباع لما كان عليه الصدر الأول تسلموا من الحدث فى الدين[٢] " ويقول أيضاً " كان أخص الناس بفهم علم الكتاب وشرح معرفة السنة وعمل الرسول عليه السلام أهل القرن الأول . . . ثم جاء القرن الثانى فكانوا أعقل الناس وأعلمهم بعد الصحابة . . ثم جاء القرن الثالث فذهب أكثر أهل العلم وكثر الخوض والجدل والخصومة والتراد . . . إلخ" .

ومن يسمع هذه الأقوال مجردة من الكتاب يستقر فى نفسه أن الصقلى فقيه ، وربما زاده اقتناعاً بهذا الرأى إذا سمع الصقلى ينص على أن الأصل الرابع من أصول العلم معرفة الدنيا وأهل الزمان ، مما لا بد من مباشرة مالا غناء به عنه ، وما يلتزمه من الحقوق المفروضه[٣] . فأين هذا القول من الحث على العزلة والهرب من الدنيا . إن هذه الاتجاهات الدنيوية تقرب الصقلى من الفقهاء، ولكنك ما تكاد تراه فى هذه الحال حتى تجده يرتفع عن الأرض وعن عالم الفقه فى مثل قوله " كل وجود يظهر على الجوارح من جهة المقامات فصاحبه ضعيف معلول فى الحال ، وكل وجود لا يعرف المتواجد ورده من حاله الوارد عليه بتفضيل وجوده من إيجاده ، فصاحبه جاهل مفتون . وهذا موضع تدليس العدو على النفس بالمغاليط ، فبينا صاحبه مع الحق فى ورود الحال إذ صار العدو فى المداومة مع ذهاب الحال[٤]" .

وتستطيع أن تجمع من عدة مواضع فى الكتاب صفات تتكون منها صورة للمريد المخلص ، فالمريد فى رأيه لا يفلح حتى يترك ثلاثة أخلاق ويلزم ثلاثاً

---

(١) الأنوار ص ٢ نسخة دار الكتب المصرية المخطوطة رقم ٢٣ والنسخة غير مرقمة فى الأصل

(٢) المصدر السابق : ٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٤ .

(٤) الأنوار : ١٦ .

من الأدب يترك الحب والخلابة وأعمال أهل الغباوة ويلزم العفة والتعفف وترك ما لا يعنى بالصناعة[١] . ولا بد له من الصدق فإذا تركه لم يزدد إلا طرداً وسخافة وحمقاً وأصبح لأبناء الدنيا عبداً[٢] . والمريد إذا أصّل بدايته على التشوف والطمع لما فى أيدى الناس لم يصح له الأخذ من يد الله تعالى، وإذا بنى إرادته على مسألة غيره لم ينتقل عن دواعى نفسه[٣].

وكتاب الأنوار ستة أجزاء ولكن ليس للجزء الواحد منها موضوع مستقل فكل جزء مشتمل على أقوال متفرقة لا تجمعها وحدة موضوعية . وتغلب على أكثر الكتاب فكرة التقسيم العددى كقوله " يعرف عقل العاقل فى ثلاث . . . إذا رأيت فى المرء أربعاً فاعرف بها سخفه ودعواه .. ترجى الجنة لمن كانت فيه ثلاث[٤] . . . العلماء ثلاثة حجة ومحجاج ومحجوج[٥] وهكذا فى كثير من صفحات الكتاب " .

والصقلى فى كتابه مؤمن بالسير الزمنى إلى ما هو أسوأ لاعتقاده أن عصر الرسول والصحابة أفضل العصور وأن القرون التالية تزداد سوءاً، فإذا حل القرن السابع انتهى الأمر إلى شرار الناس[٦] وفيه من هذا القبيل أمور تشبه التنبؤ بما سيكشف عنه الزمان كقوله : « سيظهر فى هذه الأمة فى آخر الزمان دجالون كذابون[٧] » .

وربما كان أهم ما فى الكتاب من وجهة تاريخية تلك العبارات التى يستشف منها جزء الصقلى من الحياة الاجتماعية فى عصره ، وإن كنا نتناولها منه بحذر ، فهو ينتقد النساك بأنهم إنما أظهروا زهدهم بالعجز عن مكاسبهم ، واستعملوا

---

(١) المصدر السابق : ٢٠ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٣ .
(٣) المصدر نفسه : ٤٠ .
(٤) المصدر نفسه : ٨ .
(٥) المصدر نفسه : ١٤ .
(٦) المصدر نفسه : ١٨٧ — ١٨٨ .
(٧) المصدر نفسه : ١١٤ .

تواضعهم فى لباسهم، وأخفوا الكبر والحرص فى صدورهم[١] ، وينتقد مجالس الذكر والقرآن ويراها غير لازمة إن كان لا يزيد بها الإيمان وينقص الفسق[٢] ويلح كثيراً على ضرورة الربط الوثيق بين العلم والعمل [٣] ويذم فى أهل عصره تآلفهم على المداهنة ، وركونهم إلى الظلمة ، وأخذ الأجعال على قضاء الحوائج[٤] . ويقول : «إذا فجر العلماء وفسق القراء وسفك السلطان الدماء وأخذ على الحكم والحاجة الرشاء ، وافتخرت العامة بكسب الحرام ، ولم يغير الخاصة منكراً ، فهناك وجب الفرار ووسع المريد الصمت وكان الموت تحفة لكل مؤمن [٥]» .

ونقطة هامة فى الكتاب توضح لنا نظرة الصوفية إلى المرأة . فبعض الصوفية فى الشرق قد حاولوا أن يبشروا بنوع من الرهبنة وعزفوا عن الزواج لأنه مشغلة. وهذه النزعة تجدها عند الصقلى ملطفة بعض الشيء، فهو يذم أهل زمانه لأنهم تواطأوا على طاعة النساء، فورثهم ذلك ذهاب أموالهم فى الباطل، فورثوا من ذلك ذهاب الغيرة لله عز وجل ولرسوله عليه السلام ولصحابة نبيه رضى الله عنهم ، ولأعراض المؤمنين ولحرماتهم ، فما ينتظر الناس بعد هذا إذا كان موجوداً فى السلطان والقاضى والعالم والخاص والعام[٦]. وهو فى الجزء الرابع من كتابه يخص المرأة بأقوال كثيرة فيحذر منها وكأنك تسمع منه تحذيراً من الإقدام على الزواج حين يقول: «إذا رأيتم النساء قد أجهدن أزواجهن فى أربعة فأطاعوهن فإياكم والتأهل بالحرائر فإن فتنتهن يومئذ عظيمة : الحرير والحلى والخروج والخمر » [٧] كذلك يرى أن سلطان الشهوة مجعول مع المرأة وأنها أقوى قوة

---

(١) المصدر السابق : ١٣ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٢ .
(٣) المصدر نفسه : ٤٥ .
(٤) المصدر نفسه : ٥١ .
(٥) الأنوار : ٧٠ .
(٦) المصدر نفسه : ٥١ .
(٧) المصدر نفسه : ٩٥ .

تستطيع أن تصرف العالم العارف واللبيب العاقل، ويقول: كيف يسلم دين من له زوجة لا ترحمه وولد لا يعذره [١].

وفى تصوف الشيخ الصقلى إلى جانب الروح الفقهية تمسك شديد بمذهب أهل السنة،وليس فى كل كتابه إشارة واحدة لأهل البيت أو لعلى بن أبى طالب ،يقول : « وقد أخرج الله من اليقين المحفوظ تحت العرش ثمانية مثاقيل فخص النبي بأربعة وزيد ذخيرة من الخصوصية ، وأعطى أبو بكر مثقالين وزيد ذخيرة من الخصوصية ، وأعطى عمر بن الخطاب مثقالا وزيد ذخيرة من الخصوصية، ثم قسم المثقال الباقى بين سائر الأمة على قدر عقولهم » .

فإذا نحن خلينا الشيخ أبا القاسم الصقلى وذهبنا نساير التصوف بصقلية فى القرن الخامس وجدنا الظاهرة الأولى وهى امتزاج الفقه بالتصوف لم تتغير ويمثلها فى ذلك عتيق السمنطارى الفقيه المحدث . وكان السمنطارى من الزهاد السائحين فى الأرض ، طاف كثيراً من البلدان ، وحج ولقى العباد والزهاد ، وكتب عنهم ما سمع ، وصنف فى الرقائق وأخبار الصالحين كتاباً كبيراً يزيد على عشرة مجلدات سماه « دليل القاصدين » لم يسبق إلى مثله ، فى نهاية الملاحة [٢]، وله شعر من متوسط شعر المتصوفة إلا أنه تشيع فيه روح التشاؤم وإيجاس الشر من سوء ما بلغت إليه حال الناس .

ويظهر أن التصوف فى هذا القرن كان قد كثر فيه الدخلاء ، وأصبح المتصوفة يتظاهرون بالزهد تظاهراً، ويتواجدون ويبكون عند الغناء ويرقصون ويتغاشون . وقد عبر عن هذه الحال أبو عبد الله بن الطوبى فى قصيدة له [٣] وانتقد تلك التصرفات فى أهل التصوف ووضح رأيه فى ذلك المذهب بقوله :

بل التصوف أن تصفو بلا كدر   وتتبع الحق والقرآن والدينا

---

(١) المصدر نفسه : ٩٦ .

(٢) المكتبة الصقلية ١١٣ — ١١٤ نقلا عن معجم البلدان (مادة سمنطار) لياقوت.

(٣) الخريدة ١١ الورقة ٢٩ .

فهو يعبر عن التصوف كما يفهمه الصقلى العادى فى أيامه ، فهماً لا يبعد كثيراً عن مذهب أبى القاسم الصوفى ، أكبر من أخرجته صقلية من المتصوفة .

٧
علوم الأوائل

لم تحرمنا المصادر من إشارات بسيطة نقف عندها حين نريد أن نتصور شيئاً من الثقافة الفلسفية التى أخذت تنتشر فى المغرب وصقلية ، فقد حدثتنا مثلا أن سعيد بن فرحون بن مكرم التجيبى القرطبي المعروف بالحمار السرقسطى دخل صقلية بعد محنة أصابته فى أيام المنصور بن أبى عامر ، وبقى فيها إلى أن توفى ، وكان يجمع إلى معارفه فى اللغة والنحو والموسيقى معرفة فلسفية منطقية ، فهو صاحب رسالة حسنة فى المدخل إلى علوم الفلسفة سماها « شجرة الحكمة » ورسالة فى تعديل العلوم وكيف درجت إلى الوجود من انقسام الجوهر والعرض[١] ونقف عند هذا الحد من معرفتنا للرجل فلا نعرف ما الذى جر عليه تلك المحنة مع أنه يقال إنها مشهورة السبب ، كما أننا نجهل كل تأثير له فى صقلية فى النواحى الفلسفية .

ولدينا شواهد نستطيع أن نحكم منها بأن المغاربة عامة والصقليين خاصة عرفوا فى وقت متأخر كتب أبى حيان التوحيدى فى التصوف والفلسفة ، سواء كان ذلك بالهجرة إلى الشرق أو بارتحال تلك الكتب إلى الغرب ، فقد كتب أحد أهل صقلية على ظهر كتاب الإمتاع « ابتدأ أبو حيان كتابه صوفياً وتوسطه محدثاً وختمه سائلا ملحفاً[٢] » والمازرى يتهم الغزالى فى كتابه المسمى الكشف والإنباء عن المترجم بالإحياء بأنه أخذ التصوف عن أبى حيان التوحيدى[٣]

---

(١) طبقات الأمم لصاعد : ٦٨ – ٦٩ ط . بيروت .
(٢) القفطى : أخبار الحكماء : ١٨٦ ترجمة أبى سليمان المنطقى .
(٣) السبكى : ١٢٣/٤ .

ويقول العلامة أبو الحسن على بن الحسن الحضرمى القيروانى « علم أبى حيان التوحيدى أوفى من كلامه وإشاراته وتصانيفه تدل على علم كثير [١] » .

وليس من الضرورى أن ننبه هنا إلى تلك الهجنة التى كانت تصيب من يدرس الفلسفة وربما كان هذا سبباً فى ندرة المقبلين عليها أولا ، وفى ندرة الأخبار التى نسمع بها عمن كانوا يزاولونها . ويرى المازرى — ورأيه هنا يمثل رأى المتدينين حينئذ — أن المطعن فى كل إمام اطلاعه على كتب الفلاسفة ، لأنها تكسبه جرأة على المعانى ، وتسهيلا للهجوم على الحقائق ، إذ الفلاسفة فى رأيه تمر مع خواطرها ، وليس لها حكم شرعى ترعاه ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها [٢] . وفى عهد المازرى نسمع عن كتب ابن سينا والغزالى وعن رسائل إخوان الصفا ولكن المازرى يمثل ثقافة المغرب فى العصر النورمانى . وتعرف المغاربة على الكتب الفلسفية فى عصر متأخر حقيقة هامة فى دراسة الأدب عامة والشعر خاصة .

وإذا كنا لا نطمع فى أن تحدثنا المصادر كثيراً عن الفلسفة فى صقلية أو عن الثقافة الفلسفية فيها فنحن ندهش حين نجدها تصمت صمتاً غير محمود فلا تحدثنا عن الطب والفلك والتنجيم هنالك فلم تترجم الكتب المعنية بطبقات الأطباء إلا لعالم صقلى واحد من علماء العصر النورمانى [٣] وقد عنيت مصادر أخرى بنسبة الطب إلى أبى عبد الله ابن الطوبى ووصف أحياناً بأنه أربى فى الطب على ماسويه [٤] وذكره العماد فقال إنه كان طبيباً مترسلا شاعراً [٥] ومدحه ابن القطاع وأشار إلى مهارته الطبية بقوله [٦] :

أيها الأستاذ فى الطـ ـب وإعراب الكلام

---

(١) السلفى : ورقة ٢٠٧ .
(٢) السبكى : ١٢٣/٤ .
(٣) القفطى : أخبار العلماء : ١٨٩ .
(٤) القفطى : إنباه الرواه ٧٦/٢ .
(٥) الخريدة : ١١ الورقة ٢٢ .
(٦) إنباه الرواه ٧٦/٢ .

لك في النحو قياس لا يساميه مسام
ثم في الطب علاج دافع الداء العقام

ولكن لا يذكر له في الطب مؤلف معين ولا تحدد له فيه جهود .

وأحياناً نسمع عن طبيب صقلي هاجر من بلده مثل أبي عبد الله الصقلي الذي عاش في قرطبة أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان يحسن اليونانية ، وربما رجح هذا أنه نشأ في صقلية ، وكان يعرف أشخاص العقاقير والأدوية واشتغل مع جماعة آخرين من أطباء قرطبة في البحث عن تصحيح أسماء العقاقير التي وردت في كتاب ديسقوريدس[1] .

وتقول المصادر إن ابن الثمنة فصد امرأته في حالة سكر بعد خصام نشأ بينهما وتركها تموت ، فغضب ابنه من هذا العمل الوحشي وأسرع فأحضر لها الأطباء فعالجوها[2] ونقف من هذا الخبر عند ذكر الأطباء بصيغة الجمع . ونجد ابن مكي كذلك يحدثنا عن أخطاء الأطباء ، ومن هذا الذي يسوقه نعرف أنه كان هنالك أطباء يستعملون عقاقير منها الجوارشن والشب والحلتيت والصبر إلخ ، ويتحدثون عن بعض الحالات فيقولون القوة الماسكة وضعفت المواسك (بدلا من القوة الممسكة وضعفت الممسكات) ويتحدثون عن المريض فيقولون أكربه الدواء بدلا من كربه ، وإذا أرادوا تعظيم عالم بالطب قالوا فلان المتطبب يتوهمون أنه أسمى من طبيب وليس كذلك ، لأن المتفعل هو الذي يدخل نفسه في الشيء ليضاف إليه[3] .

ومهما تكن هذه الأخبار يسيرة فإنها تستطيع أن تشير إلى أن الطب في صقلية شاع في أيام الكلبيين وأواخر العصر الإسلامي حتى أمكن الحديث في هذا العصر عن وجود « أطباء » . وربما كانت صقلية في أيام الأغالبة فقيرة في الأطباء لأن القيروان وهي العاصمة الأم كانت تستدعي أطباءها من

(١) المكتبة الصقلية : ٦٢٢ عن ابن أبي أصيبعة .
(٢) النويري في المكتبة الصقلية : ٤٤٦ .
(٣) تثقيف اللسان — الباب : ٣٩ .

الخارج . ويحدثنا ابن أبي أصيبعة أن الطب بالمغرب ظهر عند ما قدم إليه إسحاق بن عمران أيام زيادة الله[١] ولعل زيادة الله المذكور هو الثانى (٢٤٩ — ٢٥٠ هـ) لأنا نعرف أن اسحاق عاش إلى عهد ابراهيم بن الأغلب إذ يذكر ابن أبي أصيبعة أيضاً أن إسحاق هذا ألف للعباس وكيل إبراهيم رسالة فى علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته[٢] . وربما كان هذا الوكيل المشار إليه هو أبو العباس — وليس العباس — والى صقلية فى أيام إبراهيم أو لعله العباس صاحب صقلية أيام محمد بن الأغلب قبل إبراهيم مباشرة .

ولا شك فى أن الفاطميين ، حين اتخذوا القاهرة عاصمة لهم ، اجتذبوا إليها الأطباء ، وحرموا صقلية وأفريقية جهود المشهورين منهم ؛ وكان بلاط صاحب القاهرة يغرى العلماء الصقليين أنفسهم بالهجرة من وطنهم . وهجرة المهندسين والفلكيين الصقليين إلى مصر شاهد على ذلك فقد كان المهندس الصقلى أبو محمد عبد الكريم يعمل فى زمن الحاكم فى رصد القاهرة ويحضر مع زملائه كل يوم فى خدمته إلى أن أمر الحاكم بكسر الرصد وتفرق من حوله أهل الحساب والهندسة والتنجيم[٣] وفى وقت متأخر نجد ابن المعلم الصقلى الطبيب فى مصر كما نجد صقلياً آخر بين من يتفحصون هذا الرصد وهو الفلكى الصقلى أحمد بن مفرج الملقب بتلميذ ابن سابق وكان متصرفاً أيضاً فى التنجيم[٤].

أما فى الجزيرة نفسها فالمصادر تخبرنا أن الكاتب أبا الفضل أحمد بن دابق كان عالماً بالهندسة[٥] وأن أبا عبد الله محمد بن الحسن العوفى كان منجماً حاسباً[٦] ، وأن أخاه عمر كان كاتباً منجماً مهندساً[٧] . ويوصف

---

(١) ابن أبي أصيبعة ٢/٣٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المقريزى : الخطط فى المكتبة الصقلية : ٦٦٩ .

(٤) ابن ميسر ٢/٦٤ — ٦٥ .

(٥) مجموعة الشعر الصقلى رقم ٧٤ ، ١١٥ .

(٦) الخريدة : ١١ الورقة ٤١ ومجموعة الشعر رقم ٣٢ .

(٧) الخريدة : ١١ الورقة ٤٤ ومجموعة الشعر رقم ٤١ .

عبد العزيز بن الحاكم المعافرى بالتنزه فى رياض الرياضات والتنبه فى سحريات السحريات[١]. هذه هى الأخبار التى نملكها وهى لا تمدنا بشىء مما قاله المؤرخ سكوت فى وصفه الحياة العلمية لصقلية إذ يقول: « من مآذن المساجد ببلرم كان الفلكى العربى يرقب حركات الأجرام ويعين مواقيت الخسوف والكسوف ومواقع النجوم، مستعيناً على ذلك بآلات اخترعت فى حوض الوادى الكبير وعند نهر دجلة وبزيجات كتبت فى سهول بابل قبل المسيح بقرون[٢] » ويقول أيضاً: « فكانت مدن الجزيرة حافلة بمن يقرأون الطالع ويعبرون الرؤى ويتنبأون بالغيب كما كانت دار عالم الصنعة مزارا يؤمه الناس على اختلاف طبقاتهم ، وكان أحب نزيل يرحب به بلاط بلرم المنجم ذو الزى الخاص واللحية المسبلة والعصا الطويلة التى رصع مقبضها بعلامات طلسمية »[٣]. وليس فى هذا الكلام إغراق أو مجانبة للمعقول، ولكننا لا نملك النصوص الصريحة لتأييده . وقد كان تعبير الرؤى — الذى أشار إليه سكوت — موجوداً بصقلية وشاهدنا عليه بعض من هاجر من الصقليين فى سن كبيرة إلى الخارج عند الفتح النورمانى ممن كانوا يزاولون تعبير المنامات ومنهم ابن المعلم الصقلى ، وعلى ابن عمر بن حسنون الكنانى الصقلى أحد تلامذة السمنطارى وقد وصفه السلفى بأنه كان شيخاً صالحاً يعبر المنامات[٤] .

---

(١) الخريدة : ١١ الورقة ٣٤ ومجموعة الشعر رقم ١٧ .

(٢) Scott : Hist. of the Moorish Empire vol. 2. p. 68.

(٣) Op. cit. p. 69

(٤) السلفى الورقة ٢٩٨ .

٧
نظرة إجمالية

بعد هذا المسلك المتشعب يعود البحث من حيث بدأ ، ونلتقى بابن حوقل فى رحلته مرة أخرى لنقف عند قوله : « فليس بالبلد عاقل ولا فاضل ولا عالم بالحقيقة بفن من فنون العلم[١] » . أما القول بعدم العقل والفضل فما أقف عنده لأنه بادى التحامل ، وأما القول بعدم العلماء فقد كان له فى زمان ابن حوقل ظواهر تؤيده ، ولكنه لا يخلو أيضاً من تعميم يذهب بقسط كبير من صحته . وعذر صقلية أنها كانت لا تزال — بشهادة ابن حوقل نفسه — معسكراً حربياً تسيطر عليه روح الجندية وما يتبعها من تقلب وعدم استقرار . ولم تكن الأجيال الصقلية من أبناء صقلية نفسها قد تمكنت من تمثل الثقافات المتنوعة ، وكانت الحروب المتوالية سبباً فى فناء أهل الجيل الأول ، كما كان الأسر يشل كثيراً من القوى ويصرفها عن الإنتاج . وهذا رأى يقويه أن صقلية عند ما استراحت بعض الراحة من الحروب والفتن ، أنتجت إنتاجاً متنوعاً فى فترة قصيرة ، ولم يكن ما قدمته قليلا . ومن ثم وجدنا أن الاشتغال المنتج بالفقه والحديث واللغة والطب والهندسة والنجوم قد تأخر إلى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ووجدنا النبات العلمى قد نما فى صقلية وأثمر فى الخارج .

وإذا حاولت أن تتعرف إلى أهم الشخصيات العلمية فى صقلية حوالى الزمن الذى كان فيه ابن حوقل وبعده بقليل وجدتها لا تزال من غير صقلية . ففى الفترة بين ٣٦٥ — ٣٩٥ ﻫ تسمع عن ابن أبى خراسان فى النحو والقراءات وعن على بن حمزة فى اللغة والشعر ، وعن البرادعى فى الفقه المالكى ، وهؤلاء كلهم جاءوا صقلية من الخارج ، ولا تسمع عن صقليين مشهورين إلى جانبهم

---

(١) ابن حوقل ١/١٢٣ .

وربما كان هذا النقص فى المصادر لا فى صقلية نفسها . أما ظهور التصوف فى وقت مبكر فإنه لا يقوم دليلا على اتساع الثقافات فى صقلية بقدر ما هو دليل على روح من التدين ، وقعت تحت تأثيرات معينة ، منها شدة وطأة الحياة الاجتماعية والاستعداد لتقبل الأساطير .

وكل هذه الأخبار التى لدينا عن الدراسات بصقلية — وخاصة دراسة الفقه والحديث — تشير إلى استمداد مبكر من المشرق استمر حتى أواخر العصر الإسلامى للجزيرة، أى أن هذة الصلة ظلت قوية حتى حين استقلت صقلية فى حياتها العقلية ومذهبها الدينى . فى سنة ٢٩٣ ﻫ توفى أبو جعفر محمد بن الحسين المروزى فيها وكان فقيهاً متهماً بالكذب [١] . وفى القرن الرابع كان أبو عبد الله محمد بن عيسى بن مطر ممن سافر إلى المشرق وكتب الحديث [٢] ، وجرت الحال على ذلك أيام عبد الحق ، والسمنطارى . وهنا لا بد أن نلمح خاصية فى هؤلاء العلماء المهاجرين فهذا المروزى متهم بالكذب ، والبرادعى ممن أنكره وطنه وتنكر له علماؤه ، وصاعد اللغوى ممن نقل عنه الوضع وعرف عنه التزوير ، فهل هذه الهجرة العلمية كهجرة الأجناس الأفريقية كانت على صقلية أكثر مما هى لها ؟ وهل كان الشعراء المهاجرون أيضاً كالعلماء المهاجرين ؟ مهما تكن الإجابة على هذين السؤالين فالذى لا شك فيه أن هؤلاء المهاجرين من علماء وشعراء لم يكونوا كل شيء فى حياة صقلية العقلية والأدبية .

---

(١) ابن عذارى فى المكتبة : ٣٦٤ .

(٢) ابن حوقل ١/١٢٧ .

الكتاب الثانى

صقلية الإسلاميّة فى العصر النورمانى

الفصل الأول

الفتح النورمانى

الفتح النورمانى

أحب أن أترك للتاريخ كثيراً من الحقائق التى تتصل بالنورمان أنفسهم – بأصلهم وبسبب مجيئهم إلى إيطاليا الجنوبية وبجهودهم فيها . وأدع لهذا التاريخ كثيراً من القول فى بنائهم المملكة الصقلية وأنظمتهم فى الإدارة والتشريع ، والشئون المالية ، وعلاقاتهم السياسية والدينية بالبابا وبالملوك والأباطرة . وأتجنب الحديث عن دورهم فى الحروب الصليبية ، وعن استيلاء أساطيلهم على الساحل الأفريقى ، فإن الأخذ بكل هذه الحقائق يقصينى عن الهدف الذى أسعى إليه وهو الحديث عن حياة الشعر العربى فى عصر النورمان ، وفى سبيل هذه الغاية أرانى سأقصر الحديث أولا على الفتح نفسه ، لا لأن سيره كان ذا أثر فى توزيع الأجناس ، وفى نوع الحياة العقلية ، ولكن لأنه يدل على الطريقة التى استقبله بها المسلمون ، والنفسية التى دخلوا بها تحت لوائه . وهذا بدوره هو فاتحة القول فيمن بقى بصقلية من الجماعة الإسلامية ، وفى تأثرها بالحياة الجديدة وأثرها فيها ، وبجلاء هذه الأمور لا بد من استعانة بوصف الحياة الاجتماعية والعقلية لتلك الجماعة وحدها إذ ليس من الطبيعى أن أصور كل جوانب الحياة – عقلية كانت أو اجتماعية – بين الجماعات كلها ، وإنما أحاول أن أرسم الجو الذى عاش فيه الشعر .

وتعود بنا هذه البداية إلى النهاية التى بلغتها صقلية على أيدى قواد يتقاتلون فيما بينهم ، على أسباب تختلف فى تفاهتها ، ولكن يوحد بينها الجشع وحب السيطرة . وفى إحدى هذه المعارك هزم ابن الثمنة فخف إلى النورمان يستعين بهم ويعدهم ويمنيهم ويهون عليهم أمر القادة والجند[1] .وكان فتح صقلية حلماً من أحلامهم يزينه غنى الجزيرة وخصبها ، ويؤيده خوفهم من مجاورة المسلمين لهم

(١) ابن الأثير ، والمكتبة : ٢٧٦ .

وقربهم من أملاكهم[1]. فلما فاتحهم ابن الثمنة فى الأمر واستوثقوا من ولائه لهم هاجموا مسينة بمعونته ، واستولوا عليها ١٠١٦ م واتخذوها قاعدة لأعمالهم الحربية ، ثم ركدت الريح التى كانت تحدوهم حين توفى صديقهم ابن الثمنة فى السنة التالية ، واختلف الأخوان المحاربان روبرت ورجار ، إلا أن اتفاقهما بعد قليل جعل رجار يجدد المحاولة لفتح الجزيرة ، فحاول الاستيلاء بعون من أخيه على بلرم ، ولكنه أخفق ، ولم تكن المعارك الحربية التى قام بها فى حقيقة الأمر إلا مناوشات بسيطة[2].

فى هذه الأثناء ذهب المسلمون يستصرخون المعز بن باديس لعله ينقذهم فأعانهم بأسطول كبير غرق أكثره فى البحر . ومن جراء ذلك ضعفت قوة المعز ، واستطاع العرب الهلاليون أن يتملكوا البلاد من يديه ؛ فلما تولى تميم الحكم ، أرسل أسطولا إلى الجزيرة ، وعلى رأسه ابناه علىّ وأيوب . أما أيوب فنزل فى بلرم ، وأما على فتوجة إلى جرجنت ، ثم انضم إليه أيوب وقد استطاع أن يستأثر بحب الجرجنتيين فغار منه ابن الحواس ، وثار لحربه ، وتحزّب أهل جرجنت لأيوب ودارت بين الفريقين معركة قتل فيها ابن الحواس ، ثم قامت فتنة أخرى بين أهل المدينة وعبيد تميم فرجع أيوب وأخوه على إلى أفريقية[3].

والحقيقة التى لم تذكرها المصادر العربية هى أن ابنى تميم حاربا النورمان عند مكان يدعى مسلمرى Misilmeri[4] وهزما ، وأصبحت عودتهما إلى أفريقية أمراً مؤكداً . وبعد هزيمة ابنى تميم اضطرب أمر المسلمين فى الجزيرة ، ولم يبق فيهم من يوحد قوتهم ، ويقف بها فى وجه العدو ، وكان النورمان قد تقووا بمعونة بحرية من بيشة Pisa ، وصمموا على أن يحتلوا بلرم لغناها

(١) Cambridge Med. Hist. vol. 5 p. 176.

(٢) E. Curtis; Roger of Sicily, p. 66.

(٣) ابن الأثير ، والمكتبة : ٢٧٧ ، والنويرى فى المكتبة : ٤٤٨ .

(٤) Amari : S. D. M. vol, 3, p. 114.

ولأهمية موقعها ، فأعدوا لحصارها خمسين سفينة جمعها جسكارد Guiscard من بارى ومدن أبولية وتقدم بها من البحر ، بينما سار إليها رجار من البر فى جيش عدده ثمانية عشر ألفا . وصب الأسطول جهده على مينائها وأحاط بها الجيش البرىّ إحاطة تامة ، وظلت المدينة تقاوم الحصار مدة خمسة أشهر كان السكان فى أثنائها شديدى الثقة بأنفسهم ، حتى كانوا يأبون أن يغلقوا أبواب مدينتهم .[١] غير أن المؤن قلتْ فانتشرت بينهم المجاعة والوباء لكثرة الجثث التى تركت بالعراء دون دفن[٢] . وشدد الأسطول الحصار وكان معظم السكان قد لجأوا إلى الميناء وأغلقوه بالسلاسل . غير أن الجوع والوباء والتعب جميعًا كسرت من شرتهم ، فوقعت الخالصة أولا فى أيدى الأعداء فدخلوها ينهبون ويذبحون الشباب ويفرقون الأطفال فيما بينهم ليبيعوهم عبيداً[٣] . ومع أن البلرميين كانوا يرون قدم المصيبة يطأ رقابهم فإنهم لم يكفوا عن الاختلاف والتناحر ، وعجّل اختلافهم وتناحرهم بسقوط المدينة القديمة بعد الخالصة ، ودخلها رجّار ووراءه فرسانه ، واستولى على مسجدها وحوله إلى كنيسة .

وسلمت مازر لما رأت ما حل ببلرم ، وانتهى الدور الأول من الفتح حين سقطت عاصمة الكلبيين سنة ٤٦٤ هـ — ١٠٧٢ م وظل النورمان عشرين سنة حتى تم لهم الاستيلاء على الجزيرة كلها ، ولم يكونوا قد ملكوا فى هذا الدور الأول إلا بلرم ومازر ومسينة وقطانية ولكنهم باستيلائهم على هذه المنطقة أحاطوا بما تبقى للأمراء المسلمين فى سرقوسة وطرابنش وجرجنت وقصريانة[٤].

أما سرقوسة فقام فيها رجل اسمه Benavert (ابن عباد)[٥] ونظم المقاومة

---

(١) Freeman : Hist. Essays, 3rd series, p. 453.

(٢) Amari : cp. cit. p. 124.

(٣) Amari : S. D. M. vol, 3 p. 130.

(٤) Amari : S. D. M. vol, 3 p. 153.

(٥) هذا هو اسمه عند ملاترا ولا تذكره المصادر العربية ، وقد كان أمارى يظن أنه هو ابن بريدة الذى يمدحه ابن حمديس ثم عدل عن رأيه ومن العجيب أن ابن حمديس لا يذكره على شدة العلاقة بين قصائده وأعمال البطولة الأخيرة فى سرقوسة .

فى ولاية نوطس برّاً وبحراً ، حتى استحق من المؤرخ النورمانى ثناء عليه بالدهاء والجرأة والمهارة فى القيادة ، واتقان الخدعة فى الحرب[١] . وفى إحدى المعارك استطاع أن يكسر جردان ابن رجار[٢] مما اضطر رجار أن يوجه إليه اهتمامه، غير أنه عاد فانصرف عنه واحتل بأسطول كان قد بناه مدينة طرابنش سنة ١٠٧٧ م وهدم سورها ، وتملك أرضها ووزعها على أتباعه[٣] . ثم استولى على طبرمين سنة ١٠٧٩ م فلم يبق فى يد المسلمين إلاجرجنت وسرقوسة وقصريانة ونوطس وبثيرة . ويحدثنا المؤرخ ملاترا أن ابن عباد استطاع فى سنة ١٠٨١ أن يشترى بالمنح والوعود حاكم قطانية من قبل رجار واسمه Bencimino وهو لفظ قريب الشبه بابن الثمنة (وربما كان ابناً أو قريباً لابن الثمنة الكبير مما يدل على أنه كان يتعاون مع النورمان غيرُ خائن واحد من تلك الأسرة) فسلمه هذا مدينة قطانية فاتسع سلطانه حتى أصبح لا يكتفى بالمقاومة والدفاع بل توجه سنة ١٠٨٤ إلى قلورية ونهب ريو ونقطرة وعاد ظافراً . ورأى رجار أنه لا بد من جولة حاسمة مع ابن عباد فقابله عند سرقوسة أسطول قوى سنة ١٠٨٥، وأخذت سفن ابن عباد تغرق واحدة بعد أخرى ، وكلما غرقت به واحدة وثب منها إلى واحدة لم تغرق ، ولكنه زلت به القدم فتلقاه البحر ؛ ويقول المؤرخ المجهول إن رجار أرسل جثته إلى الأمير تميم بأفريقية . وبعد ذلك القائد الجرىء استسلمت سرقوسة لما قدر عليها أواخر أكتوبر عام ١٠٨٦، وفى إحدى الليالى تسلل منها بعض زعماء المسلمين إلى نوطس ومعهم زوج ابن عباد وابنه[٤].

ثم سقطت جرجنت ولحقت بها قصريانة وكان أميرها ابن حمود، وقد تنصر هذا الأمير وطلب إلى رجار أن ينقله من قصريانة لأنه لم يعد يأمن

---

(١) Amari, op. cit.

(٢) Amari, op. cit. p. 154; Curtis : Roger of Sicily, p. 67.

(٣) Amari, 3, p. 157.

(٤) Amari, 3, p. 169.

المسلمين على نفسه ، ولأنه لم يكن يحب أن يتحمل مسئولية ما قد يحيكه أهل المدينة من مؤامرات وفتن ، ويقول أمارى : — « إن ذلك العلوى الدنىء الرخيص لجأ إلى إيطاليا حيث أسكنه رجّار قريباً من ميلاطو وظل هنالك يحيا فى هدوء مدة طويلة »[1]. ثم سقطت نوطس وتبعتها بثيرة سنة ١٠٩١ ، وانتهت بذلك عمليات الفتح النورمانى ، ولا شك فى أن بعض المقاومة التى لقيها النورمان مضافاً إليها قلة عساكرهم وضعف أسطولهم هى العوامل التى أطالت فترة الفتح .

---

(١) Amari : op. cit.

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية للمسلمين
فى العصر الرومانى

١ ــ العلاقات السياسية الخارجية وأثرها فى مسلمى صقلية .

٢ ــ أثر الإقطاع فى الجماعة الإسلامية

٣ ــ الإدارة الإسلامية

٤ ــ الصبغة الإسلامية فى الدولة

٥ ــ المسلمون بين التسامح والاضطهاد

١

العلاقات السياسية الخارجية وأثرها في مسلمي صقلية

وفيما نحن ننظر إلى داخل الجزيرة لنرى كيف استقرت الأحوال فيها أثناء حكم امتد من ١٠٨٠ – ١١٩٠ وشغله من الحكام أربعة مشهورون ، هم رجار الأول وابنه رجار الثاني واثنان بعدهما يعرف كل منهما باسم غليالم ، سنلتفت إلى الجماعة الإسلامية فهي حسبنا من بين تلك الجماعات الكثيرة التي كانت تعيش في الجزيرة ، ذاكرين دائماً أن الجماعة الإسلامية كانت عندما استولى النورمان على الجزيرة حقيقةً لا يسهل محوها أو طمسها ، وأن الفاتحين كانوا أقلية ضئيلة ، لا يستطيعون أن يفرضوا أنفسهم على نواحي الحياة في الجزيرة بالقوة ، ولم تكن لهم حضارة يبسطونها على هذا العالم الذي كان يُمدُّ ما حوله بالحضارة ، ومن ثَمّ نفهم تلك السياسة المتسامحة التي قابلوا بها كل دين ومذهب في صقلية ، لكي لا يبدو هذا التسامح غريباً في نظرنا ، حين نذكر أنه معاصر للحروب الصليبية ، ومن ثَمّ أيضاً نفهم الروح الانتقائية التي واجهوا بها النظم والقوانين والشرائع المتنوعة ، واختاروا أحسن ما يلائم حكومتهم منها ، ولم يكن بُد من تلك الخطوات الواعية عند قوم كانوا نقطة المركز في دائرة من الأعداء ، فأحياناً هم على عداء مع البابا ، وكثيراً ما كانوا في خصومة مع الأمبراطورية الشرقية ، وهم في خطر من تهديد الإمبراطور الجرماني ، وعلى مقربة منهم في الساحل الأفريقي أمراء مسلمون يضمرون لهم العداء ، وهذه حالٌ تستدعي الأمن والرضى في الداخل ، وتجعل التوازن بين المصالح والفئات المتضاربة أمراً لا غنى عنه ، ولذلك آمن النورمان بالواقع فلم ينصروا ديناً على دين ، وخضعوا لاعتبارات الموقع الجغرافي ، والحقائق

السياسية الخارجية ، والحالة الحضارية الداخلية .

ولا تتضح حال المسلمين فى صقلية إذا لم نتصور عظمة صقلية الفاتحة المستعمرة فى أيام النورمان، أعنى صقلية التى خضع لها مسلمو الساحل الأفريقى ، وهاجم أسطولها القسطنطينية، وألجأ أسطول مصر وأفريقية إلى الانحياز المتخاذل فى المراسى ، وابتز السيادة البحرية التى كانت لأساطيل المسلمين عامة ، وأسطول الفاطميين خاصة ، تلك السيادة التى صورها ابن خلدون بقوله: « وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر (بحر الروم) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه . . . وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة والعساكر الإسلامية تجيز البحر فى أساطيلهم ، من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، كما وقع فى أيام بنى أبى الحسين ملوك صقلية القائمين بدولة العبيديين ، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه ، من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد بفريسته »[١]

هذه السيادة ضاعت حين استولى رجار على بلدان الساحل الأفريقى ، وأصبح البحر المتوسط « بحيرة نورمانية » تغدو فيه أساطيل صقلية وتروح ، دون أن يعترضها عائق ، وتنزل الضربة بعد الضربة فى الموانى الأفريقية ، ومسلمو صقلية فى جزيرتهم لا يستطيعون أن يتذمروا أو يتوجعوا لما يصيب إخوانهم بل إن فى الجيش والأسطول الصقلى جنوداً مسلمين يقودهم قادتهم ليحاربوا إخوانهم تحقيقاً لأطماع شخص غريب عنهم فى الدين والجنس .

وقد كانت صقلية وسيادتها الجديدة امتحاناً قاسياً لنفسيات أولئك الأمراء المسلمين المتقاتلين المتنافسين فيما بينهم ، وبعد أن كانت صقلية المسلمة تفزع إذا ثارت إلى الروم أو إلى أفريقية أو إلى النورمان، أصبحت هى مفزعاً يفىء إليه كل وال تعجله المصلحة الذاتية عن تدبر العاقبة ، وأصبح أمراء أفريقية

---

(١) ابن خلدون ، المكتبة ٤٦٠ - ٤٦١ .

يجدون بغيتهم عند صاحب صقلية ، كلما شاء واحد منهم أن يكيد لصاحبه ، ويروى أنه اجتمع فى بلاط الملك النورمانى سفيران لأميرين مسلمين فتشاتما وتراشقا بالكلام فى مجلسه . وحادثة عمارة اليمنى والمتآمرين على صلاح الدين[1] مثال من أمثلة كثيرة لاستعانة أصحاب الأغراض والأطماع بصقلية وصاحبها .

وكان بنو باديس يحاولون محاولة المستميت ليسددوا ضربة قوية إلى هذه المملكة الصقلية ، ومن ورائهم شعراء فيهم ابن حمديس وأبو الصلت يهللون لكل نصر مهما يكن شأنه ، ولكن الضعف كان قد بسط ظله الكثيف على كل تلك الدويلات المتنافسة ، وكانت الدولة الفاطمية قد أخذت تستملى سياسة الضعف المبهور فى معاملتها لهذه الدولة الفتية ، حتى إن الخليفة الفاطمى ليقول لرجار حين أبلغه هذا نبأ احتلاله لجزيرة جربة : وأما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجربة ، لما شرحته من عدوان أهلها ، وعدولهم عن طرق الخيرات وسبلها ، واجترائهم فى الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها ، واستعمالهم الظلم تمرداً ، وتماديهم فى الغى ، تباهياً فى الباطل وغلوا ، يأساً من الجزاء لما استبطأوه ، فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية ، وخليق أن يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية»[2] .

وكان لابد لهذه الأحوال أن تهيء لظهور نوع من الجهاد الدينى هو الذى قام به عبد المؤمن من بعد .

والمسلمون فى صقلية يعيشون تحت حكم النورمان وهم يرون الحروب الصليبية أو الحروب باسم الدين تجتاح بلاد الشام ، ولعل تلك الروح الدينية هى التى أملت ذلك الأسلوب من الرد الحاد على رجار حين قال لزاهد مسلم كان يقربه ويحترمه بعد أن انتصر أسطوله فى بعض جهات أفريقية — وأين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها ؟ فقال ذلك الشيخ الزاهد — : كان قد قد غاب عنهم وشهد فتح الرها[3] .

(١) انظر رحلة التيجانى فى المكتبة ٣١٠ — ٣١١ فى تفصيل الحادثة .

(٢) صبح الأعشى ٤٥٩/٦ .

(٣) ابن الأثير ٤١/١١ والمكتبة : ٢٨٨ .

٢
أثر الإقطاع فى الجماعة الإسلامية

هؤلاء المسلمون فى الجزيرة كانوا — كما خلفناهم فى العصر العربى — متفرقين فى نواح كثيرة من صقلية وتدل السجلات التاريخية والوثائق على أنهم كانوا كثيرى العدد فى ولاية مازر ، متوسطى العدد فى ولاية نوطس ، قليلين جداً فى ولاية دمنش [١] . وبين سكان بلرم من أصحاب الأملاك أو الشهود الواردة أسماؤهم فى الوثائق عرب من قبائل يمنية مثل أزد وكندة ولخم ومعافر ، ومن المدينة وحضرموت ، وعرب من القبائل المضرية مثل قيس وقريش وتميم . وأسماء بربر من هوارة ولواتة وزغاوة وزناتة . وفى الأسماء من جفلوذ مسلمون من البربر ومن صقلية نفسها كالقرليونى والشاقى والثرمى والطرابنشى ، وبين الرقيق التابعين لأسقف قطانية ومدينة لياج أسماء أعلام بربرية من عائلات مثل مكلاتة ونفزة ومسراتة ، وأسماء منسوبة إلى مواضع أفريقية مثل برقة وبونة وسوسة ومسيلة ومليلة . . . هذا إلى أسماء منسوبة للبلدان كالحجازى والغافقى والعينونى (نسبة إلى قرية بجانب القدس) والكرمانى (نسبة إلى كرمان)، وأسماء منسوبة إلى مدن صقلية كالمدينى والصقلى (البلرمى) واللياجى والقطانى والسمنطارى والطرابنشى . . إلخ [٢] .

وأهم عامل أحدث انقلاباً فى حياة هؤلاء خاصة وفى حياة الأجناس بصقلية عامة هو إقرار الإقطاع نظاماً مؤصلا ، على مثال ما كان فى جهات أخرى من أوروبة ، وتثبيته بالقوانين والتشريعات ، وبهذا النظام قضى على حرية المالك الصغير ، وانقسم الناس إلى طبقات متدرجة أعلاها الملك ، وأدناها رقيق الأرض ، وبين الطبقتين أمراء ودوقات وكونتات وبارونات يتمتعون بالإقطاعات الشاسعة ، وببعض الامتيازات فى المحاكم وفى القضايا

(١) Amari . S. D. M. vol, 3, p. 214.

(٢) op. cit. pp. 215-218.

المدنية – على أقل تقدير – ودون هؤلاء الفرسان ممن منحوا الإقطاعات أو لم يمنحوها[١] ، وأدنى منهم طبقة الفلاحين ، وهى طبقات متفاوتة فى فقدان الحرية وفى قربها من العبودية ، وفيهم أكثرية من أهل القرى المسلمين .

ففى أثناء الفتح كان رجار يستولى على الأرض التى فر عنها أهلها أو على ما افتتحه عنوة ، ويقسمه بين أصحابه . وفى سنة ١٠٩٣ عقد اجتماع فى مازر حضره السادة من أصحاب رجار وسلم كل واحد منهم صحيفة أو جريدة مكتوبة بالعربية ، وأحياناً بالعربية واليونانية معاً ، فيها وصف للأرض التى تخصه ، وبيان بعدد الفلاحين والأرقاء فى أملاكه[٢] . ولا شك فى أن بعض سادة المسلمين سعى بين يدى رجار ليمنحه نصيبه من الغنيمة ، فوجد منهم من تمتعوا بامتيازات إقطاعية ، وترك أهل المدن منهم أحراراً فى تصرفهم بأملاكهم ، ويلخص ابن الأثير هذا النظام الإقطاعى الجديد بجملة واحدة إذ يقول فى رجار : « وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد من أهلها حماماً ولا دكاناً ولا طاحوناً ولا فرناً »[٣] . وقوله هذا لا ينطبق على أهل المدن بل ربما كان جارياً على جماعات الفلاحين أو جماعات كانوا أحراراً وأحالهم الفتح إلى أرقاء لاصقين بالأرض ، كما حدث فى قطانية فإن رجار حين استولى عليها جعل أهلها المسلمين أرقاء ، ومنحها إقطاعاً للأسقف[٤] ويصحح قول ابن الأثير ما قاله الإدريسى فى ثنائه على القمط (الكونت) رجار : " ولما صار أمرها إليه واستقر بها سرير ملكه ، نشر سيرة العدل فى أهلها وأقرهم على أديانهم وشرائعهم وأمنهم فى أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم " [٥] ، وهو رأى ينطبق على أهل المدن كبلرم ولا يمتد إلى المعاملة التى جرت على الفلاحين . أما ابن جبير الذى زار صقلية أيام غليالم الثانى (١١٨٤) فيقول : – " لكنها

---

(١) Cambridge Med. Hist. vol, 5. p. 204.

(٢) Cecilia Waern : Med. Sicily pp. 32-33.

(٣) ابن الاثير ١٠/٦٨ والمكتبة : ٢٧٨ .

(٤) E. Curtis : Roger of Sicily p. 419.

(٥) نزهة المشتاق فى المكتبة : ٢٦ .

معمورة بعبدة الصلبان، يمشون فى مناكبها ويرتعون فى أكنافها، والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم قد حسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم إتاوة فى فصلين من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها [١]. ويؤيد قوله هذا ما جاء فى وثائق ذلك العهد إذ تدل على حرية التصرف فى الأملاك والعقارات التى كان يملكها المسلمون رجالا ونساء، وبيعها تحت ظل القوانين الإسلامية وإشراف قاضى المسلمين [٢]. والظاهر من كلام ابن جبير أن المسلمين عامة كانوا يدفعون ما يسمى الجزية وإن لم تسم بهذا الاسم إلا حين تتحدث الوثائق عن اليهود، ومقدار هذه الجزية مختلف، ففى وثيقة منها قدر بعشرين رباعى وفى أخرى بعشرة، هذا عدا جزية من القمح والأرز تختلف تبعاً لنوع الأرض واتساعها [٣].

وفى النظم الإقطاعية بأوروبة طبقة من عبيد الأرض تسمى فى وثائق صقلية اللاتينية Villani وهى تسمية تقابل من يسمون فى الوثائق العربية «رجال الجرائد» أو «أهل الجرائد» [٤] وهم فى نظر القانون قسمان متمايزان: رقيق يباعون مع الأرض، ورقيق أحرار بأشخاصهم مسترقون بعملهم — وهما فى نظر الواقع لا فرق بينهما، والأولون من هؤلاء أدنى الطبقات حالا باستثناء العبيد، إذ لم يكونوا مرتبطين بالأرض فحسب بل كانوا يباعون معها إذا بيعت كالدواب، وهم يقرنون فى بعض مواد القانون بالبهائم، وتعد أسماؤهم مع الخيل والبغال وغيرها [٥] وكان أبناؤهم يرثون هذا الشقاء ويشقون بتلك التعاسة نفسها إذ يعتبرهم القانون عبيداً بالولادة، وعلى هؤلاء تفرض الخدمة العسكرية وواجبات الدفاع والمحافظة على قلعة السيد الإقطاعى، وإذا تزوجت من أحدهم امرأة حرة كان أبناؤها

---

(١) ابن جبير — الرحلة: ٣٢٢ ط. رايت، والمكتبة: ٨٢.

(٢) Amari: S. D. M. vol. 3, p. 263.

(٣) op. cit. pp. 256-257.

(٤) op. cit. p. 244.

(٥) C. Waern: Med. Sic. p. 88.

أرقاء[١]. وفى الجرائد أسماء أعلام إسلامية مثل محمد وعلى وعبد الله ترد بين أعلام يونانية ولاتينية[٢] ومن هنا نفهم لم يحاول المؤرخ هوجو فلقندو أن يؤكد بأن رجال الجرائد فى صقلية كانوا مسلمين أو يونان إذ يقول : " وليس فى صقلية من يدفع الجزية السنوية إلا المسلمون واليونان وهم وحدهم الذين يلحقهم اسم الأرقاء (رجال الجرائد) " [٣] بل علينا أن لا ننسى ونحن نتحدث عن الجماعة الإسلامية بصقلية أمر العبودية التى كانت تؤيدها القوانين فى وثيقة عربية — يونانية سنة ١٠٩٤ ذكر لثلاثين عبداً مسلماً ترد أسماؤهم بين الأرقاء وأسماء اليهود التابعين لكنيسة قطانية[٤] وكان التصرف بالعبيد ، كسائر أنواع الملك ، أمراً شائعاً بصقلية حتى كانوا يباعون أو يهدون مع عائلاتهم ، فعند تأسيس أحد الأديرة تبرع الكونت رجار وأسياد الإقطاع بالقلعة والأرض والرقيق ، وكان البارونات يتقدمون هذا بعبد وذاك باثنين وآخر بأكثر ، حتى لقد تقدم أحدهم بيهودى[٥]. وتثبت وثيقة عربية من القرن الثانى عشر أن العرف التجارى كان يسمح بأن يباع الحر عبداً ، فقد أذن لجماعة من البحارة المسلمين أن يحملوا ذهباً من جفلوذ إلى مسينة خاصاً بسيد اسمه وليم ، ويرهنوا ممتلكاتهم ضماناً عنه ، وكان فيهم حاج يدعى عثمان رهن نفسه من الصراف ، لأنه لم يكن يملك شيئاً آخر حتى إذا استطاع أن يدفع ما عليه أصبح حراً[٦].

فالمسلمون من وجهة عامة كانوا فى العصر النورمانى : إما أهل مدن يتمتعون بشىء من الحرية ، ولا يحق لهم التوسع فى ممتلكاتهم ، وإما فلاحين فقدوا كل حرية لهم وأصبحوا رقيق أرض أو عبيداً ، وإما جنداً فى الجيش والأسطول .

---

(١) Curtis, p. 365-66.

(٢) Amari, 3, p. 209.

(٣) op. cit. p. 259.

(٤) op. cit. p. 241.

(٥) Amari, S. D. M. vol, 3, p. 243.

(٦) Op. cit. 242

٣
الادارة الإسلامية

أما من حيث الإدارة فإن القانون الذى أصدره رجار سن دون تحيز لفريق على آخر من الأقوام الخاضعة لسلطانه ، وترك لكل شعب مجاله على أن لا يعترض فى عرفه وعاداته مع القوانين المحررة[١]. ومن ثم كان كل فريق خاضعاً لنوع الإدارة التى تلائمه. فكان للمسلمين الشيخ والحاكم والقاضى والعامل والقائد[٢] وقد ذكر ابن جبير أن لمسلمى بلرم قاضياً يرتفعون إليه فى أحكامهم[٣] . ورأى مسلمى طرابنش يخرجون إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم[٤] أما العامل فيقابل ما يسمى Strategos فى المناطق ذات اللسان اليونانى ، وقد شاع لقب القائد أيام النورمان فشمل ناساً من العرب والبربر وأشخاصاً من أجناس أخرى وخرج عن مدلوله العسكرى ، وأصبح يدل على درجة مدنية تقع فى المرتبة دون الأمير . وكان لقب الشيخ والقائد مستعملاً منذ أيام الكلبيين ، ففى خبر عن جعفر بن الأكحل أنه استخف « بقوادهم وشيوخ البلاد »[٥] وفى زمن غليالم الثانى منح هذا اللقب لأبى القاسم بن الحجر ولمنافس له اسمه Sedictus (صديق ؟ شديد ؟)[٦] ولا بد أن هذا اللقب كان يدل أحياناً على أصحاب القلاع وحيناً على ناس مدنيين .

ومن المحتمل أن المسلمين اشتركوا فى بعض السلطات البلدية فكانت هناك هيئة تسمى « الأفاضل » Louni Uomini تساعد صاحب القضاء وأكثر أفرادها مسلمون[٧] وربما كانت صورة « للجماعة » التى طالما سمعنا عنها فى العصر العربى ، وهذا اللفظ نفسه — أى الجماعة — يطلق فى العصر النورمانى على شيوخ اليهود أيضاً .

---

(١) Cambridge Med. Hist. vol, 5, p. 204.

(٢) Amari, 3, p. 267.

(٣) ابن جبير ص ٣٣٢ والمكتبة ص ٩٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٣٦ والمكتبة ص ٩٧ .

(٥) ابن الأثير فى المكتبة ص ٢٧٤

(٦) Amari, 3, pp. 267-271. والأصح أنه السديد حسبما جاء فى رسائل ابن قلاقس

(٧) Amari, 3, p. 298.

٤
الصبغة الإسلامية فى الدولة

وإذا كانت الصبغة الإسلامية الإدارية — خلا بعض الألقاب — وقفاً على المسلمين ، فإن الصبغة الإسلامية عامة امتدت أيام النورمان إلى كثير من نواحى الحياة ، لأن الحضارة الإسلامية كانت غالبة على الجزيرة وفى ظلها نشأ رجار وخلفاؤه ، فوجدوا أنفسهم يقتبسونها ويفيدون منها .

وقد وضحت هذه الصبغة فى حياة البلاط نفسه، فتشبه رجار بملوك المسلمين فى الاستكثار من الجنائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك وخالف عادة الفرنج فإنهم لا يعرفون شيئاً منها [١] . وتصفه الوثائق العربية ويلقبه الإدريسى بالملك المعظم المعتز بالله المقتدر بقدرته [٢] وتلك كانت ألقاباً ثابتة له وكانت علامته الحمد لله شكراً لأنعمه [٣] وفى زمنه — أو زمن خلفائه — استعملت المظلة التى كان يستعملها بنو عبيد وهى شبه درقة فى رأس رمح محكم الصنعة ، يمسكها فارس من الفرسان، يعرف بها فيقال له صاحب المظلة [٤] . وكان ابنه غليالم الأول يتكلم العربية ، ويحيط نفسه بحرس من المسلمين ، وبلاطه مملوء بالخصيان والحجاب والجوارى ، ومضى غليالم الثانى على سنته يتخذ الفتيان المجابيب [٥]. وناظر مطبخه رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين ، وعليهم قائد منهم، ووزراؤه وحجابه الفتيان وجملة من أهل دولته مسلمون وكان كثير الاتخاذ للفتيان والجوارى . ويتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار

---

(١) ابن الأثير ١٠/٦٨ والمكتبة : ٢٧٨ .

(٢) نزهة المشتاق فى المكتبة : ١٥ .

(٣) ابن جبير : ٣٢٥ والمكتبة : ٨٤ .

(٤) نبذة المحتاجة لابن حماد فى المكتبة : ٢١٧ .

(٥) ابن جبير : ٣٢٤ والمكتبة ٨٣ .

زينته بملوك المسلمين [١] وهو يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته « الحمد لله حق حمده » .

وكانت الصبغة الإسلامية كما رأينا ظاهرة فى الألقاب فلقب الأمير يطلق على ناس من غير المسلمين ، وأعلى لقب هو أمير الأمراء وأشيعها لقب القائد للمدنيين والعسكريين على السواء. وزاد هذه الصبغة وضوحاً أن اللغة العربية كانت إحدى اللغات الثلاث التى أقرتها الدولة فى سجلاتها ، والأخريان هما اليونانية واللاتينية . أما اللغات المحلية فكانت أربعاً أو خمساً ، والفرنسية من بينها لغة البلاط ، وكانت المالية تستعمل اللاتينية واليونانية ، والظاهر أن العربية لم تكن مستعملة فيها فإن كل الوثائق المكتوبة بالعربية إنما تتعلق بأمور الأراضى والعقارات [٢] .

واتخذت الدولة ثلاثة أنواع من الدواوين الإسلامية هى :

(ا) ديوان المظالم : اقتبسه رجار عن المسلمين وكان المظلومون يرفعون إليه شكاواهم فينصفهم ، ولو من ولده — كما يقول ابن الأثير [٣] — وكل من ترجموا لرجار أجمعوا على تحريه الدقة فى تطبيق العدالة .

(ب) ديوان الطراز : والقائمون عليه يطرزون بالذهب فى دار خصصت لصنع الملابس الملكية ، والتقى ابن جبير مع واحد من أولئك الطرازين يسمى يحيى ابن فتيان [٤] ويقول فلقندو : « ولا ننس تلك المصانع الرفيعة حيث تغزل قطع الحرير خيوطاً ذات ألوان كثيرة وتهيأ لنسج أشياء متنوعة » وبعد ذلك يعدد فلقندو أنواعاً من الطراز والنسيج بأسمائها اللاتينية [٥] ومما تبقى من عمل هذا الديوان عباءة صنعت سنة ٥٢٨ للملك رجار ، إسلامية المناظر والزخرفة ، فى نصفها نخلة على جانبيها أسدان منقضان على جملين وعلى حاشيتها كتابة بالعربية جاء فيها :

---

(١) المصدر السابق : ٣٢٥ والمكتبة : ٨٣ .

(٢) C. Waern : Med. Sicily pp. 43-46.

(٣) ابن الأثير ١٠/٦٨ والمكتبة : ٣٧٨ .

(٤) ابن جبير ص ٣٢٥ والمكتبة : ٨٤ .

(٥) C. Waern : Med. Sicily pp. 78-79.

مما عمل بالحضرة الملكية المعمورة بالسعد والإجلال ، والمجد والكمال ، والطول والإفضال ، والقبول والإقبال ، والسماحة والجلال ، والفخر والجمال ، وبلوغ الأمانى والآمال ، وطيب الأيام والليال ، بلا زوال ولا انتقال ، بالعز والرعاية ، والحفظ والحماية ، والسعد والسلامة ، والنصر والكفاية ، بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة [١].

(ج) ديوان التحقيق المعمور : وهو الديوان الذى يعنى بشئون الأرض والرقيق المرفق بها وكل ذلك مقيد فى دفاتر deftarii ، وهى سجلات تبين الإقطاعات واتساعها وعدد الأرقاء فيها ، ويسمى هذا الديوان باللاتينية Dohana de Secretis وكلا التسميتين — فى رأى أمارى ومن يرى رأيه من الباحثين — تدلان على الأصل العربى [٢] وقد كان هذا الديوان موجوداً عند الفاطميين ؛ وللديوان رئيس أو صاحب ، دونه طبقة من الكتاب .

٥
المسلمون بين التسامح والاضطهاد

ومنذ أن استقرّ أمر الجزيرة لرجار ، جرى على سياسة تقريب المسلمين . ويقول المؤرخون المعاصرون (ملاترا مثلا) إن عقيدة المسلمين لم تمسّ بسوء ، ولا أصابهم رهق أو أذى [٣] . ويقول المؤرخ المجهول معاصر رجار : إن الشروط التى فرضت للمسلمين لا تزال مرعية حتى أيامه . وقد ضمن سكان بلرم حياتهم وحريتهم الدينية وظلّ لهم من بينهم قضاة وحكام [٤] وهذا هو ما يقوله الإدريسى فى رجار الأول ، وأنه نشر سيرة العدل فى أهل صقلية ، وأقرهم على أديانهم وشرائعهم . ونحن إذا أغفلنا الحال البائسة التى انحدر إليها مسلمو الأرياف وطبقات الفلاحين والعبيد منهم وبعض من جعلوا أرقاء بعد أن كانوا أحرار — قلنا إن أهل المدن كانوا يحيون فى أمن لأن الملك كان يحميهم بنفوذه وقوانينه . ويقول

(١) Gregorio : Rerum Arabicarum, p. 172.

(٢) انظر تاريخ أمارى ٣/٣٢٧ أما فيما يتعلق باختلاف الآراء حول أصول النظام فانظر Curtis

(٣) Amari, 3, p. 132.

(٤) op. cit.

ابن الأثير فى رجار الثانى : "وأكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فأحبوه"[١]
حتّى لقد كان يقرب زهادهم والمتعبدين منهم فأكسبه هذا اعتقاد بعض الناس
بأنه كان مسلماً فى السر . ومثل هذا الاعتقاد ينشأ بين جماعة كانت تستكثر
منه تسامحه أو من جماعة كانت تعاديه وتكيد له ، وتحاول أن تستغل تسامحه
لمصلحتها . أما حقيقة الحال فهى أن رجار كان يحب الهدوء والطمأنينة فى مملكته ؛
ولم يكن يهدد ذلك الهدوء وتلك الطمأنينة كالضرب على الوتر الدينى ، ولذلك لم
يكن يسمح للمسلمين فى جيشه أن يتنصروا ، ولا يحب أن يرى النصارى يعتنقون الإسلام
على أن اتهام أعدائه له بالإسلام سرًّا جعله يدفع ذلك عن نفسه ببناء الكنائس ،
بل بإغراء المسلمين على التنصر إن صح ما يقوله روموالد المؤرخ ، فهو يصف رجار
بأنه عنى فى آخر أيامه بتنصير اليهود والمسلمين ، مسبغاً على من تنصر منهم
أسباب النعمة الدنيوية[٢] وقضية فيليب أمير الأسطول مثل من الأمثلة التى
حاول بها رجار أن يظهر علناً إخلاصه للدين المسيحى . — فقد غزا فيليب بونه
واستولى عليها غير أنه أغضى على جماعة من العلماء والصالحين حتّى خرجوا
بأهليهم وأموالهم إلى القرى ، ولما عاد إلى صقلية قبض عليه رجار لما اعتمده من
الرفق بالمسلمين ، وكان يقال إنه وجميع فتيانه مسلمون يكتمون إسلامهم وشهد
عليه بعضهم أنه لا يصوم مع الملك ، وأنه مسلم ، فجمع رجار الأساقفة
والقسوس والفرسان فحكموا بأن يحرق فى رمضان ، وهذا أول وهن دخل على
المسلمين بصقلية [٣] .

وكان المسلمون من ناحيتهم يقبلون على الملك ويظهرون له الحب حتّى
يضمنوا لأنفسهم تقدماً فى دولته ، وحتّى يحميهم من أجناس أخرى كانت تنظر
إليهم نظرة بغض وحنق ، إذ ليس التسامح فى صقلية معناه موت الأحقاد فى
نفوس الأجناس ، ولكن معناه ضبط الحاكم لتلك الأجناس وعدم سماحه بتعدى

---

(١) ابن الأثير ١٠/٦٨ والمكتبة : ٢٧٨ .

(٢) Freeman : Hist. Essays, 3rd Series: 459.

(٣) رحلة التيجانى فى المكتبة : ٢٩٩ — ٣٠٠ .

فريق على آخر – وليس غريباً أن يتعلق المسلمون بالملك لأنه الشخص الوحيد القادر على حمايتهم . ومن ثم لن نستغرب ما يقوله فلقندو من أن النساء المسلمات فى بلرم خرجن حين توفى غليالم الأول يلبسن الثياب الخشنة ،وقد نشرن شعورهن وملأن الفضاء بعويلهن ، ورددن المراثى الشجية على نغمات الطنبور [١] ذلك لأن الملك إن كف عن حمايتهم ، أصبحت حياتهم فى خطر. وهذا ما حدث فعلا عندما قامت ثورة على مايون وزير غليالم الأول منتصف عام ١١٦٠ م فقد كان مايون – كما يحدثنا فلقندو – نزع السلاح من أيدى المسلمين . فلما قام النبلاء والبارونات بالثورة عليه انتهز المسيحيون – وخاصة اللمبارديون – هذه الفرصة وهاجموا المسلمين وأثخنوا فيهم قتلا وذبحاً فى شوارع بلرم – ويقال إنهم وجدوا فى القصر جماعة من الخصيان المسلمين فذبحوهم ، ثم قتلوا المسلمين الذين كانوا فى الدواوين أو فى الفنادق والحوانيت ونزعوا الأكفان عن جثث الموتى ،ولم يكن عدد من هلك من المسلمين قليلاً ، وممن قتل فى هذه الواقعة الشاعر القفصى يحيى بن التيفاشى . ولعل الإدريسى كان من ضحاياها أيضاً [٢] . ويمضى فلقندو الذى روى هذه الحوادث فيقص علينا كيف أن اثنين من اللمبارديين خرجا إلى بثيرة وغيرها ،وجمعا الفلاحين اللاتين ،وأغارا بهم غارات متتالية على المسلمين الذين كانوا يعيشون بين المسيحيين ، دون أن يراعوا فى ذبحهم عمراً أو جنساً ، حتى أبادوهم إلا قليل نجوا بأنفسهم ، ولجأوا إلى الغابات والجبال لتخفيهم عن أنظار المسيحيين ، وبعضهم لجأ إلى قلعة فى جنوبى صقلية يسكنها بعض إخوانهم فى الدين [٣] .

وبعد غليالم الأول جاء غليالم الثانى وكان صغير السن فقامت أمه بالوصاية عليه ، واتخذت رجلا يسمى اسطفان Stefano مستشاراً لها ، وكان رجلاً قديراً لكن تنقصه عصبية تشد من أزره ، أو حزب يسنده ، ويقول فلقندو فى وصفه :

---

(١) Amari : S. D. M. vol, 3, p. 502.
Waern : Med. Sic. p. 39.

(٢) Amari : S. D. M. vol. 3. pp. 495-96.

(٣) op. cit. pp. 497-98.

إنه كان ملكاً أرسله الله ليعيد على الأرض ذلك العصر الذهبي القديم . وكان المسلمون منحرفين عنه بتأثير أبي القاسم بن حمود الذى كان يوزع الأموال على الناس لعله يميلهم عن أسطفان ، إذ كان هذا قد صادق منافساً لابن حمود يسمى القائد (ابن السديد) وهو من أغنياء المسلمين [١] .

ومهما يكن فقد هدأت النفوس أيام غليالم الثانى حتى أصبح عهده مضرب المثل فى الهدوء والسكينة . وكان يقال إن غابات صقلية فى أيامه أكثر أمناً من المدن فى البلاد الأخرى [٢] . وحياة المسلمين فى عصره واضحة والفضل فى ذلك عائد إلى ابن جبير الذى زار الجزيرة وهو عائد من الحج . ويستفاد مما ذكره هذا الرحالة القدير أن المسلمين كانوا قليلين فى مسينة ، وأنهم فيها من ذوى المهن ، أما بلرم فتحوى الحضريين منهم ، وبها يعمرون أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا بسكنها عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة ودعاؤهم فيها للعباسى ، ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم ، وجامع يجتمعون فيه للصلاة ، وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن [٣] .

وقد وجد ابن جبير أن المسلمين فى بلرم مقربون إلى غليالم ، وأنه كثير الثقة فيهم ، فلذلك استعملهم فى كثير من الوظائف . وفتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته فى ملكه مسلمون ، يصومون ويتصدقون ويفتكون الأسرى [٤] وفى جفلوذ طائفة من المسلمين [٥] ولهم فى ثرمة ربض كبير آهل بالمساجد [٦] . وبين بلرم وطرابنش ضياع متصلة ومحارث ومزارع وسكانها كلهم مسلمون . وفى مدينة

(١) op. cit. p. 510.

(٢) Freeman : Hist. Essays 3-459.

(٣) ابن جبير ٣٣٢ ، والمكتبة ص ٩٢ .

(٤) ابن جبير ص ٣٢٥ — ٣٢٦ .

(٥) ص ٣٢٨ .

(٦) ص ٣٢٨ .

علقمة سوق ومساجد وسكانها مسلمون كذلك[١]. وفى طرابنش مسلمون ونصارى ولكلا الفريقين مساجد وكنائس وقد رأى المسلمين فيه يعيدون بالطبول والبوقات[٢] ولم ينس ابن جبير أن يسجل اللطف الذى قابله به النصارى ومبادرتهم له ولرفقائه بالسلام ومؤانستهم ، ومحضهم النصح لهم إذا اقتضى ذلك ، وإغضاءهم على تظاهر المسلمين عند تأديتهم بعض الشعائر الدينية[٣] . ولم يحاول أن يخفى لطف غليالم ودفعه الأجرة عن فقراء المسلمين لأصحاب المراكب التى كانت تقلهم[٤] .

ومن يقرأ كل هذه الحقائق يعجب من قصص أخرى أوردها ابن جبير عن ناس لا يشعرون بالأمن فى بيئتهم ، ويخافتون فى أداء العبادة ، ولا يستطيعون أن يرفعوا أصواتهم بأنهم مسلمون ، حتى ليخيل إليه أن هناك تناقضاً فيما عرفه ابن جبير بالمشاهدة أو بالسماع . والحقيقة أن لا تناقض هنالك فالمسلمون الذين كانوا يتظاهرون بدينهم كانوا قادرين على ذلك فى حالين إما فى مدينة يحضر فيها الملك بقوته كبلرم ، أو مدينة هم الأكثرية فيها كطرابنش. أما فى مثل مسينة حيث هم أقلية بعيدون عن الحماية فمن الطبيعى أن يحذروا جيرانهم فى شيء من الخوف . وقد سمع من أحد الوجوه بمسينة قوله : أنتم مدلون بإظهار الإسلام ، فائزون بما قصدتم له رابحون إن شاء الله فى متجركم ، ونحن كاتمون إيماننا ، خائفون على أنفسنا ، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سراً ، معتقلون فى ملكة كافر قد وضع فى أعناقنا ربقة الرق[٥] . وفى هذا قدر كبير من الصحة إذا اعتبرنا المثل الأعلى فى فهم الحرية الدينية ، وهذا كلام رجل شهد ما مضى من اضطهاد فى أيام غليالم الأول فهو يرى أن هذه الحال من الأمن لن تدوم — أما الشكوى التى سمعها ابن جبير من أبى القاسم بن حمود فلا غرابة

---

(١) ابن جبير : ٣٣٤ .

(٢) ص ٣٣٦ .

(٣) ص ٣٣٠ — ٣٣١ .

(٤) ص ٣٢١ .

(٥) ص ٣٢٦ ، والمكتبة : ٨٥ .

أن تسمعها من رجل طموح كان يريد الزعامة ، وكان قد شقى بالمصادرة وفقد كل ثروته . والحقيقة أن هذه الشكاوى لا تعبر عن تلك الفترة الهادئة وإنما تعبر عما أصاب المسلمين قبل سنوات . ويحس من يقرأ كلمات فلقندو أنه كان قد جرى على المسلمين من الأذى فى أنفسهم وعقيدتهم ما يزرع الخوف فى النفوس ولا يدع للهدوء طريقاً إلى القلوب ، أو يبشر بنسيان الإساءة .

ومن المثالية أيضاً أن ندعى بأن المطالبات المالية كانت تجرى دائماً على حسب القوانين ، وتقرر عند رأى العدالة ، وقد سمع ابن جبير عن فقيه اسمه ابن زرعة ضغط بالمطالبة فأظهر فراق دين الإسلام والانغماس فى دين النصرانية ومهر فى حفظ الإنجيل ، ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون فى الأحكام النصرانية . وربما طرأ حكم إسلامى فيستفتى فيه أيضاً لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، وكان له مسجد بإزاء داره أعاده كنيسة [1] .

ولم يكن مما يهون على الناس يومئذ — وربما لا يهون أبداً — أن يروا مركز عبادتهم قد حول إلى مكان لعبادة قوم آخرين . ولم تكن ترتاح النفوس لذلك التظاهر الصاخب بالشعائر ، فتلك الطبول والبوقات كانت تزعق فى أسماع أهل الدين الآخر بأصوات التحدى ، وتدوى بالكراهية المتبادلة التى تغطى بقشرة رقيقة من الهدوء .

بل لعل أدق ما اطلع عليه ابن جبير من أحوال صقلية اتخاذ مفارقة الدين سلاحاً يشهره الولد فى وجه أبيه ، والزوجة فى وجه زوجها ، ويذهب الغاضب فيتنصر ويتعمد ، فهم الدهر فى مداراة الأهل والولد خوف هذه الحال [2] . ولا ننس ذلك الخوف على العرض ولذلك فلا عجب أن نرى أحد الآباء جاء يهدى ابنة له صغيرة السن إلى أحد الحجاج ، لعله ينقلها معه ويتزوجها أو يزوجها ممن يرتضيه لها ، رغبة منه فى أن يجنبها ما قد يخبئه القدر لمثيلاتها من فتيات

---

(١) ابن جبير : ٣٤٠ والمكتبة : ١٠١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٤٢ والمكتبة : ١٠٣ .

المسلمين بالجزيرة [١] . ومن هذه الحال نستطيع أن نستنتج بأن الهجرة من صقلية لم تكن سهلة ولا كانت السلطات تسمح بها إذ كان عمران صقلية يستدعى ذلك وأكثر منه ، أى يتطلب استقدام سكان من الخارج وإعطاءهم بعض الامتيازات لإغرائهم على الهجرة إلى صقلية .

والخلاصة أن المسلمين كانوا فى الجزيرة غرباء عن إخوانهم المسلمين فى الأقطار الأخرى . وتحت ذمة غيرهم يؤدون الجزية . ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم وأبنائهم [٢] إذا ضعف السلطان عن حمايتهم بل كانت حمايته لهم تزيد من كره أصحاب الأديان الأخرى لهم . هذا حالهم فى المدن ، أما فى القرى والأرياف ، فلم يكونوا يرتفعون عن الرقيق بكثير ، وكلهم رهائن فى يد الملك بصقلية يهدد بهم أمراء المسلمين وملوكهم ؛ مثال ذلك أن عبد المؤمن لما استولى على المهدية قال صاحب صقلية : إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم [٣] .

وقد صدقت الأيام تلك الهواجس النفسية التى كانت تسيطر على المسلمين وأيدت مخاوف فلقندو الذى جزع لما بلغته وفاة غليالم الطيب فراح يقول فى رسالة لصديقه : «إننى لأرى جموع البرابرة الغاصبين ومدننا الفسيحة وقصورها التى زهت فى ظل سلام طويل تميد بالخوف ، وقد جرت فيها الدماء ودنستها الشهوات ، إننى لأرى بعينى بنى وطنى فريسة للذبح والأسر ، وأرى العدوان واقعاً على العذارى والنساء . وفى مثل هذه الضائقة ، أيها الصديق ، ماذا ترى يفعل الصقليون ؟ إنهم إن اجتمعوا على ملك شجاع مجرب احتفظوا بصقلية وقلورية . إن بلرم لا تزال مكللة بالعز وأسوارها تضم المسيحيين والمسلمين النشطاء فلو أن الشعبين اتحدا فى ظل ملك واحد ، من أجل سلامتهما ، لاندفعا يصدان البرابرة بأسلحة لا تنثنى . ولكن إن عاد المسلمون إلى الثورة لشدة ما لحقهم من

(١) المصدر السابق : ٣٤٢ – ٣٤٢ والمكتبة : ١٠٤ .
(٢) ابن جبير : ٣٣٢ والمكتبة : ٩٢ .
(٣) رحلة التيجانى فى المكتبة : ٣٠٧ – ٣٠٨ .

أذى ، وما رهقهم من إساءة ، وراحوا يحتلون القلاع فى الجبال وعلى السواحل فليوطن المسيحيون التعساء أنفسهم على عبودية لا خلاص منها لأنهم سيكونون فريسة لهجوم مزدوج وسيقعون بين المطرقة والسندان »[١]

ولم يكن فى تلك العصور كثير من أمثال فلقندو يقدمون مصلحة الوطن على الاعتبارات المذهبية الضيقة ، فلم تكد الدولة تقفر من الرجال الأكفاء بعد غليالم الثانى ، حتى ثارت المعارك بين المسلمين والمسيحيين فى الشوارع ، وفاضت الدماء فى المدينة واعتصم من نجا بين الجبال[٢] واستمرت ثورة المسلمين من نهاية ١١٨٩ إلى أكتوبر من سنة ١١٩٠ ثم أثر فيهم الإقناع فعادوا إلى بيوتهم فى بلرم، وعاد الأرقاء إلى حقولهم يكدون، ولكنهم لم يعودوا جميعاً، وكثير من الذين رجعوا لم يلبثوا طويلاً ، إذ كان من السهل على التجار والصناع منهم أن يهاجروا إلى أفريقية هجرة تقطع آخر علاقتهم بوطنهم ، وأما أهل الأرياف فبقوا معتصمين فى الجبال وأعطيت أراضيهم للإقطاعيين المدنيين والدينيين .

---

(١) H. S. Williams : Historians' Hist. of the World vol. 9. P. 1.

(٢) Amari, 3, p. 554.

الفصل الثالث

الحياة العقلية

مجالاتها الجديدة ونصيب المسلمين فيها



الحياة العقلية

مجالاتها الجديدة ونصيب المسلمين فيها

كان النشاط فى الميادين العلمية أثناء العصر العربى آخذاً مجاله فى المسجد والقصر والكتاب ، أما فى العصر النورمانى فقد استوى الكتاب والمسجد فى حقيقة الدراسات — إلا قليلا — وأصبح القصر أو الأمير هو الكعبة الكبرى التى تحوم حولها العلوم كما تحوم الآداب . وبرزت هذه المركزية الجديدة بوضوح حتى غطت على آفاق النشاط الأخرى وطمستها أوحجبتها — على الأقل— عن أعيننا. ولا شك فى أن المسجد العامر بألوان الدراسات الفقهية واللغوية والأدبية قد تضاءل شأنه فى العصر النورمانى ، وانهزمت الدراسات الدينية أمام الدراسات العلمية الأخرى. ولما زار ابن جبير صقلية وجد المساجد فيها محاضر لمعلمى القرآن — والقرآن فقط — أى أن هذه المساجد كانت موئلا للمعلمين الذين كانوا — كما شاهدهم ابن حوقل من قبل — يلقون إلى طلبتهم أجزاء من الكتاب ليحفظوها عن ظهر قلب . وإذا كان ابن ظفر قد ألف فى هذا العصر كتباً كثيرة فى التفسير واللغة والمواعظ فليس هذا بدليل على أن صقلية كانت مقبلة بحماسة على هذه الدراسات لأن ابن ظفر لم يكن صقلياً عند التحقيق إذ ولد فى صقلية وعاش فى العالم الإسلامى متنقلا ، وكانت زيارته لصقلية فى سن عالية ، زيارة قصيرة الأمد ، إلا أنا نسمع أسماء نحويين كثيرين من أواخر العصر العربى وأسماء فقهاء فى صقلية نفسها عاشوا فى العصر النورمانى ولا بد أنهم كانوا يزاولون شيئاً من هذه الدراسات ، غير أن الحقل الواسع الذى نمت فيه الدراسات الدينية على أيدى الصقليين أنفسهم كان خارج صقلية .

وقد قامت الحياة العلمية فى هذا العصر على المشاركة فى غير لغة واحدة . وكان لا بد لمن يحاول الحظوة فى الدولة والصدارة فى دواوينها ، أن يتقن لغة فأكثر ومن ثم قامت الحياة العقلية على أكتاف أناس طامحين يعملون فى خدمة الدولة بعلمهم ومعرفتهم . وليس من الضرورى أن يكون هؤلاء صقليين أصلا. ومما يميز

هذه الحركة العلمية الجديدة أنها كانت بتوجيه من الملك نفسه فهو الذى يدفع العالم إلى التأليف والترجم إلى ترجمة آثار معينة . وهذا يدل على اتجاه علمى محدد الوجهة والغاية ، نضيفه إلى المشاركة الفعلية التى تروى عن رجار الثانى من بينهم خاصة . — إذ يقول فيه الإدريسى : «وأما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تدرك بعدّ ، ولا تحصر بحدّ ، لكونه قد أخذ من كل فن منها بالحظ الأوفر ، وضرب فيه بالقدح المعلى ، ولقد اخترع من المخترعات العجيبة وابتدع من الابتداعات الغريبة ، ما لم يسبقه أحد من الملوك إليه ولا تفرّد به »[١] .

ومضت صقلية تستورد الكتب من الخارج كما كانت تفعل فى العصر العربى مع اختلاف فى نوع الكتب . ودخلت بلرم — وإلى درجة ما سرقوسة — كتب يونانية وعربية فاستحضر رجار الكتب الجغرافية المؤلفة بالعربية أو المترجمة إليها من اليونانية ، مثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب الجيهانى وابن خرداذبة والعذرى وابن حوقل والكياكى وموسى بن قاسم القردى واليعقوبى وابن المنجم وقدامة وكتاب الجغرافيا لبطليموس وأرسيوس[٢] وجاءت من القسطنطينية نسخة من كتاب المجسطى هدية من الإمبراطور إلى الملك غليالم الأول ، وربما وردت منها أيضاً نسخة من كتاب ملحمى ترجمة دوكستباتر Doxtopater عن الكلدانية . ويتحدث ارستبس المترجم لصديق له إنجليزى وينصحه بأن لا يغادر صقلية لأنه لا يجد فيها حكمة اللاتين فحسب ، بل مكتبة يونانية وعوناً من رجل ضليع فى الأدب اليونانى ؛ فى صقلية يستطيع أن يحصل على الميكانيكا لهيرون والبصريات لإقليدس والأنالوطيقا لأرسطو وغيرها من المؤلفات الفلسفية اليونانية[٣] .

والفضل فى هذه النهضة العلمية يرجع فى الدرجة الأولى إلى أنواع التشجيع التى كان يقوم بها الملك ورجاله نحو العلماء ، فهم يغدقون عليهم الأموال ويكتنفونهم بالاحترام ، ويرفعون مراكزهم الاجتماعية فى الوظائف والألقاب ، كما

---

(١) نزهة المشتاق فى المكتبة : ١٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١٧ .

(٣) Haskins : Med. Science p. 166.

اشتهروا بالحرص على إغراء العلماء بالقدوم إلى صقلية . وكان رجار يميل إلى مجالسة العلماء ، وعند الصفدى أنه كان محبًّا لأهل العلوم الفلسفية[١] ، وأن الإدريسى كان يجىء إليه راكباً بغلة فإذا صار عنده ، تنحى له عن مجلسه ، فيأبى فيجلسان معاً [٢] وكان لا يسمع بعالم شهير إلا مهد له السبيل للوفود عليه وكذلك كان ابنه غليالم الأول . ويصفه ارستبس فى حديثه لصديقه الإنجليزى بأنه ملك لا نظير له [٣] ، وليس يعنى بهذا أبهة الملك ، بقدر ما يعنى تميزه فى الاهتمام بالأمور العلمية والفلسفية ، والتساؤل عن طبائع الأشياء ، وقد كان وزيره مايون يشاركه الاهتمام بهذه النواحى العلمية . ولم يشذ غليالم الثانى عن سيرة من سبقه فيقول ابن جبير فى وصفه : " وله الأطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم ، شديد الحرص عليهم ، حتى إنه متى ذكر أن طبيباً أو منجماً اجتاز ببلده ، أمر بإمساكه وأدرّ له أرزاق معيشته حتى يسلبه عن وطنه "[٤] .

وفى أيام غليالم الأول والثانى ازدهرت حركة الترجمة إلى اللغة اللاتينية من العربية واليونانية . وكان من أشهر المترجمين عن اليونانية أرستبس الذى أصبح أيام غليالم الأول شخصية هامة وتولى الوزارة له بعد مقتل مايون ، وكان ضليعاً فى اليونانية فترجم الفيدون ومينون من محاورات أفلاطون ، وبأمر من الملك قام بترجمة جرجوريو النازيانزى ، وبطلب من مايون ترجم ديوجين لايرتس إلى اللاتينية[٥] .

أما الأمير يوجين البلرمى الذى أكسبته استطلاعاته الفكرية لقب «فيلسوف» فكان يترجم من العربية ، فترجم منها إلى اللاتينية بصريات بطليموس ؛ وكان فى متناول يده بعض كتب لإقليدس[٦] ، مما يدل على معرفته باللغات والرياضيات مع قدرة على نظم الشعر باليونانية ، وله مجموعة من الشعر فيها قصيدة

---

(١) الوافى بالوفيات فى المكتبة : ٦٥٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٥٨ .

(٣) Haskins : Med. Science p. 166.

(٤) ابن جبير : ٣٢٥ والمكتبة : ٨٣ .

(٥) Haskins. M. Science p. 166.

(٦) Haskins : Med. Science p. 171.

يمدح بها غليالم وليس من الواضح أى غليالم هو المقصود بذلك المديح[١] .
وترجم يوجين أيضاً كتاب كليلة ودمنة أو لعله ساعد فى ترجمته إذ جاء فى المقدمة . — إنها تمت بمساعدة رجال يعرفون العربية حق المعرفة وهى جملة ربما لا يقولها يوجين ، لاطلاعه الواسع فى العربية[٢] ، وإن كان هذا لا يمنع أنه استعان على ترجمتها ببعض المسلمين حين وجد نفسه إزاء نص أدبى . وإليه تعزى ترجمة إحدى الملاحم عن اليونانية وهى كتاب نبوءات تتحدث عن أعمال الملوك والأباطرة . ويعتقد أمارى أن نسبة هذه الملحمة إلى أصل كلدانى غير صحيح ، لأن فيها معلومات عن بعض الظواهر والأحداث التى وقعت فى القرن الثانى عشر والثالث عشر ، فنسبتها إلى القرون الخوالى مقصودة ، لتزيد فى قيمة ما ورد فيها من التنبؤات[٣] .

ولم يكن نصيب العلماء المسلمين فى الحركة العلمية قليلا . — فقد كان الشريف الإدريسى يرأس « الدائرة الجغرافية » فى بلرم ، ويشرف على جهودها وينظمها. ومن تنظيمه هذا قام فى أيام رجار بعملين : رسم صورة الأرض فى دائرة من الفضة ووضع أقسام الأقاليم عليها . وألف كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى اشتهر باسم كتاب رجار ، واستمر الإدريسى فى بلرم أيام غليالم الأول وله ألف كتاباً آخر سماه « روض الأنس ونزهة النفس»[٤] وكان للشريف مشاركة فى علوم أخرى كعلم النبات وفيه ألف « الجامع لأشتات النبات » ولكن ليس من الممكن أن نقطع بأنه ألفه فى صقلية[٥] .

ومن المسلمين الذين اشتهروا بصقلية محمد بن عيسى بن عبد المنعم " من أصحاب العلم بعلمى الهندسة والنجوم ، ماهر فيهما قيم بهما ، مذكور بين الحكماء هناك بأحكامهما "[٦] وذكر الحكماء فى هذه العبارة يفتح المجال

---

(١) Op. cit. p. 172.

(٢) op. cit. p. 176.

(٣) Amari : S.D.M. vol. 3, p. 676.

(٤) الخريدة الجزء ١١ الورقة

(٥) انظر تاريخ أمارى ٣/٧٠٢ وتعليق نللينو فى هذه الصفحة .

(٦) القفطى — أخبار العلماء : ١٨٩ .

لتصور كثير منهم بصقلية . وعلى يد العلماء المسلمين انضم إلى هذه الدراسات العلمية جهود أخرى فى الدراسات الفقهية والأدبية . فى أيام غليالم الثانى كان أبو القاسم بن الحجر موئلا للقصاد ، فألف له ابن ظفر الصقلى كتاب « سلوان المطاع » وكتاب « معونة الأشراف فى الفقه المالكى » وفى مدحه صنف ابن قلاقس كتاب « الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم » .

وشفعت الحركة العلمية هذه بظاهرتين جعلتاها أرسخ أصولا وأبعد أثراً . — الظاهرة الأولى : قيامها على التجربة والمشاهدة فى بعض الأحيان . فى المجال الجغرافى لم يكتف رجار بالاعتماد على كتب الجغرافية وحدها ، بل أحضر الرجال العارفين وشافههم فى الأمور التى يريد معرفتها ، وحقق أخبار البلاد بالمعاينة ووقع اختياره هو والإدريسى على أناس ألباء فطناء أذكياء ، جهزهم إلى أقاليم الشرق والغرب وسفر معهم قوماً مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً ، وأمرهم بالتقصى والاستيعاب لما لا بد من معرفته فكان إذا حضر أحد منهم بشكل أثبته الشريف الإدريسى [١] . وكان أرستبس فى أيام غليالم الأول يعرض نفسه للخطر ويحاول أن يدرس عجائب إتنا ويستطلع حقيقته [٢] .

والظاهرة الثانية : الاستفادة منها فى الحياة العملية وفى هذه الناحية نطلع على جهود فى الهندسة المعمارية وفى عمل الآلات ، وللمسلمين فى هذه المجالات أثر واضح ، إذ كان رجار يعتمد عليهم فى صنع آلات الحصار ، وهم الذين كانوا يصنعون القلاع المتحركة فى حصار سالونيك سنة ١١٨٥ كانت منجنيقاتهم ذات أثر فعال فى خرق الأسوار [٣] . وصنع أحد المهندسين لرجار آلة لرصد الساعات درست ولم يبق مما يدل عليها إلا كتابة باللغات الثلاث اللاتينية فاليونانية فالعربية والنص فى العربية "خرج أمر الحضرة الملكية المعظمة الرجارية العلية أيد الله أيامها وأيد أعلامها ، بعمل هذه الآلة لرصد الساعات ،

---

(١) الوافى بالوفيات فى المكتبة : ٦٥٨ .

(٢) Haskins. Med. Sciencep. 15 9.

(٣) Amari : S. D. M. vol. 3. p. 706.

بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثلاثين وخمسمائة"[1] وربما كانت شيئاً شبيهاً بتلك الآلة التي صنعت بمالطة لملكها وهي صورة تعرف بها أوقات ساعات النهار وكانت ترمى بنادق على الصناج[2] وفي معجم السلفي أن أحد المهندسين صنعها لقائد اسمه يحيى ليعرف أوقات النهار بالصنج[3] وكان في المسلمين مهندسون معماريون تركوا أساليبهم في قصور بلرم، وأبو الليث مثال لهؤلاء[4] .

هذه الحركة العلمية سواء في التشجيع عليها والتهيئة لأسبابها أو في قيامها على الترجمة من ناحية أو على الترجمة والمشاهدة من ناحية أخرى كانت أيضاً موضع اهتمام كبير من فردريك الثاني وابنه منفريد فيما بعد .

---

(١) Gregorio : Rerum Arabicarum, p. 176.

(٢) القزويني آثار البلاد : ٣٧٣ والمكتبة : ١٤٣ .

(٣) السلفي ، الورقة ٣٣. والشك واقع في مكان صنعها لأن مالطة عند ياقوت بالأندلس أيضاً وما دونه السلفي مروى عن رجل بلنسي وربما كان يحيى المذكور هو ابن غانية . وانظر Centenario حول هذا الشك ٢/٢١٠ .

(٤) انظر كلام أماري عنه في تاريخه جـ ٣ ص ٧٠٤ — ٧٠٥ .

الكتاب الثالث

حياة الشعر العربي

في صقلية



الفصل الأول

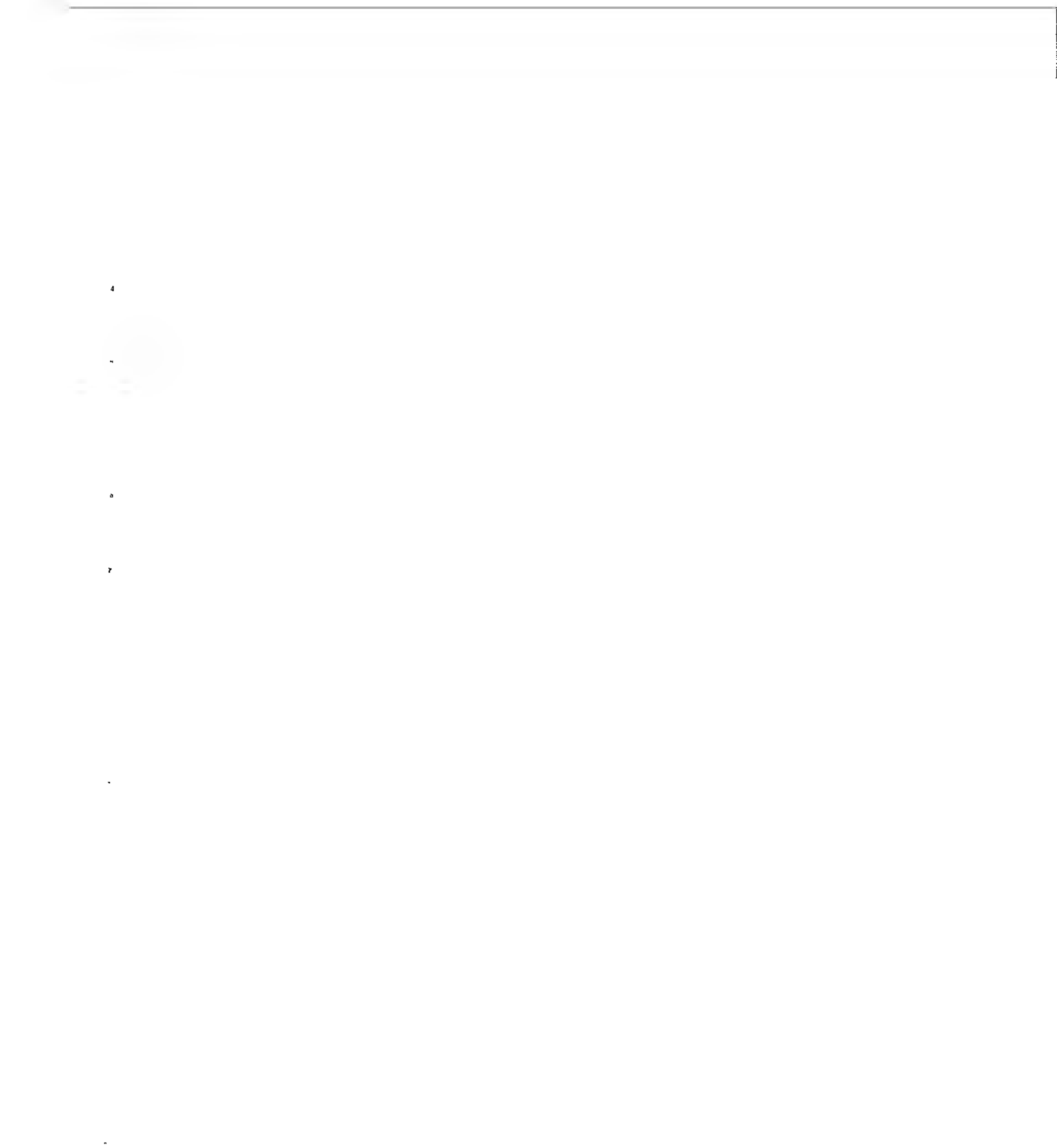
المكونات الكبرى فى شعر صقلية الإسلامية

١ — موقع الجزيرة وطبيعتها الجغرافية

٢ — الأجناس التى أنتجت الشعر الصقلى

٣ — الفترة التى نما فيها الشعر الصقلى

٤ — الفتنة الأخيرة وأثرها فى الشعر



المكونات الكبرى فى شعر صقلية الإسلامية

لا يستطيع الباحث فى الشعر الصقلى – عهد الحكم الإسلامى فى الجزيرة – إلا أن ينظر إليه من خلال أربع حقائق كبرى، كان لكل واحدة منها أثرها البعيد فى ذلك الشعر وفى طبيعته :

الحقيقة الأولى : موقع الجزيرة وطبيعتها الجغرافية :

فموقع الجزيرة هو الذى تحكم فى الهجرة من صقلية وإليها ؛ وجعل الشعر الصقلى نفسه صورة من الصادر والوارد ، كالحال فى حياة التجارة . ولذلك نجد فى هذا الشعر أنغاماً صقلية مهاجرةً ، تتردد فى إفريقية ومصر والأندلس ، كما نجد أنغاماً غريبة وافدةً إلى صقلية نفسها . وليس من الضرورى أن ننتظر الفتح النورمانى لنسمع عن شعراء هاجروا من صقلية إلى البلدان المجاورة ، فهناك من الصقليين من كان يتنقل بشعره متكسباً ، وخاصة بعد أن أصبحت مصر فاطمية الدولة ، تجتذب إليها الشعراء من جميع أنحاء المملكة ، وصقلية يومئذ ولاية تابعة للخليفة الفاطمى ، وأمراؤها الكلبيون ذوو منزلة رفيعة عند ذلك الخليفة بمصر وصقلية فى آن واحد ، وبهؤلاء الشعراء الراحلين عرف الناس صقلية معرفة أوضح ، وزادها وضوحاً أخبار البحارة والراحلين إليها .

فمن الصقليين الذين هاجروا من بلدهم فى هذه الفترة المقداد بن الحسن الكلبى وأخوه ميمون ، والأول منهما كان بمصر أيام العزيز نزار ، وهو يصرح بأنه شاعر الخليفة ، وقد قتله الحاكم سنة ٣٩٣ هـ لقوله فى أيام العزيز [١] :

(١) ابن سعيد: المغرب ٣ الورقة : ٧٥ والملحق الثانى للمكتبة ١٦ – ١٧ نقلا عن الوافى .

الحمد لله حتّى الخبز أعوزنى   فى بلدة أنا فيها شاعر الملك

ومن هؤلاء الصقليين أيضاً أبو على الحسن بن على الصقلى النحوى ولا نعرف له من الشعر إلا قوله :

فى سبيل الله ودّ حسن   دام من قلبى لوجه حسن
وهوى ضيعته فى سكنى   ليس حظى منه غير الحزن
يرقد الليـــل ويستعذبــه   وإذا ما رمت طيب الوسن
زارنى منه خيـــالٌ ما له   أرب فى غير أن يوقظنى

وقد توفى هذا الصقلى بمكة سنة ٣٩١ هـ ، بعد أن حج ، ودفن هنالك [١]

وكان من أظهر الأسباب التى حدت بشعراء صقلية على الهجرة ارتفاع شأن القيروان أيام المعز بن باديس فى النواحى الأدبية ، حتّى أصبحت تنافس بلرم فى نشاطها ، وكان قد التف حول المعز عدد كبير من الشعراء من جهات متعددة فى المغرب ، حتّى ليخيل لمن يقرأ ما تبقّى من كتاب الأنموذج لابن رشيق أن نهضة المغرب الأدبية إنما تبلورت واكتمل نضجها أيام المعز ، لا قبل ذلك ولا بعده . ويقول ياقوت : وكانت القيروان فى عهده وجهة العلماء والأدباء ، تشد إليها الرحال من كل فج ، لما يرونه من إقبال المعز على أهل العلم والأدب وعنايته بهم [٢] . ففى ظل الاستقرار السياسى بإفريقية شهدت القيروان نهضة أدبية ، وفى ظل نوع من الاستقلال السياسى بصقلية عرفت بلرم حركة أدبية قوية . وكانت هاتان النهضتان متعاصرتين حتّى لنستطيع أن نقول إن العنصر المغربى فى البرّين الأفريقى والصقلى كان يؤدى أقوى أدواره فى تأريخ الأدب العربى حين تمت له وسائل النهضة الأدبية فى حياته الاجتماعية والثقافية . وربما كان من استباق الحوادث أن أسجل فى هذا الموطن هذه الظاهرة الثلاثية التى حدثت تباعاً على الوجه التالى :

---

(١) ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق ٤ : ٢٣٥ .
(٢) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(ا) خربت القيروان على يد العرب الهلالية وذهب ما أنفقه المعز من جهود ، فهاجر الناس وفيهم الشعراء والعلماء إلى صقلية والأندلس .

(ب) ثم وقعت صقلية بعد وقت قصير فتشعب شعراؤها وعلماؤها الأصليون والطارئون فى ثلاث شعب : واحدة ذهبت إلى الأندلس وأخرى عادت إلى أفريقية وثالثة إلى مصر ، وسنقف عند هذه الهجرة فى فصل تال .

(حـ) ثم أخذت الأندلس تهتز تحت غارات الإسبان من جهة وأطماع المرابطين من جهة أخرى ، وتشتتت تلك الحلقات الأدبية التى كانت حول ملوك الطوائف — وخاصة ابن عباد — واتجه المهاجرون فى الغالب إلى أفريقية ؛ وهكذا قام كل بلد من هذا المثلث المغربى بنصيبه فى الحياة الأدبية ، وكانت الهجرة من واحد إلى آخر غذاء جديداً .

وتتمثل الهجرة إلى صقلية على ثلاث درجات متفاوتة : فهناك هجرة الشاعر العابر المتكسب الذى يتخذ من صقلية منتجعاً أو موطئ قدم ، حتى إذا وجد طلبته ، أو أخفق فى العثور عليها ، فارق البلد عائداً إلى وطنه . ومن أشهر هؤلاء الشعراء ابن قاضى ميلة أحد الوافدين على ثقة الدولة وقد مدحه بقصيدة فائية وصفها ابن خلكان بأنها بديعة غريبة ورواها بتمامها [١] ومنهم ابن المؤدب ، وهو ممن أسرهم الروم ، فلما هادنهم ثقة الدولة استرد بعض الأسرى وفيهم هذا الشاعر فمدحه بقصيدة شكره فيها على صنيعه ، ورجا صلته ، فلم يصله ثقة الدولة بشىء ، فأخذ يتكلم بذمه وأطلق لسانه فيه غير متحرج ، واختفى خوفاً على نفسه من الطلب ، وفى إحدى الليالى خرج وهو سكران ليشترى نقلاً ، فما شعر إلا وقد حمله صاحب الشرطة حتى أدخله على ثقة الدولة ، فعاتبه الأمير على ما كان بلغه عنه ثم أمر له بمائة رباعى ، وأخرجه من المدينة لئلا تتغير عليه نفسه بعد العفو ، فيأخذه بالعقوبة [٢] .

واتصل بثقة الدولة شاعر مهاجر آخر اسمه محمد بن عبدون السوسى ويصفه

---

(١) ابن خلكان ٣ : ١٨٣ — ١٨٥ والمكتبة : ٦٣٤ — ٦٤١ .

(٢) ابن خلكان ٣ : ١٨٢ والمكتبة : ٦٣٢ — ٦٣٤ .

ابن رشيق بأنه شاعر وطيء الكلام ، كلف بعذوبة اللفظ والتوصل إلى المعنى البعيد بلطافة وسكون جأش ، لا يكاد يلغو بالشعر إلا إذا قال . ولما وفد على ثقة الدولة وامتدحه أضافه الأمير إلى ولده جعفر فأدناه وقربه ، حتى كان من أكرم الناس عنده . وظل ابن عبدون فى صقلية حتى هزه الحنين إلى وطنه ، فرفع إلى جعفر قصيدة يتشوق فيها إلى أهله وأحبابه ومعاهده ويقول فيها (١) :

بالله يا جبل المعسكر دع ريح الجنوب ترق أو تسر
كيما أسائلهـــا فتخـــبرنى ما يفعل الجيران بالقصر

فلما سمعها جعفر ازداد به تعلقاً واشتد حرصه على استبقائه عنده حتى ضاق الشاعر بين منع وحنين ، وكتب إلى ثقة الدولة يرجوه أن يسرحه ويمدحه بقصيدة مطلعها :

يا قصر طارق حي فيك مأسور شوق طليق وخطوى عنك مأسور

ثم عاد يلجأ إلى جعفر ، ويستأذنه فى الرجوع إلى وطنه ، فعتب عليه جعفر وحجبه ، حتى عز وصوله إليه ، وأخيراً تحين الشاعر الفرصة وكتب أبياتاً يتشفع فيها لدى جعفر ، يقول فيها إنه أصبح عاجزاً عن لقائه وأنه رأى القمر فقام مسلماً عليه ، مظهراً الخضوع لديه ثم يسأل القمر هذا أن يكون شفيعاً له عند شبيهه ابن يوسف ، ويذكره بحق شاعر ساءت حاله بعد ما التهبت فى صدره نار الحنين . ولقى جعفراً فى بستان يتنزه ، فقدم إليه الرقعة ، فلما قرأها طرب لها وأمر له بمال كثير (٢) .

وفى تمسك الأمير بابن عبدون السوسى ما يدل على حرص صاحب صقلية على شاعر يشيع فضائله ويتحدث عنه ويميل إليه القلوب فهل فى هذا

---

(١) تجد من هذه القصيدة الجميلة أبياتاً كثيرة فى تذكرة ابن العديم ، وانظر ترجمة الشاعر فى مسالك الأبصار ١١ مجلد ٢ : ٣٤٧ .

(٢) رحلة التيجانى فى المكتبة : ٣٧٩ .والنقل عن ابن رشيق ولعله من الأنموذج وانظر ترجمة السوسى فى المسالك ١١/١ : ٣٣٠ .

إشارة إلى حاجة صقلية للشاعر القدير وعدم توفره بين أبنائها ؟ ربما استطعنا الإجابة على هذا السؤال لو كان لدينا من شعر ابن عبدون ومدائحه فى بنى أبى الحسين ، مايمكننا من الحكم على إجادته ، بالنسبة للشعراء الصقليين أنفسهم ، على أن صقلية فى زمن ثقة الدولة وابنه جعفر بلغت أقصى النشاط فى الشعر ، وتوفر لها عدد كبير من الشعراء .

هذا نوع من المهاجرين . وهناك آخرون دخلوا صقلية فراراً بأرواحهم من أزمات حاقت بهم فى أوطانهم . وأخص بالذكر حادثتين : هجرة سنة ٣٩٥ عند ما حدثت مجاعة بإفريقية اضطرت كثيراً من أهلها إلى اللحاق بصقلية ، وهجرة سنة ٤٥٦ عند خراب القيروان على يد العرب . ومن أشهر مهاجرى هذه الفترة ابن رشيق القيروانى صاحب العمدة والأنموذج ، وقد استقر بمدينة مازر ، ومنهم محمد بن حسين بن جبارة الفارسى [١] ، والحلوانى [٢] ، وعبدالحليم الصقلى .

وإنا لندرك أثر ابن رشيق فى صقلية من حقيقتين الأولى أنه درس كتاب العمدة بمدينة مازر والتف حوله جماعة من أهل الأدب والدارسين ، والثانية أن ابن رشيق كان قبلة أنظار بعض الصقليين فى اتجاهه الأدبى والنقدى ، وكان أصدقاؤه بصقلية على اتصال دائم به [٣] ويصرح أحد المعجبين به قائلاً : "كنت ساكناً بصقلية وأشعار ابن رشيق ترد على فكنت أتمنى لقاءه حتى قدم الروم علينا ، فخرجت فاراً بمهجتى تاركاً لكل ما ملكت يدى وقلت : أجتمع بأبى على ، فبرقة شمائله ، وطيب مشاهدته ، سيذهب عنى بعض ما أجد من الحزن على مفارقة الأهل والوطن " [٤] .

ويمثل عبد الحليم الصقلى نوعاً ثالثاً من المهاجرين وهم الذين كانت صقلية مهوى أفئدتهم ، يحبونها للثراء والجمال معاً ، ويعشقونها أملاً حبيباً ، ويجدون لاسمها

---

(١) انظر ترجمة ابن جبارة فى المسالك ١١/٢ : ٢٩٩ وفيه أنه أوطن صقلية ثم عمد على الخلاص إلى وطنه .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ٤/١ : ٢١٩ — ٢٣١ .

(٣) انظر الترجمة رقم ١٨ ، ٢٠ من مجموعة الشعر الصقلى .

(٤) ابن ظافر : بدائع البدائه على هامش معاهد التنصيص ٢ : ٣٦ .

فى آذانهم رنيناً عذباً ، وقد عبر عبد الحليم عن هذا الظمأ إلى الجزيرة بقوله :

عشقتُ صقليةَ يافعــاً وكانتْ كبعض جنان الخلود
فما قدرَ الوَصْلُ حتى اكتهلتُ وصارتْ جهنمَ ذاتَ الوقود

وفى هذه النغمة المتألمة نحس بحقيقة ما كان يشعر به عبد الحليم من عشق — عشق اليافع الذى مضى به العمر وهو ظامىء فلما قدر له اللقاء وجد الحبيبة قد حالت عن عهدها ، ولقيت آماله بضدها . فما استطاع عبد الحليم أن ينال أمنيته إلا حين أصبحت صقلية جهنماً بالفتنة ، ومثل عبد الحليم شعراء آخرون كانت تدفعهم بوهيمية الآمال إلى صقلية فيخرجون أثر حبيب هاجر إليها قبلهم [١] أو يلقيهم على ساحلها شوقهم إلى حياة الحانات ودور الرقص والغناء . ولم يكد عبد الحليم يحل صقلية حتى وجدها بركاناً تقذف بالحمم ، فلجأ إلى ساحة ابن منكود ، حيث لجأ ابن رشيق قبله وذهب يسخر أصالته الفنية الجميلة فى المدح حتى استفرغ فيه جهده ، وشعر هو بأنه قد زاد فى النزع عن تلك القوس — فى مدح ابن منكود — فقال معتذراً عن نفسه [٢] .

يقولون كــثّر عبد الحلــيم فإلاّ اقتصاداً وإلا اقتصارا
وفضلُ أبى القاسم المجْتَــبى كفانى احْتجاجاً لهمْ واعتذارا
تغارُ العلا لابن منــكودها فلا تقبلُ المدْح فيه اختصارا

لقد أحب عبد الحليم صقلية فلم يستطع أن يفارقها حين غزاها النورمان ، ودالت دولة ابن منكود ممدوحه ، وانتقل من بعد إلى بارم وعاش فى كنف رجار ، ولكنا لا نسمع بعد ذلك شيئاً عن حياته [٣] .

* * *

(١) من هؤلاء عمر بن معمر الفارسى ، انظر تذكرة ابن العديم ، الورقة ٣٨٢ نقلا عن الأنموذج لابن رشيق .

(٢) معجم السلفى ، الورقة : ١٧٥ والترجمة رقم : ٦ من مجموعة الشعر .

(٣) رجح أمارى أن عبد الحليم من شعراء عصر غليالم الأول وأنه حضر الفتنة التى قتل فيها المسلمون سنة ٥٥٠ ، ولكن مدحه لابن منكود يؤيدما أذهب إليه ، إلا أن يكون هناك خطأ وقرأ فى المخطوطات ابن حمود مكان ابن منكود ، فيكون فرض أمارى صحيحاً .

تلك هي صورة الشعر فى صقلية حين نذكر موقعها الجغرافى ، فنجد حركة دائبة ، منها وإليها ، كحركة الموج أو المدّ فى اندفاعه وتراجعه . أما حين تتمثل لنا طبيعتها الجغرافية فى خصبها وتنوع أزهارها وكثرة بساتينها ومياهها ، ونضارة الطبيعة فيها ، فإنه يخيل إلينا — بادى الرأى — أن خير ما أنتجته صقلية من شعر إنما كان يدور فى فلك الجمال الطبيعى ، ويهيم بمحاسن الريف ، ويتغنى بمناظر القطاف ومواسم الحصاد والينابيع والجداول المتدفقة ، وأسراب الطيور وهدوء الحياة الرعوية . ولكن الأمر على غير ذلك . فإن الشاعر فى صقلية هو ابن بلرم — وقلبه عالق بحاناتها وأسواقها ، معقود ببركة القصر ، مثلما هو معقود بعطايا الأمير ، مستمتع بنعومة السجاد ، مذهول أمام روعة المبانى . ولا تعطفه على الريف عاطفة إنسانية ، أو قلب يحن إلى مناظره الجميلة ، وليست لديه روح الصوفى الذى يرى الجمال الإلهى كامناً فى النملة والصخرة والعشب . حتى ابن حمديس ابن صقلية الباكى على مجدها لا يذكر منها إلا الدار والدير والكأس والساقية الفاتنة ، وينسى الجو الجميل الذى كان يضم هؤلاء جميعاً . ولا نجد فى شعره إلا نغمات قليلة تمتزج بأنفاس العطر الطبيعى فى حياة وطنه كقوله [1] :

ويا ريحُ إما مرَرت الحيـــا ... وروّيت منه الربوعَ الظماءَ

فسوقى إلىّ جهَام السحاب ... لأملأهنّ من الدمـــع ماءَ

وسقى بـــكائىَ ربعَ الصبـــا ... فما زالَ فى المحل يسقى البـــكاء

ولا تُعطشِى طلـــلاً بالحمى ... تدَانى على مزْنة أو تناءَى

وإن تجهليه فعيدانـــهُ ... لظى الشمس يلذَعُ منها الكباء

ولذلك فإن الأمكنة الجميلة التى يتغنى بها شعراء صقلية قليلة . ولعلّ من أكثرها تردداً فى شعرهم « المعسكر » فى بلرم ، وكان مجالاً للذين يفرّون من صخب الحياة فى المدينة ، وهو موضع اشتهر بكثرة العيون ، كعين الغربال وعين

---

(١) الديوان : القصيدة رقم : ٢ .

التسع وعين أبي سعيد وعين أبي على [١] وتدل الأوصاف التي أسبغها عليه الشعراء أنه كان حافلاً بالأشجار والأزهار ، ويقول فيه ابن الأضبطي الكاتب [٢] :

أنا فى المعسكر مفردٌ فى جحفَل — من نَوْحِ قُمرى ورنّة بلبل
فكأنما يلقى علىّ بصوتــه — نغمات معبدَ فى الثقيل الأول

ويقول فيه الحسن بن أحمد الكاتب [٣] :

انظر إلى وَرْد المعسكر قد كسا — أشجارَهُ نوراً يخيل نارا
جادَ الربيع لنا به فــكأنما — سلبَ الخدودَ وألبس الأشجارا

وقد أوحت كلمة « المعسكر » إلى الشعراء فكرة الجحفل ، والمواكب ، وأنواع الأسلحة ولذلك نسمع أبا عبد الله الحسن ابن أبي على القار يقول فى وصفه [٤] :

أرى المعسكر قد صُفت مواكبه — فجمعتْ كلّ أمحالِ تحاربه
قضبانها الملدُ أرْماحٌ أسنتها — ثمارُها ، وسواقيها قواضبــه

وجلس ثقة الدولة مرة وسط أرض ناضرة ومعه الحسن بن محمد الطوبى الكاتب فسأله أن يصنع فيها شعراً فقال بديهاً [٥] :

روضٌ يحار الطّرف فى زهراته — ويهيّجُ المشتاقَ من زهراته
يبدى بأصفره بوادىَ عاشق — ويُرى بأحمره لظى زفراته

ويقول آخر واصفاً بركة ماء [٦] :

---

(١) ابن حوقل ١ : ١٢٣ .
(٢) المختصر ، الورقة : ٩٩ .
(٣) المختصر ، الورقة : ١٠٤ .
(٤) المختصر ، الورقة ١٠٥ والترجمة ٨٧ من المجموعة .
(٥) المختصر ١٠٣ والترجمة ٧٩ من المجموعة .
(٦) المختصر : ١٠٤ والترجمة ٨٢ من المجموعة .

بركة للمـــاء تطـــردُ للصبا فى متنها زَرَدُ
بات فى أحشائهـــا قمرٌ مثلُ قلب الصبّ يرْتعدُ

ومن الأماكن الأخرى مكان سماه أبو القاسم الكلبى « البروج » وقال فيه[1] :

ألا رُبّ يوم لنا بالبروج بخيْلِ الضّياء جواد القِطَار
كأن الشّقيقَ بها وجنةٌ بآخرها مقلةٌ من عِــذار
كأنّ البنفسجَ فى لونـــه اخـ ـتلاطُ الظلام بضوء النّهار
وسوسنها مثلُ بِيضِ القباب بأوساطها عُمـــد من نضار

وأبو القاسم الكلبى ، صاحب هذه القطعة ، من أكثر الشعراء التفاتاً إلى الطبيعة ، وطريقته فى الوصف قائمة على محاولة التشبيه فى كل بيت ، وهى طريقة ابن حمديس نفسه . وهذه القطعة وما سبقها تدل على مدى الضعف فى شعر الطبيعة عند شعراء صقلية . وليس فى الإكثار من الأمثلة كبير غناء .

الحقيقة الثانية : الأجناس التى أنتجت الشعر الصقلى :

يتبين لنا مما سبق أن الذين أنتجوا الشعر الصقلى ينقسمون حسب الاستقرار فى ثلاث فئات (ا) صقليين أصلاً أو ولادة عاشوا أكثر حياتهم فى الجزيرة (ب) صقليين هاجروا صغاراً وبقيت النسبة عالقة بهم . (حـ) مهاجرين وفدوا على صقلية وتفاوتت فيها إقامتهم ، ولا شأن لنا بالفئتين الثانية والثالثة وإنما نوجه اهتمامنا إلى الفئة الأولى . ومن الصعب أن نتلمس فى هذه الفئة شاعراً صقليا من تلك العناصر الأصلية كالإغريق والطليان فأكثر الشعراء الذين وصلتنا أسماؤهم من أبناء العناصر التى هاجرت مع الفتح إلى صقلية واتخذتها دار إقامة . وأول حقيقة هامة فى هذه العناصر أنها إفريقية ، وأن حظها من التميز الأدبى كان ضئيلاً يقول ابن خلدون فى أهل المغرب : " وكذلك أشعارهم ، كانت بعيدة عن الملكة ، نازلة عن الطبقة ، ولم تزل كذلك لهذا العهد ، ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير

---

(١) المختصر : ٩٧ والترجمة : ٦٦ وليس من المقطوع به أن « البروج » فى صقلية .

الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف وأكثر ما يكون الشعراء فيها طارئين عليها » (١)
زدْ على ذلك أن أكثر الذين شاركوا فى الفتح إنما كانوا من الجماعات العسكرية أو من أهل التجارة والصناعة . وأننا حين درسنا حياتهم الثقافية وجدنا الاتجاه إلى الفقه من بعد أغلب عليهم من أية دراسة أخرى . وكان هذا الفقه هو طابعهم القوىّ الذى يريدون أن يطبعوه على بيئة مسيحية ، كما كان فيما بينهم مقياساً لصحة التعامل المادىّ ، فى باب التجارة والصناعة والزراعة ، وهو فى الوقت نفسه النواة التى تقوم حولها فكرة الجهاد فى حياتهم العسكرية . نعم إن الفتح قد حوّل كثيراً من السكان الأصليين إلى الإسلام ، ولكنّ أكثر هؤلاء كانوا من العبيد ، وقد كانت الملكة فيهم مقتولةً بطول الاستعباد ، ولا شك فى أن حالهم تحسن بعد الفتح ، ولكن المهاجرين كانوا ينظرون إليهم أيضاً نظرة من علٍ ، ويحتقرونهم كما احتقرهم ابن حوقل الذى سماهم " العجم الغتم الصم البكم " ويصورهم ابن الصباغ فى رسالة له بصورة الوحوش الضارية التى يتأذى منها أصحاب الأملاك وأهل الثراء . فأرضُ ابن الصباغ "بين قوم يأكلون الشجر قبل الثمر، ويرعون الأبّ قبل الحب ، وما آمن مع ما أحدقت به من الأسوار ، وخرجت فى النفقة عن المقدار ، أن يوجفوا إليها بالجوالق ، وينقضوا فيها كالسواذق ، كما يفعلون فى بستان فلان الذى أنفق فيه عمره وماله ، وصرف إليه همّه واهتباله ، فهو فى الشتاء من علوج الزبر والحفر ، وأصحاب الغرس والبذر ، فإذا بلغت ثمرته ووجبت غلته ، حام عليه بنو حام ، ولم يمتنع منهم بحارس ولا حام ، وأحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها" (٢)
وقد أخذ الإفريقيون المهاجرون منذ البدء يحسون بأنهم متميزون عن السكان الأصليين ، وهذا هو ما عنته صيحة أسد بن الفرات فى جيشه حين قال يحمسهم : «هؤلاء عجم الساحل ، هؤلاء عبيدكم لا تهابوهم » (٣) . ومع الزمن أصبح هناك

---

(١) المقدمة : ٥٦٥ ط . بيروت .
(٢) ابن بسام : الذخيرة ٤ / ٢ : ١٧ — ١٨ .
(٣) رياض النفوس فى المكتبة : ١٨٤ .

عنصران متباينان : عنصر صقلى وعنصر إفريقى وهذه التفرقة مبنية فى الأصل على أساس عسكرى ، ولكنها كانت تشمل نواحى أخرى من الحياة الاجتماعية . فالصقليون لم يكونوا أصحاب هذا الشعر وإنما كان أصحابه هم الأفريقيين من عرب وبربر .

وأكثر الشعراء إذا اعتبرنا نسبتهم ، ينتسبون إلى يمن ففيهم الكلبى والمعافرى واللخمى والأنصارى والزبيدى والأزدى . وهناك شعراء من قبائل أخرى كالتغلبى والتميمى والسعدى والهاشمى والربعى ، وشعراء من بربر كاللواتى والقرقودى والمكلاتى و جماعات تنسب إلى مواطنها كالشامى ، وإفريقيون لا تعرف نسبتهم إلى عرب أو بربر كالطوبى نسبة إلى قصر الطوب بإفريقية والودّانى نسبة إلى مدينة ودّان .

وبعد أن تمّ شىء من الامتزاج بين الأجناس ، وشعر المهاجرون بأن صقلية هى وطنهم ، نشأ جيل من الناس ينتسب إليها ويشعر بالرابطة العاطفية بينه وبينها وعندئذ يلتقينا شعراء ينتسبون إلى بلدان صقلية نفسها ، وأخذت النسبة القبلية تقلّ ، وتحلّ محلها النسبة البلدانية فهناك الطرابنشى والصقلى (البلرمى) والبثيرى والسرقوسى والبلنوبى والسمنطارى .

وفى بلرم ملتقى العناصر من نواحى العالم القديم كله ، نشأت أقوى حركة أدبية عرفتها الجزيرة ، ويبدو أن العناصر العربية — الإفريقية — هى التى تمت على يديها تلك النهضة ، لأننا إذا نظرنا إلى بلد آخر مثل جرجنت ، مجتمع الجماهير البربرية ، فإننا لا نسمع عن شعراء ينسبون إليها .

ولم تنصهر هذه الأجناس المختلفة بحيث تنسى عصبياتها القبلية ، ولذلك مثل الشعر هذه الروح القبلية فى بعض جوانبه ، وإن لم تكن الخصومات بين القبائل عنيفة مثلما كانت بالأندلس . وتتجلى هذه الروح فى شعر أمراء بلرم من الكلبيين ، وتمتزج بنزعة أرستقراطية ، تتسلل إلى موضوعات الفخر والغزل . فمن الفخر قول الأمير عمار بن المنصور الكلبى (١) :

---

(١) الترجمة ٣٧ ، ١٠٥٠ من مجموعة الشعر الصقلى .

تقولُ لقد رأيتُ رجالَ نجد   وما أبصرتُ مثلكَ من يمان
ألفتَ وقائعَ الغمرات حتى   كأنك والوقائـع توأمـان
وتقتحم الحروبَ رخىّ بال   كأنك من ردَاها فى أمان
إلى كم ذا الهجوم على المنايا   وكم هذا التعرضُ للطعـان
فقلت لها لكل الناس عذْرٌ   ولا عذْرٌ لـكلبي جبـان

ومن أمثلة هذه الروح الأرستقراطية فى الغزل قول الأمير مستخلص الدولة وهو من الكلبيين :

قلتُ يوماً لها وقد أحرجتنى   قولةً ما قدَرْتُ أنفك عنهـا
أشتهى لو ملكتُ أمرك حتى   آمرَ الآن فيك قهراً وأنهى
فبكت ثم أعرَضَتْ ثم قالت   خنتنى فى محبة لم أخنهـا

وليس فى هذا الشعر الصقلى فخر بالأجناس عامة ، ليس فيه شعر يمجد العرب أو البربر وإنما فيه اعتزاز بالقبيلة ، فالكلبي يفتخر بكلبيته ، والقيسى بأن قومه غلبوا قيصر وفتكوا بحمير[1] حتى الفقهاء يفتخرون بقبائلهم ، وهم أحق بالتخلى عن روح العصبية . من ذلك قول الفقيه عمر بن مازوز اللواتى يفتخر بقبيلته لواتة[2] :

لمن تعزى المـكارمُ والأيادى   وردّ الخيل ذاهبةَ الهوادى
سوى قومى الذين سمَتْ نفوسٌ   بهم شرفاً إلى السبع الشداد

الحقيقة الثالثة : الفترة التى نما فيها الشعر الصقلى :

وتمتد هذه الفترة من ٢١٢ هـ إلى ٤٦٤ هـ وهى ليست طويلة فى حياة الإنتاج الفنى والعلمى . وفيها ضروب من القلاقل الداخلية وفيها إلى ذلك جهاد طويل مرير . وقد يكون هذا النوع من الحياة مهيئاً لنمو الشعر واكتماله ، ولكننا إذا

(١) الترجمة رقم ٢٠ من مجموعة الشعر .
(٢) الترجمة رقم ٩٣ والعيد المئوى ١ : ٣٧٦ .

تذكرنا طبيعة الجماعات المهاجرة المستقرة ، وطبيعة الاتجاهات المدرسية فيها ، لا نعجب إذا لم نجد هذه الحياة غنية بالأدب الجميل . وقد كان من الضرورى قيام شعور وطنى يربط الناس بهذه الأرض التى عاشوا فيها ليساعد ذلك على اشتداد ساق الأدب ؛ وهذا لا يتم إلا بعد أن يولد جيل جديد على أرض صقلية ويحس بأنها هى ، لا إفريقية ، المكان الذى يقاتل عنه ويعيش من أجله ، فأما المهاجرون الأوائل فإنهم يرون فى صقلية رباطاً كبيراً يشنون منه الغارة لحماية الحدود الإفريقية وإعلاء شأن الدين .

ولا نسمع شعراً صقليا فى مدة خمسة وثمانين عاماً طواها بنو الأغلب فى فتح الجزيرة وحكمها . وهذا شىء مستغرب وإن كان تعليله سهلاً . وإذا وجد شعراء فى هذه الفترة فإنهم إفريقيون يوجه عواطفهم معنى الغربة أولاً ، وطبيعة الجهاد ثانياً : أما الغربة فلا بد أنها بعثت فى نفوسهم الحنين إلى مواطنهم الأولى ، وتمثل هذا الحنين فى قصائد ورسائل شعرية بعثوا بها إلى أهلهم وأصدقائهم فى الوطن ، وأما الجهاد فلا بد أنه أذكى روح الحماسة من ناحية وروح الحزن على من أكلتهم الحرب من ناحية ثانية . ولا يمكننا القول بخلو صقلية من كل شعر ، فذلك مناف لطبيعة الأشياء فى حياة الناس .

ولدينا من أمثلة هذا الشعر قصيدة لأسير أغلبى اسمه مجبر بن إبراهيم بن سفيان ، ومطلعها[1] :

ألا ليت شعرى ما الذى فعل الدهر بإخواننـــا يا قيروان ويا قصر

وهذا الشاعر يتأسى فى قصيدته بأن الفرج إنما يجىء بعد الشدة ، أليس يوسف قد نجا من الجب ، وأيوب زال عنه الضر ، وإبراهيم خلص من النار ؟ إن الله قد نجى هؤلاء ، وهو قادر على أن يخلص أهل الأسر من ربقة إسارهم .

وأقدم الشعر الصقلى الذى وصلنا يعود إلى العصر الكلبى ، وأول شعر نستطيع تأريخه وصلنا فى أيام ولاية أبى القاسم الملقب بالشهيد (٣٥٩ — ٣٧٢) . ومن

---

(١) الحلة السيراء فى المكتبة : ٣٢٩ .

هذا التاريخ يبدأ استقلال صقلية السياسى ، وفيه يبدأ الشعر الصقلى حياته الصحيحة ، وقد كان أبو القاسم يعيش حياة مثالية إذ قضى عمره فى الجهاد بقلورية (كالابريا) وصدفت نفسه عن متاع الدنيا فأوقف كل ما يملك على فقراء شعبه . وبحق لقب بالشهيد لما قتل فى غزاته الخامسة ، وكانت له فى نفوس أعدائه صورة مهيبة لرجل يزن كلامه ويحكم أجوبته [١] وربما كانت هذه السيرة الفاضلة ذات أثر فى استقلال الشعر بحدود صقلية وعدم انسياحه بالعواطف إلى ما وراءها . ومع ذلك فإن الشعر الذى وصلنا يتحدث عن صمصام الدولة ويشيد ببطولته وشجاعته ، ويكاد ينسى أبا القاسم إلا قليلاً .

وفى الطبقة الأولى من شعراء هذه الفترة على بن الحسن بن أبى سعيد القاضى وسهل بن مهران مادح أبى القاسم وهو يوصف بأنه من المطيلين المحسنين والمداح المجيدين [٢] وأبو إسحاق إبراهيم بن مالك المعافرىّ القاضى .

فإذا بلغنا عهد الأمير يوسف ثقة الدولة وجدنا صقلية قد أصبحت حافلة بالشعراء من أهلها والطارئين عليها . فمن أهلها محمد بن أحمد أبو عبد الله الصقلى صاحب ديوان الإنشاء بصقلية ، وهو الذى رثى ثقة الدولة بقصيدة مطلعها [٣] :

حنانيك ما حىّ على الدهر يسلم

ومنهم الحسن بن محمد الطوبى الذى كان ملازماً لثقة الدولة [٤] ، ومحمد بن الحسين بن القرقودى [٥] والمشرف بن راشد [٦] .

وبعد ثقة الدولة نلتقى بتلك الأسماء الكثيرة ، وهى أسماء الشعراء الذين عاشوا

---

(١) انظر موقفه من الراهب نيلو الذى بعث فى فكاك ثلاثة من الرهبان كانوا ببلرم (أمارى ٢/٢ : ٣٧٥) .

(٢) مختصر الدرة : ٩٩ .

(٣) القفطى : المحمدون : ٢٠ .

(٤) المختصر : ١٠٣ .

(٥) الخريدة ١١ : ٣٩ وما بعدها .

(٦) المصدر نفسه ، الورقة ٣٧ وما بعدها .

بين ٣٩٠ ــ ٤٦٠ وهم أكثر من ذكرهم ابن القطاع فى الدرة الخطيرة : عندئذ نجد ثلاثة من أبناء الطوبى واثنين من أبناء الرقبانى وثلاثة من بنى الشامى ، كما نجد ابن الصباغ والودّانى وابن الخياط وابن مكى صاحب تثقيف اللسان وسليمان الصقلى وميمونا الوراق ومحمد بن قاسم بن زيد القاضى وابن الفقيه الكلاعى وابن الكمونى وأبا العرب الصقلى وابن حمديس وغيرهم كثيرين .

ويلتف الشعراء فى آخر عهد الكلبيين حول أعظم شخصيتين بصقلية وهما الوالى ــ وكان حينئذ صمصام الدولة ــ وصاحب الخمس وكان يومئذ إبراهيم بن محمد الشامى[١] ومن شعراء الصمصام : ابن الخياط وابن الرقبانى والمشرف بن راشد . ومن مدّاح صاحب الخمس المذكور : ابن الصباغ والمشرف بن راشد والحلوانى .

فإذا تمثلنا الشعر الصقلى نامياً فى تلك الفترة التى حددناها ، وجدنا أن موعد إثماره إنما تمّ فى نهاية القرن الرابع وأوائل الخامس ، وكان مما ساعد على ذلك ، الاستقلال السياسى والهدوء النسبى فى حياة البلاد ، وتمثل صقلية للمؤثرات المشرقية ، والدراسات العلمية والفلسفية بعد أن ظلت عهداً طويلاً تعيش على الفقه والحديث . ومع هذا النمو نلمح شيئاً من يقظة أبنائها على الرابطة الوطنية . فقد اتضح مع تبلور الشعر الصقلى شعور الناس « بالجزيرة » وتجسد معناها فى نفوسهم . ويكفى الشاعر أن يقول « رعى الله أكناف الجزيرة » أو أن يمدح صاحب الخمس بقوله : شيخ القبيلة فى الجزيرة [٢]، فيفهم الناس ما يعنى ويتمثلون لهذه الجزيرة صورة واضحة فى نفوسهم ؛ وإنما جاء ذلك الشعور من سيطرة الاستقلال والوحدة السياسية على نفوس الناس .

وبدأت الأثمار الأدبية تتكور على تلك الشجرة التى طال عليها الأجل حتى ترعرعت ، وقبل أن ينضج الثمر جاء الفتح النورمانى يسقطه ويبدده ؛ وفى لحظة من لحظات الفزع ، هرع الشعراء والعلماء يلوذون بأذيال الفرار ، ويفارقون الجزيرة كأنها لم تكن ذات يوم وطناً حبيباً .

---

(١) ورد اسمه فى الذخيرة ٤/١ : ٢٢٤ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم وصوابه ابراهيم بن محمد .
(٢) الذخيرة ٤/١ : ٢٢٤ ــ ٢٢٨ .

الحقيقة الرابعة : الفتنة الأخيرة وأثرها فى الشعر :

وأعنى بها الفتنة التى أسقطت بنى أبى الحسين الكلبيين ، وقسمت صقلية إلى دويلات صغيرة ، وجعلت فى كل مدينة أميراً ، كما حدث فى الأندلس بعد ذهاب العامريين ، وانقسام مدنها بين ملوك الطوائف ، وهى الفتنة التى جرّت من بعد إلى الفتح النورمانى ، وإلى فقدان الجزيرة وضياع الوطن .

وأول شىء فعلته تلك الفتنة أنها مزقت الشعراء بعد أن كانوا يلتفون حول وال واحد ، فاختص ابن الخياط بابن الثمنة يمدحه ويشيد بانتصاراته ، وذهب محمد ابن قاسم بن زيد القاضى يمدح علىّ بن نعمة المعروف بابن الحوّاس ، والتفّ حول ابن منكود بمازر جماعة من الشعراء الصقليين والطارئين وفيهم عبد الحليم الصقلى وابن رشيق . ولما استدعى الصقليون المعزّ بن باديس ليدخل الجزيرة — كما استدعى الأندلسيون يوسف بن تاشفين — انحاز إلى المنقذ الجديد جماعة من الشعراء منهم ابن الفقيه الكلاعى .

وكان حرياً بهذا الانقسام أن يجعل الشعر خصباً كثيراً ، وأن يهىء للإجادة بما يبعث من منافسة ، كما حدث فى الأندلس أيضاً أيام ملوك الطوائف ولكن حال دون ذلك أسباب منها : قصر الفترة التى عاشتها صقلية تحت حكم أمراء الطوائف — أو القواد المستقلين — ولم يجدّ على صقلية فى هذه الفترة شىء جديد ، فالشعراء هم الشعراء ، وكل ما حدث أن القواد توزعوهم فيما بينهم .

وقد عملت الفتنة شيئين فى آن : أسقطت البيت الكلبى وحملتهم على مغادرة الجزيرة ، وجاءت بحكام جدد ، فقسمت الشعراء أيضاً فريقين : فريق ذهب يبكى بنى أبى الحسين ، ويعدد فضائلهم ، وفريق آخر يرحب بالمنقذين وفى طليعته ابن الفقيه الكلاعى الذى رفع عقيرته يقول [١] :

الله أكبر أودى الجور وانقشعت سحب النفاق وزال الحادث النكر

---

(١) الترجمة رقم ١٤٣ عن المحمدين ، الورقة ، ٢٠ .

وتلك الفتنة هي التي جعلت الشاعر يقف موقف الحكيم الذى يحس ، ببعد نظره ، ما تنطوى عليه من نتائج سيئة ، فهو يحذر منها ويدعو قومه إلى الائتلاف. وفى ذلك التحذير امتداد لما قلته عن تجسم الجزيرة بحدودها الجغرافية والسياسية فى النفوس ، وفيه روح من الحرص على مستقبل تلك « الجزيرة » التى لها أبناء يحبونها ، لا مهاجرون يرون فيها مكاناً سخياً بالسمن والعسل . غير أن هذه الروح لم تلبث أن خفتت حين أصبح الانقسام حقيقة واقعة وغلب على نفوس أصحابها حب البقاء ، فآثروا الانضمام إلى هذه الفئة أو تلك ، واستسلموا لحكم المقادير .

ثم كانت الفتنة سبباً فى ضياع الوطن وزوال السيادة الإسلامية عنه ؛ فأى شيء أحدثه ذلك المصاب الكبير فى نفوس الشعراء ؟ إننا إذا استثنينا تلك الدموع الصادقة التى ذرفها ابن حمديس على وطنه لم نجد لضياع ذلك الوطن أثراً عميقاً فى النفوس الصقلية ، فلم يكن تجسد « الجزيرة » واضحاً مكتملاً ، هذا مع أن القيروان حين سقطت ، وجدت الشعر يخلد مأساتها ويحكى حالها بعاطفة صادقة ، أما حين سقطت صقلية فلم تجد إلا شاعرها الشاب ابن حمديس . ومن أهم العوامل التى أضعفت التجاوب بين الصقليين ونكبتهم فى وطنهم نظرتهم إلى المأساة عن طريق الاستسلام ، واعتقادهم أنه لم يصبهم إلا ما كتب الله لهم ، وهذه نظرة تؤسى الجازع ، فيستشعر قلة الجدوى فى الحزن والبكاء ويحمل نفسه على الأخذ بفلسفة الصبر . وثمة عامل آخر لعله أقوى من سابقه وهو تعليل النوازل التى تحل بالناس على أساس الخطيئة ، فقد أخطأت صقلية فلتذق جزاء ما اقترفت من ذنوب ؛ وليس ما أصابها ، وخاصة فى رأى المتدينين ، إلا عقاب من الله صبه عليها ، وهى له مستحقة . ولست أناقش قرب هذا الرأى أو بعده عن الحقيقة ، ولكن الجماعة إذا انتهت إلى هذا التلاوم فى تحديد المسئولية فقدت القدرة على أن تلمس طبيعة المأساة نفسها فى فقد الوطن. وقد عبر أحد الفقهاء الصقليين عن هذا الاتجاه حين ربط بين نهاية صقلية وجحود أهلها للنعمة فى قوله [١] :

---

(١) الترجمة رقم ١٤٧ من المجموعة .

(مدينة) كانت وكنا بها في ظل عيش ناعم رطب
مدّ عليها الأمن أستاره فسار ذكراها مع الركب
لم يشكروا نعمة ما خوّلوا فبدلوا الملح من العذب

ولو خفت صوت هذا التبرير ، لارتفع صوت العاطفة الحزينة على ضياع الوطن . والتبرير نوع من التعزى ، وهو فى الوقت نفسه تهرب من مواجهة الألم ونبعه الحقيقى . أليس أبو العرب الصقلى قد فقد وطنه كما فقده ابن حمديس ؟ فكيف كان وقع الشتات فى نفسه ؟ ذهب يفلسف ذلك التشرد على طريقة التصبر الكاذب ويقول :

إذا كان أصلى من تراب فكلها بلادى وكل العالمين أقاربى

كل تراب بلد ، وكل العالمين أقارب — صلة ميتة ، لم ينفخ فيها التجاوب الشعورى شيئاً من روحه فيجعل منها وطناً .

ومن الطريف أن البارون فون شاك تنبه إلى أن أبا العرب راح يقول عند ما خرج من صقلية « إن وطنه فارقه » — لا أنه فارق وطنه ، وهو ملحظ مبنى على قول الشاعر :

ويا وطنى إن بنت عنى فإننى سأوطن أوكار العتاق النجائب

والشاعر لم يقصد إلى هذا الفهم « الحرفى » ، ولكن التعبير ذو دلالة صادقة على نفسية أبى العرب ، فهو بالهفوات اللسانية أشبه ، وإن كان صحيحاً مقبولاً .

ثم إن سقوط صقلية لم يتخذ فى نفوس الصقليين شكل المأساة بالفتح النورمانى ، لأن النورمان لم يلجئوا الناس إلى فراق دينهم أو إلى الهرب عن أوطانهم بل أبقوهم حيث هم ، واحتفظوا لهم بما كانوا يتمتعون به من حقوق ، ولذلك لم يشعر كثير منهم أن وطنهم ضاع ، كما شعر الأندلسيون . وهذه حقيقة هامة فى فهم الرابطة بينهم وبين وطنهم ، إلا ابن حمديس فإنه بكى ضياع الوطن ، وبكى شبابه فى ذلك الوطن لأنه شهد وقفة بلده أمام الغزاة ،

كما شهد استسلامه . وكان الذين استسلموا من الشعراء لهذا الحادث مشمولين بالروح الدينية أما ابن حمديس فكانت « الوطنية » فى شعره أقوى من التدين . وإذا طلبت الأثر الدينى فى شعره الذى بكى فيه وطنه وجدته يسيراً . وليس فى تلك القصائد شاعر يطلب الرحمة لقومه ، وإنما فيها صورة الوطن بكل ما فيه من جمال ورجولة وذكريات عذاب .

ومجمل القول أننا إذا استثنينا أشعار ابن حمديس العاطفية فى البكاء على وطن ضاع ، وجدنا سائر الشعر المتصل بالفتنة والفتح النورمانى إما ينعى ذهاب مجد بنى أبى الحسين الكلبيين كما فى أشعار ابن الخياط ، أو يلوم الصقليين على تماديهم فى الفتنة ، كما فى شعر أبى محمد القاسم بن عبد الله التميمى فلهذا الشاعر قصيدة من طوال الصقليات ، يؤرخ فيها حال صقلية أيام الفتنة ، واقتتال الصقليين فيما بينهم ، ثم كيف دخل الإفرنج الجزيرة وقاتلوا أهلها وغلبوا عليها ، ومنها مصوّراً حال الفتنة بعد مقدمة غزلية (١) :

سقى الله هيمَ الغرب لا بعض هامه ... كما يمنع الغمضَ السليمُ المنادم
وما كنت أسقى الغرب لو كان لم تكن ... صقلية منه — وإن لام لائم
وإنى لمنهم واحدٌ غير أنه ... وشى بيننا واش من البين غاشم
رزينا بذات البين حتى كأننا ... نرى أن من يبغى سوى البغى آثم
يغير الفتى منا على مال نفسه ... ويقتله عدْواً أخوه الملائم
يجورُ دليلُ القوم عن سبل رشده ... ويمضى على المكروه من هو نادم
نروح ونغدو فى أمور لو أنه ... رأى بعضها ما عاود النومَ حالم
كأن بحاراً بالوغى وكأنما ... معاركنا طول الزمان مواسم
فطوراً نذود الموتَ عنا وتارةً ... نموتُ كما ماتَ الحماةُ الأكارم
فلو كان سلماً ذلك الحرب بيننا ... ثلاثين عاماً ضامناً منه ضائم

ثم يتطرق بعد ذلك إلى وصف هجوم الروم عليهم فيقول :

---

(١) عنوان الأديب ١ : ١٣٦ .

سليى عن الإفرنج إن شئت واسمعى — حديثاً كنشر الرَّوْض والروض ناعم
أتونا ولكن بالدروع أساوراً — ولكن أتينا والسيوفُ عزائم
على كل مشكول الطريد كأنما — قوائمه عند الطراد قوادمُ
إذا ما علا منا على الظهر فارسٌ — فليس بعيداً أن تطير القوائم
سماءٌ وأرضٌ من جناح وحافر — وليل وصبحٌ جحفلٌ وصوارم
فلا دَجنَ إلا أن تثور عجاجة — ولا مزن إلا أن تخر جماجم
كأنهمُ قد أحجموا حين أقدموا — فعادتْ عليهم والأنوف رواغم

والشاعر فى هذه القصيدة ناظر إلى المتنبى فى قصيدته «على قدر أهل العزم تأتى العزائم». وحين ينتهى من الوصف لحال صقلية يملأ قصيدته بالحكم فمن ذلك قوله :

إذا كان لا ينجيكَ أنك هاربٌ — فلم يبقَ حزْمٌ غيرَ أنك هاجم
وقد يجهلُ الإنسانُ فى بعض حلمه — ويحملُ عنك الظلمَ أنك ظالم
وما السيفُ إلا من غرارة حليه — وإن رثّ منه غمدُهُ المتقادم
كأنك فى دنياك ما زلتَ جاهلاً — إذا كنتَ لم ينفعك أنك عالم
فلا تتزوّدْ غير ما أنت واجدٌ — إذا رُحتَ يقظاناً كأنك نائم

الفصل الثانى

الشعر الصقلى بين القوة والضعف
فى العصر الإسلامى

١ ــ الشعر الصقلى والمحاكاة

٢ ــ أثر المدرسة النقدية الإفريقية فيه

٣ ــ قصور الشعر عن تصوير القلق الداخلى بصقلية

٤ ـ الشعر الصقلى بين حياة الزهد وحياة اللهو

٥ ــ الخمر فى الشعر الصقلى

٦ ــ الغزل والغناء

الشعر الصقلى بين القوة والضعف
فى العصر الإسلامى

فى قصر الفترة التى عاشها الشعر بصقلية وفى طبيعة الأجناس التى أنشأته ، وفى ضعف الحدود الوطنية لقطر هو نقطة التقاء المهاجرين من جميع الجهات ، وفى روح الاستسلام التى واجه الشعراء بها ضياع الوطن ، وفى مجىء الفتح النورمانى الذى أفرغ الجزيرة من علمائها وشعرائها ، على أعقاب فتنة وانقسام داخلى — فى كل هذه الحقائق يمكننا أن نتلمس بسهولة جوانب الضعف لا جوانب القوة فى الشعر الصقلى .

ومما زاد فى التقليل من أصالة الشعر الصقلى وصور التجديد فيه ، اعتماده المحاكاة فى جميع خطواته ، وخاصة محاكاة المشارقة ، والمدرسة الإفريقية فى القيروان . أما تأثره بالأندلس فكان أقل من تأثره بإفريقية والمشرق . وقد غذاه المشرق بالدراسات الإسلامية وخاصة فى الفقه واللغة ، فعمق روح المحافظة فيه ، فامتلأ الشعر بالروح المدرسية القائمة على وضع النصائح النظرية والإرشادات الخلقية ، وأصبح الشاعر يملأ شعره باستعارات النحو والفقه ، ويكثر من الألغاز ومن التلاعب اللفظى بالأسماء . والأمثلة على هذا كثيرة ، وأنا أضرب عن إيرادها عامداً ، وقد تغلغل هذا الأثر فى شعر شاعر وافر الحظ من الأصالة كابن حمديس ، وصبغ بعض شعره بصبغة تعليمية ثقيلة . بل إن شدة الاتصال بإفريقية والمشرق حرمت صقلية من التطلع إلى الأندلس . صحيح إن الأندلس استمدت كثيراً من الشرق ولكنها استطاعت أن تتميز بالموشحات والأزجال ، أما صقلية فما نعثر فيها على شىء من هذين الفنين . وقد استقلت الأندلس فى الناحية الغنائية ، وعجزت عن ذلك صقلية فكل أغانيها واردة من المشرق ، وللغناء أثره البعيد فى الشعر ، وعدم استقلال صقلية بأغانيها مكن لها فى المحاكاة ، ووسع لها

من مجالها . وقد حفظ لنا ابن مكى فى تثقيف اللسان أمثلة مما كان يغنى[١]، فمن ذلك قول قيس بن الخطيم :

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب   لعمرة وحشاً غير موقف راكب

وقول الآخر :

ولما نزلنا منزلاً طله النــدى   أنيقاً وبستاناً من النور حاليا
أجد لنا حسن المكان وطيبه   منى فتمنينا فكنت الأمانيا

وقول ابن الرومى :

أضحى ينغصنى النسيم نسيمه   أفلا يهنيــنى النسيم نسيم

وقول ذى الرمة :

أقامت بها حتّى ذوى العود فى الثرى   وساق الثريا فى ملاءته الفجــر

وغير ذلك من أبيات لسحيم وكثير وجرير وجميل .

أما التأثر بإفريقية فربما كان يفوق التأثر بالمشرق ، وفى إفريقية وضعت الأصول المشرقية وضعاً جديداً وتدارسها الناس ، فكان التأثير المشرقى أيضاً يتسرب إلى صقلية من خلال المدرسة الإفريقية التى أنشأها ابن رشيق وابن شرف فى النقد . فعلى أساس من كتب المشارقة فى النقد ظهر كتاب العمدة والأنموذج وقراضة الذهب لابن رشيق، وأعلام الكلام وما أشبهها من الرسائل النقدية لابن شرف . وقد طمس هذان الناقدان جهود من سبقهما ولخصا آراء النقاد الإفريقيين أنفسهم . وأصبحت النظرية النقدية التى يمثلها العمدة مطمح كل شاعر من شعراء القيروان ، وكل شاعر أصبح يحاول أن يحذو حذو أبى تمام فى الاستعارة، أو يكون وصافاً للخمر كأبى نواس أو يدندن بموسيقى البحترى، أو يمسك بريشة ابن المعتز فى التصوير — ذلك هو مقياس الجودة فى كلٍّ من القيروان وصقلية ومن أوضح الأمثلة على ذلك ابن رشيق نفسه وابن حمديس وهما أعظم شاعرين نشآ

---

(١) الباب الأربعون : « باب غلط أهل السماع » .

على طرف البحر الذى يفصل بين إفريقية وصقلية . أما الأول فقد مهر فى استخلاص أجمل المعانى عند غيره وتشكيله بأشكال جديدة (١) وأما ابن حمديس فقد وصف أيضاً بأنه خفىّ الأخذ من غيره (٢) . فاللبنات الأولى فى بناء ابن رشيق وابن حمديس ، مجلوبة من المشرق . بل إن ابن حمديس ليس خفىَ الأخذ دائماً وإنما تظهر على السطح فى شعره معانى أبى نواس وتعبيراته وتراه يعارض امرأ القيس والمعرّى وأبا تمام وينتفض على بعض الصور فى ديوان ذى الرمة ، وعلى بعض الصور الأندلسية ، ولا يتورع عن معارضة مُعاصريه .

وأمر صقلية أضيق صدراً من القيروان لأن صقلية ترى فى القيروان منارة تهتدى بأضوائها . وقد رأينا كيف كان الشعراء ينظرون إلى ابن رشيق . ونحن لا نرى فيما بقى من أشعاره ما يقدّمه على متوسطى الشعراء المشارقة . وابن حمديس أبعد منه حظا فى الشاعرية ، ومع ذلك فإنك تجد ابن حمديس الصقلىّ يتناول شعر ابن رشيق بالمعارضة أو التصرف .

ويستوى تأثير المدرسة الإفريقية فى صقلية والقيروان . فكثير من الشعراء فى القيروان كانوا يترفعون عن الهجاء إما تجنباً للذم أو ذهاباً مع الكبر (٣) ، وهذا ما نجده عند ابن حمديس أيضاً فإنه لم يكن يهجو ، وفى ديوانه عدة قصائد يفتخر فيها بتعاليه عن التورط فى الهجاء . وكان من مذهب الكتاب أن لا يمدحوا ، وهذا قد يعلل انعدام المدح فى شعر أبى عبد الله بن الطوبى وهو من أجلّ كتاب صقلية .

والمدرسة الإفريقية كانت تكره « المحلية » لأنها لا تكفل للشاعر سيرورة شعره فى الأقطار الإسلامية " فليس من أتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من الناس دون طائفة . . . كالذى لفظه سائر فى كل أرض ، معروف بكل مكان " (٤)

---

(١) ابن سناء الملك : فصوص الفصول : ٨٥ .
(٢) الخريدة : ١٢ الورقة ٢٧ وما بعدها .
(٣) العمدة ١ : ٧١ .
(٤) العمدة ١ : ٥٩ .

وتحت هذا المبدأ لا يمكن أن ينشط الزجل ، ولا يمكن للنقاد ومؤرخي الأدب أن يرعوه ويتعهدوه بالتسجيل ، إن وجد ، وإلى حدّ ما تمتاز الأندلس على إفريقية وصقلية فى هذه الناحية .

ولتلك المدرسة كثير من الحسنات فمن ذلك تفرقتها بين الذوق الحضرى والبدوى ، وإقرارهابتأثير البيئة أو ما يسمى اختلاف المقامات والأزمنة والبلاد . ولكنها من ناحية أخرى خضعت خضوعاً تاماً للقواعد الكلاسيكية حتى فى طريقة الخلق : كيف ننظم ؟ ومتى ننظم ؟ وماذا نأكل ونشرب ليعتدل المزاج ونصبح قادرين على النظم ؟ وكانت تغلو فى تطبيق المبادىء المشرقية فإذا أقر المشرقيون تشبيه واحد بثلاثة زاد المغاربة على ذلك ، فوجدوا تشبيهه بأربعة أوقع وأحسن ، ولذلك فإنهم حينما وصلهم قول البحترى (١) :

كأنما يبسم عن لؤلــؤ منظم أو برد أو أقــاحْ

جعلوه :

كأنمـــا يبسم عن لؤلؤ أو فضة أو برد أو أقاح

وليست صورة الضعف فى الشعر الصقلى محدودة بالتقليد لنماذج المشرق والقيروان ، بل تتمثل فى نواح أخرى منه ، فنحن نفقد فى ذلك الشعر صورة للصراع بين المذاهب الإسلامية ، مع العلم بأن صقلية خضعت أولاً للخلافة العباسية ثم للفاطميين ، وأنه كان فيها — إلى حد ما — ميلان متصارعان ، غير أن هذا الصراع ضعيف باهت فيما وصلنا من شعر .

والشعر كذلك قاصر عن تصوير ذلك القلق الداخلى الذى كان يتمثل فى كثرة التقلب . فها هنا شعب يثور ثم يعود إلى الندم والبكاء ، ثم يهب ثائراً وهو لا يزال يبكى ويستعطف ، شعب عاطفى سريع الغضب يقوم فى طلب حقه فإذا سمع كلمة ترضيه عاد إلى الهدوء وقنع بالقليل ، ثم شعر بالندم لقبوله ذلك القليل ، شعب قليل الصبر شديد الجزع كلما حزبه أمر فزع إلى نصير ،

---

(١) العمدة ١ : ١٩٨ .

ويؤمن بالرأى فى قوة ويندفع فى سبيل تحقيقه ، فإذا لم يقطف الثمرة بسرعة خلاّه إلى غيره . ومنذ القديم وصفه شيشرون بأنه مطبوع على التذمر ، وليس الذنب ذنبه فقد عرف فى كل حكومة سيطرت عليه معنى السيد المسترق، فهو يتلمس دائماً سيداً خيراً من سيده ليطمئن إلى حال خير من حاله . ولقد ذاق طعم العبودية فى ظل ناس ، فما عليه لو حاول أن يتخلص منها أو أن يتلمسها فى ظل آخرين أخف وطأة وتعسفاً . وحقيقة الأمر أن تقلب الحاكمين عليه جعله مستغلا ليس له من الحياة إلا شرف الخدمة إرضاء لحاكميه . فهو طيب إذا ملأ خزائن سيده بالمال وعنابره بالقمح واسطبلاته بالخيول . فهل تخلق هذه الحال فى نفسيته إلا التذمر والإذعان للبادرة الأولى والثورة كلما واتت الفرصة ، والتعلق بالآمال القليلة والتغذى باليأس الكثير ، والحقد على السيد الجشع . وإذا كان قد عاش أيام الحكومة الإسلامية فى رخاء نسبى ، فقد كان هذا الرخاء مصدر قوة جديدة فى الخصام — لأنه وجد بعض حقوقه فلمَ لا يستكملها ؟ وقد تفتحت عيناه بصورة أكبر على ما حرمه فلمَ لا ينالُ ما حرم ؟ ومع كل ذلك الرخاء النسبى فقد ظل اليأس فى حياته أكبر من الأمل — كان يرى الزعامة فى يد جماعة غرباء عنه ، وفرض عليه أن يكون جنديا ، وهو يكره القتال ، وألقى فى روعه معنى الاستشهاد ، فلم يفهمه ، كان يطلب الحياة والراحة ويقاوم الجهد والفقر والفناء ، ويهرب من تلك الأشباح فيتعبد أو يسلك نفسه معلما فى كتاب.

ولم يعبر الشعر عن شىء من هذا ، وإنما عبرت عنه الأحداث والثورات ، ولم يكن أسرع من الجماعة الصقلية إلى التعبير عن عدم الرضى بالعمل ، ولا أسرع منها إلى ارتجال الموقف الملائم وارتداء الثوب المعدّ تمهيداً لانتهاز الفرصة . فلم يعمق فى نفسها الحزن لأنها لم تكن تتجرع مرارة الكبت الطويل ، ولا كانت تستسلم إلى شىء من الفكاهة لتروح به عن نفسها المتألمة ، وكانت إلى ذلك كله تنفر من الغرباء لأنها ترى فيهم نوعاً من « المستغلين » ولا تحب من الطرّاء إلا من يسرع الرحيل . فهى تحب الغرباء العابرين وتكره أولئك الذين يأتون أفواجاً إلى الجزيرة ليزاحموها فى رزقها ، وقصر الشعر أيضاً فى التعبير عن هذا الصراع

الاقتصادى ، واكتفى الرحالون الذين صدمتهم هذه المشاعر بأن يصفوا صقلية بالجفاء — وهو جفاء ينعدم فيه لطف أهل المدن وملقهم اللسانىّ ، وتبرز من خلاله صورة للطبيعة الريفية الساذجة التى لا تستطيع أن تواربَ كثيراً من عواطفها ، وهو جفاء نحسه فى الشعر نفسه فإنه قل أن يجىء ملطفاً بشىء من رقة الحضارة التى تطالعنا فى الشعر الأندلسى .

أوضح الصور فى الشعر الصقلى وأقواها صورتان تمثلان جانبى الصراع فى حياة المدينة ، وهذه ميزة عامة فى الشعر العربى منذ مطلع العصر العباسى ، فقد انقسمت الحياة بين اليمين واليسار ، بين آخذين بأسباب الدين والزهد والتقوى يدعون الناس إلى التحلى عن الدنيا ولذاتها ويخوفونهم العذاب ، وبين آخذين بأسباب من الحياة المستهترة الماجنة ، يرون فى إشباع النفس من لذة الخمر والحب وغيرها ، خير ما يسعى إليه الإنسان . وانقاد الشعر لهؤلاء وهؤلاء ، ولكن رعاة التقوى والزهد هزموا فى ميدان الحياة ، لأن الفن صورة للحياة لا دعوة للآخرة . وكلا الاتجاهين يدلنا على أثر المدينة — لا أثر الطبيعة والريف — فى حياة الشعر العربى على مرّ العصور .

وبالاتجاه الأول يحسّ المرء بفساد المجتمع فينطوى على نفسه ، ويبتعد عن الناس لاعتقاده أنهم آفات ، وأن الشرّ بينهم « خضرم يزخر » ، أما الخير فهو « ثمد آسن » ، وينصح بالعزلة ولزوم البيت والاكتفاء بالقليل ، ويعلن عن يأسه من الصلاح ومن كل ما يصله بالحياة الدنيا ، من ذلك قول ابن الطوبى[1] :

لو قيل لى أىّ شىء تهوَى لقلتُ خلاصى
الناس طرًّا أفاعٍ فلاتَ حين مناص
نسوا الشريعة حتّى تغامزوا بالمعاصى
فشرهم فى ازدياد وخيرهم فى انتقاص

وقد يزداد التعقد فى هذا الاتجاه حتّى يلحق بالرهبنة ، وتشيع فيه الدعوة إلى

(١) الترجمة رقم ١٥ فى مجموعة الشعر .

العزوبة ، كقول ابن مكي :

من كان منفرداً فى ذا الزمان فقد نجا من الذل والأحزان والقلق
تزويجنا كركوب البحر ثم إذا صرْنا إلى ولد ، صرنا إلى الغرق

وتصطبغ هذه الدعوة الزاهدة — عادة — بالاتكالية وذم المال ، وفى التخذيل عن الكد المضنى فى سبيل الرزق ، من ذلك قول أحدهم (١) :

يا حريصاً قطعَ الأيام فى بؤس عيش وعناء وتعبْ
ليس يعدوك من الرزق الذى قسم الله فأجمل فى الطلب

أو كقول الآخر ، وغالى فى تهجين السعى جملة (٢) :

لا تخشَ فى بلدة ضياعاً حيثُ حياةٌ فثمّ رزقُ
قـــد قسَمَ الله للبرايـــا رزقهمُ فالعنـــاء حمقُ

وغنى صقلية بهذا الشعر نوع من الفقر الفنى فى رأيى ، فما نظن أن هذا الشعر إلا صورة لروح الوعظ والتذكير ، وإلا تعبيراً عن تلك المدارس الفقهية التى كانت توجه حياة صقلية الثقافية . ذلك لأن هذا النوع من الشعر لا يلمح إلا الجوانب السلبية من الحياة ، وأعلى درجة من هذا الأدب الوعظى قول ابن الطوبى فى تصوير روح التقوى (٣) :

يحب بنو آدم ربهمْ ولـــكنهم بعدُ يعصُونه
وإبليسُ قد أشربوا بغضه وهمْ بعد ذاك يطيعونـــه
فهذا التنـــافى فما بالهم يرون الضـــلال ويأتونه ؟

وقد تقلبت الحياة بابن الطوبى ، وتركته ينال من أطايبها ، ويصيب من لذائذها ومتعها ، وبعد فترة قضاها فى الحياة السياسية خلق له أعداء ومبغضين

(١) الترجمة رقم ٤٦ من مجموعة الشعر .
(٢) الترجمة رقم ٤٩ .
(٣) الترجمة رقم ١٥ .

ثم تغيرت الحكومة فسقط فى السياسة ، فتوفر لديه شعور حاد بفساد المجتمع رمى به فى أحضان الدين من جديد . ولكنه من أشد الشعراء الصقليين نقداً لبعض المظاهر الكاذبة فى مجتمعه، ونسمعه ينتقد التصوف بقوله [١] :

ليس التصوفُ لبسَ الصوف ترقعهُ ... ولا بكاؤُك إن غنّى المغنونا

ولا صياحٌ ولا رقصٌ ولا طربٌ ... ولا تغاش كأنْ قد صرت مجنونا

بل التصوفُ أنْ تصْفو بلا كدَر ... وتتبعَ الحقّ والقرآنَ والدينا

وأنْ ترَى خائفاً لله ذا ندَم ... على ذنوبكَ طولَ الدهر محزونا.

أما الصورة الثانية فهى الإقبال على الحياة فى نهم وظمأ ، والعب من كؤوس لذائذها ، ومع أن أهل الذمة لم يشاركوا كثيراً فى إنتاج الشعر الصقلىّ فإنهم كانوا موضوعاً له . فأولئك الذميون هم أصحاب الدساكر والحانات ، وفى أديرتهم خمر معتقة ، وفى غلمانهم وجواريهم ضروب من الفتن ، وأطاف الشعر بهذه الموضوعات ، فكان وصف الخمر والغزل بالغلمان والجوارى ، ووصف الراقصات ومجالس الشراب عديل تلك الأشعار التى قيلت فى الزهد والقناعة والتوبة .

والخمر تشترى من الباعة فى الحانات ومن الأديرة ، وعند ابن حمديس أن الراهبة فى الدير هى التى تبيع الخمر ، والساقى فى الشعر الصقلى غلام جميل ، إلا عند ابن حمديس فهو ساقية جميلة رخيمة اللفظ ساحرة المقلتين .

وكل هم الشاعر فى الوصف هو الخمر نفسها . فلا يلتفت كثيراً إلى بائع الخمر نفسه ، ولا يصف رحلته إليه ، إلا فى مثال واحد إذ نجد ابن الخياط الصقلى قد تحدث عن البائع ووصفه باللطف والحذق فى إغراء الحالّين بساحته على الشرب ، فى قوله :

هذا وأشمطَ رب دَسكرة ... رَحب الفناء لكل من أمّا

مستنزل جلبـــاب زائره ... ببشاشة تستنزل العصما

ضقنا به ذرعاً فهبّ لنـــا ... بزجاجة خلنا بهـــا نجما

---

(١) المصدر السابق .

وأكثر أوصاف الخمر تدور حول معان تتردد فى غير صقلية كالقول بقدم الخمر ، والتلاعب بفكرة أنها عجوز فتية ، ثم تصوير الضحك والبكاء واتصالهما بمزج الخمر ، والحديث عن ظلبها لثأر قديم ، والتغنى بقوة رائحتها وسطوعها ، ويهمنا من كل الأوصاف التى تدور حول الخمر ثلاثة :

(ا) فكرة اجتماع العنصرين : الماء والنار ، فى مكان واحد .

(ب) صورة الحباب فوق الكأس كالشبكة ، ويزيد ابن حمديس فى هذه الصورة أن الماء الذى يصب على الخمر كالغائص فى البحر يستخرج الدر الذى يرتفع على السطح .

(ج) وصف الخمر بالفتك والقدرة على قتل الهموم واستمداد صور من القتال فى التصوير كالتعبير بغارة الخمر على الهموم .

فتكرير هذه الصور الثلاث فى الشعر الصقلى يجعلنا نقف عندها ، فيما بعد؛ لنقرنها بجو صقلية وطبيعتها البحرية والحربية ، حين يكون الحديث عن خصائص الشعر الصقلى .

أما الاهتمام كثيراً برائحة الخمر وأنها هى التى تهدى إليها السبيل ، فهو كثير جدا فى شعر ابن حمديس ، حتى لا تخلو منه أى قصيدة يصف بها الخمر . ولابن حمديس فى العطر والرائحة الذكية مذهب ينتظم كل شعره أو أكثره ، فكل ما يستهويه فى الروضة أن تسطع رائحتها ، وفى الصبا أن تكون مسكاً ، ولا بد أن يكون النسيم ذا عبير ، والوطن يعرف بالرائحة الشذية ، ولا تعجبه الباقة التى لا رائحة لها فيهجوها [1] مع أنه حرم على نفسه الهجاء، ولا بد لهذه الظاهرة من صلة خاصة بحياته وذكرياته ونفسيته .

وابن حمديس هو شاعر الخمر ، وهو الفن الذى نشأ عليه فى صقلية مع شيء من الفخر والغزل وكثيراً ما تكون قصيدته من أولها آلى آخرها فى الخمر ومجالس الشراب [2] والتغزل بمحاسنها ، مقدمة لقصائده بدلا من التغزل بجمال

---

(١) انظر القطعة رقم ٢٠ فى الديوان .

(٢) انظر مثلا القصيدة رقم ٥١ فى الديوان .

المرأة . وفى كل مرة تستطيع أن تعدّ عنده نعوتاً محدودة لها ولكنه يتلاعب فى أدائها بمهارة تبلغ أحياناً درجة الجدة كقوله [١] :

ما درى خمـارها عاصرهـا ... فحديثُ الصدق فيها كالكذبْ
دفنوا اللذة فيهـا حيةً ... وأتى الدهر عليها وَذَهبْ
ظنه كنزاً فلمـا انتسبت ... منه للأنف درَى ذاك النسب
قلتُ إذ أبرزها فى قعبـه ... أهيَ بنتُ الكرم أمْ أمُّ الحقبْ
قتلتـنى وهى بى مقتـولةٌ ... صَوْلةُ الميت على الحى عجب
كيف لا تصرَعنى صـوالةٌ ... وهى منى فى عرُوق وعصبْ

فإذا أنت تناولت الأفكار عامة وجدتها مألوفة تتحدث عن القدم وحلول اللذة فى الخمر وقوة الفتك فيها ، ولكن التعبير عن هذه الأفكار هو الذى أكسبها جمالا جديداً فجعل لكل بيت موقعاً منفرداً ، وبخاصة فكرة اللذة الحالة فى جسم الخمر ، ثم ذلك التعبير بالانتساب للأنف ، والتلاعب المحير بين البنوة والأمومة وبين كون الخمر قاتلة مقتولة تسرب فى العروق والأعصاب . ثم تتصفح الديوان فترى فى كل صفحة يتحدث فيها عن الخمر تكراراً لمعانى القدم وتأثير الخمر ، وجمال رائحتها حتى ليصدق فيه ما قيل فى هجلْ « حيثما فتحت كتابه وجدته يقول الشىء عينه » ومع ذلك فإنه قادر على أن يضع الفكرة الواحدة دائماً فى ثوب جديد . وفكرة القدم التى عبر عنها فى الأبيات السابقة بجهل الخمار للعاصر ، وبأن الخمر أم الحقب يعبر عنها فى أبيات أخرى بقوله [٢] :

ومَدام قدمتْ فهى إذا ... سئلتْ تخـبرُ عن عاد إرم
سكنتْ أجوَفَ فى جوْف الثرى ... نسجَ الدهر عليـه ورَقَمْ
خالفتْ أفعالهـا أعمارهـا ... فأتت قوتها بعـد القدم
فهى فى الراووق إنْ رَوَّقتها ... لهبٌ جـار وماءٌ يضْطرمْ
أفنت الاحقابُ منها جوهـراً ... ما خلا الجزءَ الذى لا ينقسم

(١) القصيدة رقم ٣٣ .
(٢) القصيدة رقم ٢٨٥ .

ويظل ابن حمديس يقلب هذه الصفة وغيرها فى سائر قصائده ، يسهب فيها هنا ويقتضبها هناك، وإذا اعتبرنا الشكل وحده — ومن حقنا أن نعتبره — وجدنا ابن حمديس فى الخمر مجدداً بقدر .

وتقرأ شعره فى الخمر — وقد ظلت الخمر موضوعه المحبوب حتى أواخر أيامه — فتحس أنه يعتنق فكرة التقديس لها خالصة من أجلها ، لولا أنه ينزل أحياناً بهذه الفكرة السامية ويصرح لنا أنه يحب الخمر لأنها تذهب الهموم . والظن قوى بأن ابن حمديس نشأ على تقديس الخمر — مبدأ اعتنقه وهو فى صقلية ، وآمن باللذة غاية يسعى إليها ، ولكن الذى نزل بهذه الفلسفة عن درجتها القصوى شيئان أولهما : أن ابن حمديس لم يتخلص — وهو يعاقر الخمر — من النظر إلى أنه يعاقر محرماً وهو يجادل نفسه فى الواقع حين يقول :

يا لائمى فى الخمر كم سيئة   تجاوَزَ الرحمنُ عنها وَصَفَحْ

فهو اللائم وهو الملوم وهو الذى يضعف أمام تلك القداسة ، لأنه يتلقى لوماً آخر من أهله ينبه فيه شعوره بأنه يقترف إثماً ، ثم قوى به الشعور حين كبرت سنه . أما العامل الثانى : فهو ضياع صقلية نفسها ، فإن كان قد طلب فيها الخمر للذة ، فإن طبيعة حياته بعد ضياع وطنه قد تغيرت ، ولا بد أن يطلبها لينسى آلامه وأحزانه ، وهذا أول أثر أحدثه ضياع وطنه فى صميم فنه الشعرى ، إذ قلب نظرته إلى اللذة وكان من ذلك أثره فى نواح أخرى .

أما الغزل فى شعر الصقليين فهو وجد مبهم وشخصية المرأة فيه غير متحققة، وليس هناك إلا أسماء تقليدية تتردد فى الغزل كسلمى وسعاد وجمل وبثينة، والثلاثة الأول تتردد فى شعر ابن حمديس ، ونسمع عن شاعر يتغزل بجارية اسمها رونق وعلى العكس من ذلك الغزل بالمذكر ، فالأسماء التى تتردد فيه كثيرة ولها صلة بالحياة الاجتماعية . وينفرد ابن الطوبى بالغزل فى الحسناوات السود ، وتفضيلهن على البيض ، لأن سواد العين أجمل من بياضها وأهم موقعاً . وفى الغزل بالغلمان أسماء مسيحية وإسلامية ، وفى الأسماء الأولى صورة لأثر البيئة المسيحية ، يضاف إلى أثر الأديرة والحانات ، والتغنى بذكر الصليب والزنار والعذار ، والشوق إلى

لقاء الجحيم ، إن كان المحبوب من أهل النار ؛ ويمتد هذا النوع من الغزل إلى بيئات كثيرة فتجده عند الفقهاء . وفى هذه البيئة نشأت قصص من التضحية بالنفس فى هذا النوع من الحب . ودارس هذه الناحية فى الأدب لا يستطيع أن يغفل سيطرتها فى هذا العصر بالذات على الحياة الإفريقية . وغلبتها على ابن رشيق وكثير من شعراء الأنموذج .

أما الجوّ العام فى جمال المرأة فلا يختلف عما هو فى سائر الشعر العربى ، ولكن الشعر لا يهتم بوصف المرأة بمقدار ما يحتوى من الشكوى والدموع والتذلل وذكر الوجد والعذاب والسهر . وأضعف ما يكون الشاعر حين يحاول أن يجرى حواراً بينه وبين محبوبته ، فإنه يركب الإحالة البعيدة عن الحياة الواقعية ويتخيل القصة تخيلا ، ويجرى فيها حواراً مصنوعاً متكلفاً ، ومع ذلك فلا يخلو هذا الشعر من لفتات فى الحوار فيها جمال الواقعية كقول ابن حمديس [1] :

قالتْ وقد عانقتها سحراً ‏ ‏ لم زُرْتنا فى آخر الليل

فأجبتها وغمرتها قبلاً ‏ ‏ هذا أوانُ إغارة الخيل

ولست أستطيع أن أكتم إعجابى بهذا الحوار القصير لأنه يمثل روح الفروسية التى نشأ عليها ابن حمديس بصقلية ، وهذه الأبيات وأبيات فيها قوة الحب — رويتها من قبل — ترفع عن الشعر الصقلى صفة التذلل المطلق فى الحب. على أن من العجب أن يكون هذان البيتان لابن حمديس من قصيدة مطلعها :

ويلى على مملوكة ملكت ‏ ‏ رقى بحسن حديثها ويلى

فهذه الصيحة المخنثة ، وتلك العبودية يجعلهما الشاعر مقدمة لتلك الفروسية العجيبة ، ولكن لا عجب فالفارس كان يقدس المرأة أكثر من كل مقدس .

وأخف من هذا الحوار قوة ولكنه حوار جميل أيضاً قول ابن حمديس [2] :

---

(١) القصيدة رقم ٢٤٣ .

(٢) القصيدة رقم ٢٢٢ .

فاوَمَضَتْ فى الوصل عينى عيْنَها   فازدهت عجباً وقالت ما لديك؟
أعليلٌ أنت ؟ ماذا تشتّهى ؟   قلت قطفى بيدى رمانتيك
فانثنت كبراً وقالت : ويلتا   أوَ هذا كلهُ تطلب ويك
أنا شمسٌ وبعيد فلــكى   وضيائى نافرٌ من راحتيك
لو بدا أمرك لى من قبل ذا   ما رأت ناظرتى ناظرتيــك

فأنا أجد جمالاً فى هذه الشمس ذات الضياء النافر من الراحتين ، وفى القطعة عامة من حيث أنها صورة حية قريبة من الواقع .

ويمثل ابن أبى البشر أجمل ما فى الغزل الصقلى من حيث الرقة فى الشكوى والتوجع من الحب والسهر لبعد الحبيب والخوف من هجره، ولكنه لا يتعدى فى شعره وقفة الشاعر الذى يتكلم فى فضاء، إذ قد لا يصور هذا الشعر كله حبا صحيحاً أو ألماً ، أما غلبة الرقة فى شعره فستمدة من حساسية فردية تعد نوعاً من التصعيد لقوة الشهوانية التى تغلبه أحياناً على أمره، وتكسر قيود الكف والمنع ، فتتمثل فى حديثه الكثير عن الفتك والجسارة كقوله [١] :

لو تجاسرت على الفتك بــه   لم أعُدْ أقرعُ ســنى ندَما
أىّ شىء ضرنى لو أنّــنى   كنتُ فى الحلّ طرقتُ الحرما
أنا عندى من شفى غُلتــهُ   من حبيب مُسْعدٍ ما أثما

وأمثلة هذا كثيرة أكتفى بالإشارة العابرة إليها .

وتتخذ صورة الوصل والهجر فى شعره دائماً صورة الحياة والموت ، وإذا رق الحديث عن الفتك عنده كان اهتزازات شهوانية فيها صورة العزم المغلوب وهذا يتضح فى قوله :

ولم أنلْ سوءاً سوى أنــنى   أدنيتهُ منى وقبلتُ فـــاهْ
وذُدْتُ عنــه كبداً شارفت   ورْداً فحفتْ كحفيف القطاهْ

---

(١) الترجمة رقم ٢ من مجموعة الشعر .

والرقة إجمالاً غالبة على شعره وأحياناً تنتقب بغشاء عاطفى رقيق أيضاً .

وفى الشعر الصقلى صورة حية لمجتمع يستمتع بالرقص والموسيقى والغناء وللراقص وجود كما للراقصة ، وأكثر الرقص مصحوب بالأنغام، ولذلك تذكر الراقصة فى الشعر الصقلى بحذقها التوقيع بقدميها، حتى تجد عندهم هذا التعبير « رجلاه مزمار وعود . . » وتمدح الراقصة بالخفة ، ويتغنون بالتعبير عن خفتها ، فهى لو جالت بخطوها فى عيسنى ذى رمد لم يشتك الوصب ، وفى ديوان ابن حمديس صورة مستوفاة للراقصة التى أرسلت شعرها طويلا متموجاً ، ولبست ثياباً ملونة تجرر ذيولهـــا ، وهى توافق النغمات بقدميها ، وتومئ إلى كل عضو بما يحل فيه من أثر الحب ، فإن ذكرت دمعاً أشارت إلى العين ، وإن وصفت وجداً أشارت إلى القلب ، وهى مع ذلك تعبر عن تدلل المحبوب وتذلل المحب بما يليق بها من الإشارات الحسنة والحركات المنبهة على ما أرادت[1] . ولكن لا أجزم بأن هذا النوع من الرقص كان موجوداً بصقلية ، والخبر فى الديوان لا يعيّن هل هو رقص أندلسى أو صقلى ، فإن كان صقليا فهو قد انتقل منها إلى الأندلس ، وعرفه الأندلسيون ، وليس هناك ما يمنع أن يكون مشتركاً بين البلدين ، ولا أدرى مبلغ ما يمكن أن يتمتع به من قيمة فنية حين يكون مصحوباً بالتمثيل ، والخبر نفسه يدل على أنّ الراقصة كانت تغنى أيضاً ، ومعنى ذلك أن من حولها من الجوارى كن جوقاً يحرك الأنغام ويردد بعض المقاطع ، وكانت الراقصة تحمل أحياناً طاراً تنقر عليه ، ومن حولها المغنيات الملحنات مقنعات بالعقيق ، يحملن الآلات الموسيقية التى منها العود والمزمار وقد صففت الشموع فى نواحى المجلس .

ويستدل مما قاله ابن مكى فى نقد المغنين أنهم لم يكونوا يحرصون إلا على أداء النغم ، أما النص فكانوا يحرفونه تحريفاً بعيداً فى بعض الأحيان . وكان يجتمع إلى هذه الإساءة فى حق المعنى إساءة أخرى آتية من قبح الأداء ولذلك كثر فى

---

(١) القصيدة رقم ٨٤ فى الديوان .

الشعر الصقلى ذم المغنين – وخاصة المغنى لا المغنية – واشتهر ابن الطوبى بالإكثار من ذلك الذم .

ولا شك فى أن بعض الشعر الصقلى كان ينظم للغناء ، ويقول ابن حمديس فى مغنية ، وهو يتحدث عن نفسه [١] .

تتغنى بنسيب قلتـــه فهواها راجع منك إليك

وبعض أشعار ابن حمديس ربما لم تصنع إلا للتغنى بها مثل قوله [٢] :

أما ومُرْسل وَحْف يُغْرى بتقبيل كعْبك
ووجنـــة غمستهـــا فى الورد صَنعةُ ربِّك
لقد جنحتُ لسلمى كما جنحتَ لحربك

أو قوله أيضاً [٣] :

ملنى من لا أملـــهْ وأذابَ القلبَ دَلُّهْ
رشأ ينفـــرُ خوفـــاً كلما ماشـــاه ظلـــه
يا عليل الطرف جسمى نظرةٌ منك تعلـــه
نيطَ فى خصْرِكَ رِدْفٌ عجـــبى كيف تُقلّه
يا غزالاً حـــرّم اللـ ـهُ دمى وهو يحـــلّه
إنما الُحسنُ محـــلّ لك أوْ أنتَ محلّـــه
بعضُه فى أوجـــه النـ ـاس وفى وجهك كله

فإن أمثال هذه القطع المتفرقة فى ديوانه ربما كانت من صقلية أيضاً، وهو احتمال ليس هناك ما يدل عليه بوضوح .

وابن حمديس إذا وصف المغنى اهتم كثيراً بوصف آلات الطرب لا كما

---

(١) الديوان رقم ٢٢٢ .
(٢) الديوان رقم ١٩
(٣) الديوان رقم ٢٤٥ .

هى حاله فى الخمر فهإنه ناك قلما يقبل على وصف أدواتها . وفى هذه الأوصاف تتدفق صور الحياة الحربية وتتغلغل هنالك كما هى فى نواحى شعره الأخرى، ومثال ذلك قوله فى ضارب العود [1] :

يمدّ كفاً إليه ضاربـــةً أعناقَ أحزاننا إذا ضرَبه

(١) الديوان رقم ١٦ .

الفصل الثالث

ابن الخياط

شاعر صقلية فى العصر الإسلامى

١ ــ ابن الخياط بين شعراء صقلية

٢ ــ ممدوحوه

٣ ــ ابن الخياط وحياة الحرب والفتن أيام الكلبيين

٤ ــ وقفته من مشكلة الغيب والغد

٥ ــ الطبيعة الريفية فى شعره

٦ ــ البيئة المدنية فى شعره

٧ ــ صنعته الشعرية

١
ابن الخياط بين شعراء صقلية

نستطيع أن نقدم من شعراء صقلية فى هذا العصر ستة من الشعراء هم ابن أبى البشر وأبو عبد الله بن الطوبى وعبد الحليم الصقلى وابن حمديس وأبو العرب الصقلى وابن الخياط الربعى .

وفى هؤلاء من لا يمثل صقلية تمثيلا تاما لأن الفترة التى قضوها فيها لم تكن طويلة ، فعاشوا البقية الباقية من أعمارهم فى خارجها ، ولابسوا أنواعاً أخرى من الحياة والجماعات ، واستمدوا من هنا وهناك ، وإن كانت النواة الأولى فى تكوينهم الأدبى صقلية . وعبد الحليم من بينهم ليس بصقلى والصواب أن يعد فى شعراء العصر النورمانى ، لأن صلته بصقلية تمت فى أواخر العصر العربى ،ولم تصلنا إلا مختارات قليلة من شعره لعبت الأيدى بنسبتها فليس من الممكن أن نجزم قطعاً بأنها لعبد الحليم . وليس يتبقى ممن يمثلون صقلية إلا اثنان هما أبو عبد الله بن الطوبى وابن الخياط. فأما ابن الطوبى فكان كاتب الإنشاء ، والنثر عليه أغلب والنحو والطب من أدواته ، والموجود من شعره يصور اتجاهين : مشاركة فى الحياة وإقبال على لذاتها وهو فى هذا القسم يتغزل بالغلمان ويفتن بالعذار ويصف الراقصات ولا يغيب عن مجالس الغناء ، ويخاصم الناس فيهجو البخيل والدميم وذا اللحية الطويلة ، وينفر من الشيب ؛ والاتجاه الثانى عزوف عن الحياة ، وسأم من الناس ، وثورة على مخالفتهم الشريعة ونقد للمتصوفة ، وهو فى كل ذلك يقتصر على البيتين والمقطوعة . فالشعر فى يديه خواطر عابرة أو ألهية يتسلى بها ، ولا يعتمدها ، فليست فى شعره مكانية واضحة ، ولا حياة سياسية معينة ،وإنما هو سريع اللمح للمعانى دائم الرصد لها ، فإذا استوفى المعنى فى بيتين أو ثلاثة فذلك حسبه . يحب الإيجاز ويدير المقطوعة على نكتة أو لمحة كقوله يلمز إنساناً فى عرضه :

صبرت على سوء أخلاقه زماناً أقدر أن يصلحـــا
فلما تزوج قاطعتـــه لأنى تخوفت أن ينطحا

أو قوله يهجو إنساناً كبير اللحية :

لحية حمدون دثار لـــه تكنه من شدة الـــبرد
كأنه إذ غاب فى وسطها قطيفة لفت على قـــرد

وإذا كنت أنحى كلّ هؤلاء فمعنى ذلك أننى أستبقى ابن الخياط حين أحاول أن أعرف بالشاعر بين تلك الشخوص العديدة التى استمدت حياتها من هواء صقلية ومائها . ولست أتكلم فى هذا الفصل عن مدى تمثيل هذا الشاعر لصقلية فقد كان هذا يستوجب منى أن أضع مميزات صقليةً معينة ، أتولاها بالعرض والتوضيح قبل أن أتحدث عن هذا الشاعر ، وإنما أقصد إلى أن أتعرف إلى شاعر صقلى لم يكن شاعراً كاتباً أو شاعراً لغويا أو شاعراً طبيباً ، وإنما هو شاعر وحسب ، يحيا عمره معتمداً على تلك الملكة الشعرية ، فالشعر هو كل ما يميزه يومئذ فى الحياة ، وحياته تمضى على الأكثر فى صقلية نفسها وتتجاوب مع مجتمعها وطبيعتها وأحداثها .

وليس هناك ما يميز هذا الشاعر عن غيره فى ما نعرف من أحداث حياته ، وليس فى المصادر عناية خاصة به ، وإذا كنا لا نقرأ شاعراً إلا حين نعرف تفاصيل حياته ، وإذا كنا لا نفهمه إلا بعد التمعن فى تلك التفاصيل ، فابن الخياط أبعد من أن نقرأه أو نفهمه لأننا نكاد نجهل كل شىء عن الظروف التى أحاطت به ، وماأكتبه عنه غير متأثر إلا بقدر ضئيل من واقع حياته .

والفضل فى تعرفنا إلى شاعر صقلى واضح السمات يرجع إلى التجيبى صاحب شرح المختار من شعر بشار [١] فقد كان للتجيبى صلة بكثير من شعراء صقلية وأدبائها فى عصر نهضتها الأدبية ، وكان صديقاً لابن الخياط فهو فى الكتاب

---

(١) انظر فى الأشعار الواردة بهذا الفصل الترجمة رقم ٩٨ و ١٢٨ و ١٣٩ من مجموعة الشعر الصقلى .

المذكور يستشهد بشعره كلما استدعت المناسبة ذلك .

أما موطن هذا اللقاء بين الصديقين فهو صقلية نفسها — على الأرجح — لأن شعر ابن الخياط يدل على أنه بقى فى صقلية حتى أيام ابن الثمنة وفى هذا التاريخ كان التجيبى قد توفى وربما اشتملت عليه القيروان بعد ما انقطعت علاقته بابن الثمنة ، وإن لم يكن هناك ما يمنع الظن بأنه كان يسافر إلى القيروان كثيراً ويتنقل بينها وبين صقلية .

وإذا كان قد هاجر من صقلية بعد موت ابن الثمنة أو قبله بقليل فإنه لم يشهد صقلية فى عصرها الجديد — عصر الحكم النورمانى —

وفى بعض أحاديثه إلى التجيبى نراه يستشهد بكلمة لابن المقفع ، ويقر بأنه أخذ معنى معيناً من أبى تمام ، ولا نص غير هذين يدل على ميل معين أو ثقافة خاصة أو اتجاه محدود .

٢

ممدوحوه

ولا بد من وقفة عند ممدوحى ابن الخياط نفسه لنعرف الفترة التى عاشها فى صقلية ، فهو قد مدح كثيراً من أمراء الكلبيين ، وهؤلاء هم الذين وصلتنا أسماؤهم أو ألقابهم :

١ — مرتضى الدولة وابناه

(ا) صمصام الدولة

(ب) مؤيد الدولة

ولا نعرف من هؤلاء إلا صمصام الدولة وهو الحسن بن أبى الفتوح يوسف ويوسف يلقب بثقة الدولة ولا نعلم أنه كان يلقب مرتضى الدولة ، وإذن فنحن مضطرون أن نفترض بأن يوسف كان يتمتع بلقبين أو أكثر ، فهو مرتضى الدولة

وهو ثقة الدولة الذى حكم من (٣٧٩ — ٣٨٨ هـ) وليوسف هذا أربعة أبناء ذكرتهم الكتب التاريخية وهم :

١ — جعفر الملقب بتاج الدولة سيف الملة (٣٨٨ — ٤١٠)

٢ — على (ولا نعرف له لقباً ولم يحكم)

٣ — أحمد الأكحل الملقب بتأييد الدولة (٤١٠ — ٤٢٧)

٤ — الحسن الملقب بصمصام الدولة (٤٢٧ — ٤٣١)

أما صمصام الدولة فقد منحه الخليفة الفاطمى ألقاباً كثيرة لا نعرف منها إلا الصمصام، ولكن هذا الخبر يجعلنا نتأكد أن الوالى كان أحياناً يتمتع بأكثر من لقب . وليس فى أبناء يوسف من لقبه مؤيد الدولة، وإنما فيهم الأكحل الملقب بتأييد الدولة وبين اللقبين من التقارب ما يجعلنا نعتقد أن مؤيد الدولة صورة أخرى لتأييد الدولة وفى مدحه ومدح أخيه الصمصام يقول ابن الخياط :

كلاهما زين أخوه بــه … كما يزينُ الفرقدَ الفرقــدُ

من تره منفرداً منهــما … فى مجلس قلتَ : هو السيد

ويمكن أن يستشف من هذا الشعر أنه قيل فيهما فى موضع الثناء على أبيهما ثقة الدولة ، ومعنى ذلك أن صلة ابن الخياط تبدأ بثقة الدولة إلا أن ثقة الدولة قضى فى الإمارة عهداً ، وقضى وهو معتزل لها فى صقلية عهداً آخر ، ولم يفارق صقلية إلا حين تولى الأمر ابنه الأكحل ؛ وعلى ذلك إما أن يكون عهد ابن الخياط بمدحه بدأ وهو وال ، أو وهو معتزل للولاية ، وهذا لا يبعد صلته بالأمراء الكلبيين عن سنة ٣٩٠ هـ .

وابن الخياط يمدح من أمراء بنى أبى الحسين أيضاً :

١ — مستخلص الدولة

٢ — انتصار الدولة بن مستخلص الدولة

٣ — ابن انتصار الدولة

وقد ترجم العماد فى الخريدة لمستخلص الدولة ، واسمه عبد الرحمن بن

الحسن الكلبي ، وأورد له شعراً . وأما انتصار الدولة فاسمه الحسين بن عبدالرحمن [1] يقول الربعي فى مدحه :

علّق رجاءك بالحسين وبابنه   إن العلائقَ بالكرام أواصر

وأما حفيد عبد الرحمن (ابن انتصار الدولة) فلا نعرف عنه شيئاً .

ثم من هؤلاء الذين يمدحهم ؟ إنهم يتمتعون بألقاب ولكن ليس هناك أى إشارة إلى أنهم حكموا صقلية فهل كانوا يحكمون فى غير بلرم ؟ أو أنّ عبد الرحمن مستخلص الدولة كان قائداً فى الأسطول أو صاحب قلعة من القلاع ؟ أكبر الظن أن عبد الرحمن هو ابن الحسن بن عمار الذى كان فى يوم ما قائد أسطول الكلبيين ولا بد أن يكون انتصار الدولة ابنه كان صاحب مركز عال ،لأن ابن الخياط يذكر خروج خارجى ثار عليه ، ولكننا لا نعلم أين كان ذلك ومتى . وقد توفى عبد الرحمن وابن الخياط فى صقلية فرثاه . ويظهر أنه فارق الوجود حين كان الكلبيون قد فقدوا كل سيطرة لهم فى الجزيرة لأن ابن الخياط فى هذا الرثاء يعزى الكلبيين عن صقلية . وربما أفاد هذا أن انتصار الدولة كان ذا سلطة فى حياة والده لا بعده .

وإذا كان الصمصام والأكحل من ممدوحيه فهذا يعين صلته ببلرم . وهو يصف فى شعره جلب الماء إلى بركة بدار الإمارة ؛ فأين قامت صلته بالممدوحين الآخرين ، وهل اتصل بابن الثمنة حين استولى هذا على سرقوسة أو حين امتدت سلطته إلى بلرم ؟

ومع ذلك فإن صلة ابن الخياط بهذا العدد من الأمراء الكلبيين تصور لنا مقدار ما نجهله من أخبار صقلية ورجالاتها .

---

(١) هذا يخالف قول التجيبى : « ونحوه ما أنشدنيه الربعى أبو الحسن يستنجز الأمير انتصار الدولة عبد الرحمن حاجة .

٣

ابن الخياط وحياة الحرب والفتن أيام الكلبيين

هذا العهد الطويل الذى قضاه ابن الخياط فى صقلية على أبواب أمرائها جعله شاعر بنى أبى الحسين ، فهو يسجل لهم حياتهم الحربية والسياسية — الحياة التى تعد أبرز شيء فى تاريخ صقلية .

فنى شعره وصف للمعارك كقوله من قصيدة يمدح بها انتصار الدولة :

ويا ربَّ يومٍ له مسْعر إذا خمدت نارُهُ أوْقــدا
تخافُ به الرجل من أختها ولا تأمنُ اليــدُ فيه اليــدا
وترمى رجالٌ بأعضــائهم فثنى تراهنّ أو موْحــدا
ترى السيفَ عُرْيانَ من غمدِهِ وتحسبه من دمٍ مغْمدا

وهو يسجل انتصاراتهم ويتحدث عن بعض الطامحين الثائرين عليهم كقصيدة قالها يذكر ظفر انتصار الدولة بخارجى خرج عليه :

ظنّ الإمارة ظُلّةً فإذا بها حرْبٌ يــكاد أوارها يتأجج
ومهنّدَات كالعقائق ماؤهــا مترَقْرِقٌ ولهيبها متأجِّج
لا تستقر العينُ فوقَ متُونها فكأنما هى زئبق متدَحْرجُ
ومداعس للخيل يرْمحُ وسطها من غير فارسه طمرٌ مُسْرَجَ
عنْقرَى وسالمةٌ تعاثرُ فى القنا ألعسْجدىُّ وذو الخمار وأعوج
طرحت فوارسَها على أذقانهمْ طرْحَ الكعاب ففرَد أو مزوج
فى موطن سلب الحليم وقارَهُ فكأنما هو مستطارٌ أهْوَج

ويصف ضيق الأرض على الفريق المنهزم الخائف ويصور ذعره وفزعه بقوله :

فى مثل يوم الحساب تحسْبهم سكرى وكالسكر بعض ما شُرِبا
كأنمــا أرضهم قــلوبهمُ فكلها قد أحيل فاضطربا

وقد عرضت هذه الأمثلة متتابعة دون أن أقف عند واحد منها لأعود إليها جملة . فهذه القطع تصور أهمّ جانب فى حياة صقلية ، وهو حياة الجهاد والفتن ، ولعلك تلمح فيها خصائص تنتظمها جميعاً فكلها صاخب بالحركة ، تضطرب وتهتز حسبما تضطرب المعركة وتهتز ، وفيها هذه المبالغة التى لا بد منها لتكبير الصورة وخاصة صورة الحرب ، فالخوف يتمثل على أشده فى خوف العضو من أخيه ، والعيون لا تستقر على متن السيف ، لأنه كالزئبق المترجرج ، والأرض فى عين الخائف كقلبه اضطراباً ، ونلمح فى هذه الصور المنتزعة من غير قطعة واحدة أن الشاعر يجيد تصوير الاهتزاز والاضطراب ، ولا تنس جمعه فى السيف بين الماء والنار فهى الصورة التى تلاقينا كثيراً فى الشعر الصقلى ؛ والشاعر كغيره من الصقليين تستولى عليه حياة القتال فتتدفق صورها فى شعره كقوله :

واعلم بأنك إن غزوت نداهما ... بلواء مدحهما فإنك ظافر

وقوله فى تأييد النعمة بنعمة أخرى :

فابعث وليا إلى وسميها مـــددا ... إن الكتائب منصور تواليها

تلك كانت صلته مع الأمراء الكلبيين فى المعارك والفتن ، أما فى حياة السلم فهو يعزّى الأكحل بعد ما تألبت عليه صقلية بقوله :

لا تفرحنّ ولا تحزنْ لنائبة ... عليك بالخير أو بالشر لم يدم

فى كل أمر وإن طالت نجاحته ... حكمُ التعاقب فى الأنوار والظلم

وتارة أخرى يقول له :

أرى كل شئ له دولـــةٌ ... لحـــكم التعاقب فيها عَملْ

فـــلا تفرحنّ ولا تحزننّ ... لشىء إذا ما تناهى انتقل

وهذا معناه أن ابن الخياط وقف مع الأكحل خاصة لما ثار عليه الصقليون ومع بنى أبى الحسين عامة ، وأخلص لهم ولم يكن فى حبه شاذاً ، فقد كان أمراء هذه الأسرة محبوبين عند أهل صقلية ، وكان فريق كبير منهم فيها يؤيدهم ،

حتى إن الصقليين لما غضبوا من سياسة الأكحل وابنه واستقدموا عبد الله بن المعز ، عادوا فندموا على ما فعلوه فى حقه .

ولما مات مستخلص الدولة رثاه ابن الخياط وذكر أمراء من بنى الحسين وعزاهم عن فقد الجزيرة بقوله :

ليُسْلِكمُ أنّ الجزيــرةَ بعدكم كما قيلَ فى الأمثال لحمٌ على وَضَمْ
تركتم بقايــا حسنكمْ فى خرابها كما ذَبلَ النوّار فى خلل الحمم
وجوهٌ كأنّ الله قال لمــائها ترقرقْ حياةً وامزج الحسن بالكرم
كأنهمُ فوق الأسرة أنجــمٌ سعودٌ وفى الهيجا ضراغمة بُهَمْ

وهذه الأبيات لا تصور إخلاصاً فحسب ، بل تصور تفانياً فى الحب — فى حب قوم كانوا حماة للأدب والفنون — وحسبك أنّ الشاعر نسى وطنه ، ولم يجد فى حاله البائسة ما يبكيه ، فوطنه لحم على وضم ، وما أدقّ هذه الكلمة فى وصف الحال التى صارت إليها صقلية فى تلك الفتنة ، ولكن من العجب أن يكون هذا شيئاً يتسلى به بنو أبى الحسين .

وهنا تشعر كيف أن ابن الخياط انساق مع الحزبية وتشفى بحال الجزيرة التى أصبحت أشلاء ممزقة ، وأشبع فى نفسه ونفس أسياده شعورهم بأن صقلية تجنى لقاء ما قدمت ، لا من إساءة اقترفتها فى حق نفسها ، ولكن من خطأ اقترفته فى حق الكلبيين. وهو إخلاص شاعر عاطفىّ ، فى ساعة عاطفية ، استطاع أن يقول :

تركتم بقايا حسنكم فى خرابها كما ذبل النوار فى خلل الحمم

فجعلنا نتناسى بهذه الإجادة فى التصوير شدة نقمته على وطنه — كانت صقلية حمماً ، كان بركانها السياسى يقذف بتلك الحمم كما يقذف إتنا بالحمم فيتلف المزارع والكروم ويذبل النوار .

وهكذا أصبح الحسنُ الذى تركه بنو أبى الحسين تفاريقَ ذابلةً منبثةً هنا وهناك فى منطقة قد اكتست بالسواد .

٤

وقفته من مشكلة الغيب والغد

وهناك معنى يديره ابن الخياط كثيراً فى شعره ، وهو يمدح الأمراء الكلبيين ، وذلك هو نفاذ البصيرة و بعد النظر ، حتى كأن الممدوح امرؤ يضرب بسهم فى الغيب ، ولديه المقدرة القادرة على تصور ما يجيء به المستقبل ؛ من ذلك قوله فى انتصار الدولة :

تبدو بخاطره الغيوب جليـــةً   ويرى الضمائرَ إثرهن خواطر

وقوله فيه :

فطنٌ يحدّثُ بالغيوب تظنياً   فــكأنما لحظاته فى الخاطر

وقوله فيه وفى أبيه مستخلص الدولة :

فكأنما الحدثان خلف زجاجة   تريانه خلل الغيوب شفيفـــا
وكأن أسرار الوجوه تصورت   لكما بأسرار القلوب حروفا

ويبدو لى أن هذا المعنى جاءه من ناحيتين : من تأثير الحالة السياسية المتقلبة التى كانت تنذر بالشر ، ومن حالته النفسية التى كان يعيها التفكير فى الغيب ، وتحس بالعجز عن معرفة كنهه ، كلما حاولت ذلك ؛ فأقدر الناس أقدرهم بالنسبة إليه ، والعظيم عظيم لأنه يستطيع ما يعجز هو منه ، وهو يريد أن يشيح بوجهه عن الغيب لأنه يقلقه فيحيل الاطلاع عليه إلى غيره ، والحالة النفسية التى كان يجدها ومعنى العجز الذى كان يحسه إزاء الغيب ينقله لك بقوله .

وغدٌ و بعد غــــد بمضمونيهما   عدةٌ تغيبُ والغيوبُ لها نبا
وحوادثُ الأيـــام أكثرُ عبرةً   من أن يحيطَ بها القياس فتحسبا

فهو مشغول بقياس القادم على الماضى ولكن هذا القياس يخيب ظنه ويرد تأويله فى نحره .

ومن جراء هذه الحيرة تجده تعلق بالحاضر لا بالماضى ولا بالمستقبل ، بينما قضت الظروف على ابن حمديس مثلا أن يعيش دائماً فى ماضيه ، ولذلك تسمع ابن الخياط يقول :

ما كان أمس فقد فاتَ الزمانُ به   وما يكونُ غداً فى الغيب موعودُ
وبين ذينك وقتٌ أنت صاحبه   فى حالتيه فمذمومٌ ومحمود

وتعلو هذه الفلسفة عنده وتكون على أشدها فى قوله :

تمتعْ بالمنام على شمال   فسوف يطولُ نومكَ باليمين
ومتعْ من يحبك من تلاق   فأنت من الفراق على يقين

وقد كان وصف الممدوح بنفاذ البصيرة وبعد النظر واستطلاع الغيب ديدن المداحين من شعراء صقلية ، وليس لهذه الظاهرة صلة بفكرة الألوهية ، ورفع الممدوح إلى مرتبة علية ، ولكن فيها شىء من سخرية الواقع بالصقليين لإحساسهم بالعجز عن النفاذ فى هذا الباب المغلق ، وليس فى حياتهم السياسية ولا فى شوراهم الاجتماعية شىء من بعد النظر ، لأن المصلحة العاجلة كانت تبتسر أفكارهم ، وتختزل لباقتهم فى حساب النتائج ، أما سخرية المستقبل بآراء ابن الخياط فى ممدوحيه فغنية عن التنويه بها ، فقد كان من مصيبة أولئك الممدوحين ببعد النظر أن أفقدهم بعد نظرهم الجزيرة ، وأما سخرية الغيب بابن الخياط نفسه فهى تلك النومة الطويلة على اليمين .

بهذه الفلسفة فى الغد والوقوف الحائر عند مشكلته نرانا إزاء شاعر صقلى ذى فلسفة ذات معالم بينة ، وقد رأينا ابن حمديس ذا مذهب فى اللذة . وهذا شاعر ذو مذهب فى تأمل الحياة ، وكلاهما صادق فى استمداد تلك الفلسفة من واقع حياته بصقلية ، وقد كانت مشكلة الغد المحجوب فى حياة الصقليين واقعاً

اجتماعياً وسياسياً — لا قدراً فحسب — فهم على أطراف خطر دائم من جيرانهم ومن أنفسهم ؛ فليست المشكلة هنا ، كما يراها كل فرد ، ولكنها قضية الجماعة التى تعيش متوجسة خائفة فإذا ثقل عليها الخوف والتوجس ، تبلد إحساسها بما كان وما سيكون . وقنعت من دنياها بالحاضر تحياه إلى أنْ يقع بها على حدود الزمان المقبل ، وهكذا أبداً .

وقد كان ابن الخياط من جرّاء واقعه الذى خلق فيه تلك الفلسفة يعيش فى انتظار الأحوال أن تنقلب إلى أحسن ليعانق انقلابها ويحييه . أرأيت إليه وهو يرتفع ببنى أبى الحسين ويتحدث عن بقايا الحسن وعن ذبول النوار وعن تلك الوجوه التى مزج ماؤها الحسن بالكرم ، أرأيت إليه كيف انقلب فى ساعة واحدة لما استوى ابن الثمنة على غارب الأمر وراح يسير فى موكبه مهللا يقول :

سر حيثُ شئتَ فأنت وحدك عسكرُ والناسُ بعدَكَ فضْلةٌ لا تذْكرُ

لقد شهد ابن الخياط فتنة صقلية فلبس فيها عباءة الحكيم ، وذهب يحذر قومه أمرها ويحدثهم عن صدور الأمر الكبير من الصغير ، والنار من الشرارة ، ويقول :

وقلتُ تلافَوا شجة الدهر إنها إذا نغلتْ أعيت مطبة آس

فإذا جرت إلى الويل قال لهم : ألم أنبهكم ؟

لا يهنْ بعدها عليك حقيرٌ ربّ شأن يكون منه شئون

وشجة الدهر التى نغلت وأعيت كل طبيب — هذا التعبير دليل على يقظة حسية فى ابن الخياط لما كان يراه فى وطنه ، ولعل هذه اليقظة ثم اعتقاده أنه أدى واجبه بتلك النصائح هما الأمران اللذان خففا وقع الحزن على نفسه عند ضياع ذلك الوطن فلم يرثه بشيء .

ثم انتهت الفتنة بعد ما خرج ابن الثمنة من وسط اللهب فإذا ابن الخياط يطلب الحياة من جديد ، ويعيش كما يريد الحاضر وينسى الماضى ، لأنه خلق لحاضره وخلق حاضره له أملاً يكفيه حتى ينقضى ، ولم يكن مثالياً لنقول إنه سقط دون مثله وتنكر لها .

٥

الطبيعة الريفية فى شعره

ونظن أن ابن الخياط فى حياته المدنية التى تقلبت به بين الأمراء لم يكن شاعراً يعبر عن جمال الطبيعة الصقلية ، ولكن تلك الطبيعة تسربت إلى نفسه وكمنت فى أعماقها .

ومن ثم ترى أن غيره من الشعراء لم يقفوا عند الكروم ومروج القمح ولا عند الجبال والعيون . وابن الخياط لم يقف عندها كذلك ولكننا لأول مرة نقف عند شعر صقلى تتردد فيه مناظر العنب وقطفه ، والسنابل الخضر والصخرة التى يتفجر منها الماء . فهو يصف الكرمة بقوله :

وكأن أقرطةً على قضبانها … منظومةً سبجاً بها وعقيقا
وكأن قاطفها يميثُ بكفه … من مائها بالزعفران خلوقا

ويقول فيها أيضاً :

ملاحيةً بيضاً وسوداً حوالكاً … وحمراً وصفراً ملبسات مجاسدا
كأن على أيدى القواطف تحتها … بما قنأت منها عروقاً مفاصدا

وليس فى هذه الأوصاف شيء يلفت النظر ، وإنما الذى يستوقفنا هو موضوعها — وصف الكرمة — فإن الشعراء الآخرين تعلقوا بوصف الخمر دون العنب ، أما هذا الشاعر فله التفاتة — أى التفاتة — إلى ما يملأ ربى وطنه .

وهو يقول فى أبيات يتنجز بها عدة من انتصار الدولة

وإن أولى نبات أنْ تثمرهُ … صنيعةٌ أنت مولاها ومُوليها
فرُبها إنها سبعٌ سنابلها … فى حبة بارك الرحمن لى فيها
أودعتها فى ثرى جعد فأنبتها … مستأرضاً أرضها خضراً أعاليها
فابعث ولياً إلى وسميها مدداً … إن الكتائب منصور تواليها

فهذه الصورة الريفية الجميلة التى استغلها فى معنى الصنيعة والنعمة لا تجد لها مثيلا فى وحدتها واكتمالها وتدرجها من بين الشعر الصقلى ؛ وهى أول صورة ترف رفيفها وتهتز بالسنابل، ولا شك فى أن الوقوع عليها لمن يعيش فى صحراء الشعر الصقلى ابن الكتاتيب والكراسات، كسب يجعله يعلق بها كما يعلق الكرم بمن يدنو منه — والتشبيه لشاعر صقلى آخر .

ويقول فى تكرير التجربة مرة بعد مرة :

كالصخرة الصماء يرجعُ معولى   متثلماً عنها ولا يتفطــر
لا بل أصابرُها على نزَقاتهــا   إن المياه من الصفا تتفجر

وتتردد هذه الصورة — صورة الماء المتفجر من الصفا — فى شعره . وفى البيتين السابقين تحس فى ذكر المعول صقلياً من أولئك الكادحين فى الأرض، وفى الأمواه المتفجرة صورة من تلك الينابيع التى تستوطن الصخر . ولا شك فى أنّ صورة السنابل والحجر الذى انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً مستمدتان من القرآن الكريم، ولكن الشاعر لم يقع على هذه الصور بمحض المصادفة أو لمحض ورودها فى القرآن، ففيه صور أخرى كان يستطيع أن يستمدها منه ولكن هذه المعانى تحتل من نفسه مكاناً عميقاً، لأنها من البيئة الزراعية ذات السنابل أو ذات الصخور المتفجرة بالينابيع ، فاستحضار هذه الصور بعينها ملائم للمعنى حقاً، وهو أيضًا دليل على اشتغال نفسه بها اشتغالا يؤكد تأثير البيئة .

٦
البيئة المدنية فى شعره

ويمتد شعوره بالبيئة إلى الحياة المدنية ، وهنا لا نجد عنده التغنى بجمال الرقيق فحسب . بل شعور السيد الأرستقراطى إزاء عبيده فهو لم يصور شقاء العبيد ولكن صور شقاءه بهم ؛ ولم يحاول أن يستشف نفسية العبد ، أو أن يعتذر عنه بما أجراه عليه الرق . وفى هذا يقول :

لى عبد سوء وعبد السوء منكدة ... والمسترق بعبد السوء مـولاهُ
كأننى كلما أنهـاه آمرُهُ ... وحين آمرُهُ بالشىء أنهـاه
قالوا سعادةُ فأل من سعادته ... كأنهم جهلوُا اسماً ضدّ معناه
إن الغرابَ أبو البيضاء كنيتهُ ... فانظر بأى سواد خصّه الله

وهو كغيره من شعراء صقلية فتن بالغلمان النصارى وتغزل بهم فى غير تبذل :

كأنّ على لباتهمْ وخدودهم ... وذائل ملساً من لجين وعسجد
ترى كبرياء الُحسن فى لحظاتهم ... تشابُ برهبانية المتعبـد
إذا قبلوا صُلبانهمْ رَشفتْهم ... حصَى برَد فيه مجاجةُ صرخد

وعاقر الخمر و وجد طلبته منها فى الدساكر ، وهو الوحيد الذى نجد عنده تصويراً لصاحب الحان وتحليلا لخلقيته .

وهو أول شاعر يصرح بنوع من الحياة الاجتماعية لم نسمعه عند غيره بصقلية إذ يجعل المسجد مجالا للقاء المحبوب لا للعبادة والدرس وحدهما :

يا حبذا المسجد الذى جمعة ... نا فيه مقصورةٌ إلى العصر
ما كان إلا بستان تلهيـة ... لولا مراعاةُ حُرمة الشهر

أما القاعدة العامة عنده فى معاملة الناس فهى الصبر حتّى ينبض الماء من الحجر والرفق فى القول والعمل . ومما قلل النقد فى شعره للحياة الاجتماعية إيمانه بقلة الاكتراث وعدم الاهتمام بالأمور التى لا تعنيه مباشرة ، وعدم التعمق والتحقيق مع الناس والرضى منهم بالمجاز . وصفات الرفق واللطف والرقة تتجلى فى واقعه العملى أكثر من صنعته الشعرية .

وإذا استنجز عدة تأخرت رأيته يترفق فى التذكير بها واجتلاب الانتباه إليها ، كقوله يستنجز انتصار الدولة حاجة وعده بها :

وقائل قال لى أبشرْ بمنجحة ... إن الأمير كريمٌ قال فانتصرا
ما حاجةٌ هى أولى أن تفوز بها ... من حاجة منحتّها عينهُ نظــرا
إذا ابن مستخلص الإسلام قام بها ... فاقعدْ فإنك قد وليتّها الظفرا
ألقيتّها منه فى سرّ يجولُ بــه ... إذا تناسيتّها مستبطناً ذَكرا

وقد جعلته صلته بالملوك جباناً يفرق من نقد الحياة السياسية والاجتماعية ، ومن حكمه فى هذا الشأن قوله :

إن سبّ الملوك من شعب المو ... ت فإياك أن تسبّ الملوكا
إن عفوا عنك بالذنوب أهانو ... ك وإن عاقبوا بها قتلوكا

٧
صنعته الشعرية

أما فى صنعته الشعرية فإنه لا يحفل كثيراً باللطف والرقة ، وهو أقدر على تصوير المناظر العنيفة منه على تصوير المناظر الهادئة .

ومع ذلك فهو شغوف بوصف الحديث وسحره وجماله ، أى هو شغوف بالرقة التى تنساب فى الكلام ؛ وأوصافه للحديث ليست بشىء لأنها تقليد لشعراء

معروفين كبشار وابن الرومى ولا يزيد عن وصف الحديث بأنه رطب يانع أو خمر معتقة أو فاكهة رطبة .

فهل يكون شغوفاً بالرقة فى الحديث لأنه لا يستطيع أن يسيطر على الموسيقى فى ألفاظه ؟ استمع إليه يقول :

والحديث الذى يهزّل منـــه   فى الهوى أريحيةٌ النشوان

أو يقول :

ما ضرّ من قتهُ حديثك أنْ   يحرَمَ قوتــاً بقية العمـــر
اللحظُ راحٌ واللفظُ فاكهـــةٌ   والخـــد رامشنةٌ من الزهر

فهل هذه العبارات التى تجىء فيها « يهزل » « وقته » « ورامشنة » وهل تكرير عبد السوء فى قصيدة سابقة مما يدل على كلف باللفظ الجميل ؟ ومع ذلك فليست كل أشعاره تسودها هذه الظاهرة من الإهمال فى الموسيقى اللفظية ولا نستطيع أن نقول إن الخشونة هى الطابع العام فى شعره .

وهو فى صناعته قادر على أن يخلق جواً عاماً كما رأيت فى صورة السنابل وهناك قصيدة يمكن أن نتخذها مفتاحاً يقودنا إلى طريقته فى تأليف الشعر وتلك القصيدة هى :

ليس إلا تنفسٌ الصعـــداء   وبكائى ، وما غناءُ بـــكائى
منْ رسولى إلى السماء يؤدى   لى كتاباً إلى هلال السماء
كيف يرقى إلى السماء كثيفٌ   يسلك الجسمَ فى رقيق الهواء
عجزَ الإنس أنْ ترقى إليهـــا   فعسى الجن أنْ تكون شفائى
أم ترى الجن تتقى شهب الرجـ   ـم فدعنى كذا أموت بدائى

ليس فى هذه القطعة حلاوة موسيقية ، وإنما فيها وحدة وتسلسل ، فالشاعر يعلن العجز ويتنفس الصعداء لعل أنفاسه تكشف عن حاله لهلال سماوى فتن به ،

ولكن أنفاسه لن تبلغ إلى هنالك لأنها أعجز من أن تقطع هذه المسافة الطويلة فأين الرسول الذى يقطعها ؟ ولكن الرسول الإنسى كثيف ، وكيف يمكن للكثيف أن يرقى فى الهواء الرقيق — لا شك أنها محاولة مخفقة ، فليلجأ الشاعر إلى الجن ، إلى مادة نارية رقيقة غير كثيفة ، ولكن أليس الجن قد حرمت عليهم معارج الرقى إلى السماء وشهب الرجم تتلقاهم بالموت ، إذن فماذا بقى ؟ لا الإنس يستطيعون ذلك ولا الجن يقدرون عليه فليبق الشاعر حيث هو يتنفس الصعداء ويرسل الدموع الحارة فذلك هو كل نصيبه فى الحياة .

وتسأل لمَ اختار الشاعر بناء هذه الصورة بهذا التدريج الذى لا تجد فيه ثغرة ؟ لأن أمامه فكرة معينة لا يريد أن يتخلى عنها وهى أن حبيبه هو " هلال السماء " .

وأحياناً تتميز قصيدته بالاندفاع الذى يسوق فى طريقه انسجاماً عاماً فى التعابير ، وتفارق الشاعر خشونته إلا قليلاً ، كما فى هذه المقدمة الغزلية لقصيدة هنأ بها ابن ثقة الدولة بالسلامة من الجدرىّ وفيها يقول [١] :

لا يطمعنك فى السلوّ تكهلى	أنا من علمت على الغرام الأول
إن كان غرّك ذا الوقار فإنه	كالطيب يعبق فى القميص وقد بلى
نسك نصبت به حبالة مطعم	متعود قنص الغزال الأكحل
ولرب مأربة لبست لها الدجى	وقضت بها وطراً لطافة مدخلى
أسرى كما تسرى النجوم لحاجتى	والناس بين مدثر ومزمل

(١) عنوان الأريب ١ : ١٣٣ .

الفصل الرابع

هجرة الشعر من صقلية

١ – هجرة العلم والشعر إجمالا

هجرة العلم والشعر إجمالا

فى خلال السنوات الثلاثين التى تم فيها الفتح حدث أول أثر مباشر فى الحياة العقلية والأدبية بالجزيرة فإن عدداً كبيراً من العلماء والأدباء والصالحين غادر الجزيرة على دفعات — بعضهم فرّ فزعاً من أول هجوم ، فخرجوا كما خرج ابن الصفار" فارين بمهجهم تاركين لكل ما ملكت أيديهم "، وبعضهم هاجر حين رجع أسطول ابنى تميم ويئسوا من صلاح الأمر بعد فساده ، وبعضهم تسلل من بعدُ ، حين سنحت له الفرصة. ولا شك فى أن الحرب نفسها قد قضت على بعضهم فقتلوا أو ماتوا وخاصة لما انتشر الوباء فى بلرم ، وفريق منهم آثر الإقامة فى بلده (١).

واختلفت وجهات المهاجرين فذهب جماعة إلى الأندلس ولكن أكثرهم حل فى شمال إفريقية ووصل كثيرون إلى مصر. ولا شك فى أن كثيراً من الذين توجهوا إلى المشرق كانوا يضعون نصب أعينهم حقيقتين بارزتين ، أولاهما أن صقلية كانت ذات يوم ولاية تدين بالتبعية لمصر ، وثانيتهما أن مكة كانت مهوى أفئدتهم ، ولا يستغرب أن تكون الدوافع الدينية هى التى دفعت بكثير منهم فى ذلك الاتجاه ، حتى لقد جاور بعضهم فى مكة فى ظل الدين الذى كان يفيء على حياة المسلمين جميعاً ، وتمحى فى رحابه الحدود الجغرافية . وعاش الصقليون فى خارج بلدهم يتابعون تلك الدراسات التى كانوا قد قطعوا فيها مرحلة طويلة ، وأنشأوا لهم مدارس أدبية وفقهية ولغوية أينما حلوا (٢) ، فامتاز الصقليون فى مصر بجهودهم فى النحو واللغة والقراءات فى كل من الإسكندرية والقاهرة ؛ وتمتاز هذه

---

(١) Amari : S.D.M. vol, 3, p. 169.

(٢) ليس من منهج البحث أن أتناول بالدرس جهود هذه المدارس الصقلية فى الخارج بالتفصيل ، وهذا القدر هو الذى يتمشى مع الكيان العام للمنهج .

الحركة بما خلفوه من مؤلفات وخاصة ابن القطاع فى اللغة والنحو والعروض [١] وابن الفحام فى القراءات وأبو الحسن الصقلى فى النحو والعروض . ولم تذكر المصادر مؤلفاً معيناً لأبى الحسن ولكنى أظن أنه ترك فى اللغة كتاباً أوكتبا ينقل عنها ابن منظور فى اللسان[٢]. كما أن آراء ابن القطاع اللغوية مبثوثة فى تاج العروس وهى فيما يظهر نقول من كتابه فى الأفعال .

أما ابن الفحام فألف فى القراءات كتاب التجريد فى بغية المريد [٣] حتى قال فيه بعض معاصريه" ما رأيت أعلم بالقراءات منه لا بالمغرب ولا بالمشرق وإنه ليحفظ القراءات كما نحفظ نحن القرآن" [٤] . وعند السلفى صورة واضحة عن هؤلاء الصقليين بمصر وعن ألوان نشاطهم الثقافى قد لا نجدها فى مصدر آخر .

وفى إفريقية أتم المازرى عمل المدرسة الصقلية فى الفقه والحديث واشتهر فى التدريس حتى قصده الطلبة من نواح كثيرة فى الأندلس وإفريقية [٥] ودخلت تعاليمه وكتبه بلاد الأندلس مع تلامذته منها ، وكاتبه بعضهم يستجيزه كتبه ، وممن أجازهم القاضى عياض ، وتخرج عليه من أهل إفريقية جماعة أصبحوا أعلاماً فى المذهب ، وقصدوا للتدريس فى المهدية وقابس وتونس وغيرها . وشهد له بالتفوق والذكاء رجال من غير مذهبه قال السبكى فيه « أما المازرى . . . فكان من أذكى المغاربة قريحة وأحدهم ذهناً، بحيث اجترأ على شرح البرهان لإمام الحرمين ، وهو لغز الأمة الذى لا يحوم حول حماه ولا يدندن حول مغزاه

---

(١) من مؤلفاته الموجودة كتاب الأفعال طبع كلكتا فى ثلاثة أجزاء ، وفى معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة من كتابه البارع فى العروض .

(٢) انظر مادة « فدن » و « حمى » فى اللسان .

(٣) فى دار الكتب المصرية نسخة من هذا الكتاب .

(٤) السلفى : الورقة ١٠٨ .

(٥) للمازرى ترجمات عدة منها فى الديباج ص ٢٧٩ وفى ازهار الرياض ٣/٦٥ ، وخير ما يصور أثره فى المغرب وكثرة تلامذته التكملة لابن الأبار فتحت أرقام كثيرة فيها وردت أسماء تلامذته (انظر مثلا رقم ٢٧٥ ، ٦٣٠ ، ٦٧١ ، ٧٤٦ ، ٧٥٠ ، ٧٧٠ ، ٨٩١ ، ١٦٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٥١٢ . . . إلخ) .

إلا غواص على المعانى ثاقب الذهن مبرز فى العلم [١] » .

وكان المازرى على وجه الإجمال مالكياً أشعرياً متشدداً « مصمماً على مقالات الشيخ أبى الحسن الأشعرى رضى الله عنه — جليلها وحقيرها كبيرها وصغيرها لا يتعداها ويبدع من خالفه ولو فى النزر اليسير والشىء الحقير »[٢] . وقد خالف الجوينى أبا الحسن فى مسألة ليست من القواعد المعتبرة فقال عنه فى شرح البرهان من خطأ شيخ السنة أبا الحسن الأشعرى فهو المخطىء [٣] . وخير ما يصور روحه فى الدرس والبحث وقفته من الجوينى فى شرح البرهان ونقده للإمام الغزالى فى الاحياء ، ولا ندرى إن كانت هذه الروح الشديدة المحافظة هى روح المازرى وحده أو هى طابع مغربى صقلى ، وعلى أى حال فقد رأينا المحافظة والتشدد يغلبان على مدرسة الفقه والحديث بصقلية [٤] .

أما الذين هاجروا إلى الأندلس فكانت تغلب عليهم صبغة الشعر ، وليس ذلك لتقارب بين البلدين فى المذهب الشعرى ، وإنما هو بتأثير من بعض الأمراء الأندلسيين وخاصة ابن عباد ، ممن كانوا يجزلون الهبات للشعراء .

ولا بد من أن نجمع فى الذهن صورة عن تلك التقلبات فى الحوض الغربى من البحر المتوسط ونستعيد الأحداث التى وقعت على أثر النهضة الأدبية فى الأقطار الثلاثة : إفريقية — صقلية — الأندلس . ففى بلاط المعز بن باديس كان الشعر الإفريقى فى أقوى أحواله نشاطاً وحركة ولكن لم يمض وقت طويل حتى خربت القيروان وتفرق شعراؤها فغذوا الحياة الأدبية فى كل من صقلية والأندلس — وقت أن كان حظ الشعر فى هذين القطرين آخذاً بالصعود ولم يمض إلا سنوات حتى سقطت صقلية فإذا بكثير من شعرائها ينتقلون إلى الأندلس

(١) السبكى : طبقات الشافعية ٤/١٢٤ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) انظر المقالات القيمة التى نشرها الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب باشا عن المازرى مجلة لواء الإسلام عدد ٨ ، ٩ ، ١٠ من سنة ١٩٤٩ وانظر العيد المئوى لميلاد أمارى .

ويزيدون فيها من نشاط الحياة الأدبية . وهذه الصورة من التنقل هي القاعدة التي تفسر الشعر في المغرب أثناء القرن الخامس . وعلى هذا الاعتبار تكون صقلية الأدبية حلقة في سلسلة كبرى . أما مادة هذه الحلقة — حديدية كانت تلك المادة أو ذهبية — ففيها أثر من الصياغة المشرقية ؛ والشيء الغامض في هذه الحياة الأدبية بصقلية هو مدى تأثرها بالأندلس نفسها .

أما أشهر الشعراء المهاجرين من وجهة عامة فهم ابن حمديس وأبو العرب الصقلي وابن أبي البشر البلنوبي الصقلي ، والثالث بين هؤلاء توجه إلى المشرق وقد تقدمت الإشارة إليه بين من نزلوا مصر وزاولوا فيها الدراسات اللغوية والنحوية . ولكنه كان إلى جانب ذلك شاعراً وإذا استثنينا ابن حمديس كان شعره أكثر ما وصلنا لشاعر صقلي إذ يشمل الجزء المتبقي من ديوانه وجزءاً آخر اختاره العماد في الخريدة وجزءاً ثالثاً في مختصر الدرة وغيره ، ولكن في دراسة هذا الشعر على أنه صقلي حيفاً على دقة البحث ، إذ لا نلمح فيه أي ذكر أو إشارة لصقلية من ناحية ، كما أن الطابع الفني العام فيه مفارق لسائر الشعر الصقلي ، من ناحية أخرى . إنما من الطبيعي أن يدرس البلنوبي في ظل بيئات جديدة عاش فيها ، وفي ظل ثقافته اللغوية النحوية العروضية . والشعر الذي بقي له كله في المدح والغزل وقصيدة واحدة في رثـــاء أمه التي توفيت بمصر . وممدوحوه كبني الموفقي واليازوري وعز الدولة وابن المدبر ورئيس الرؤساء كلهم من المشارقة . ومن المظاهر البارزة في شعره الرقة في الأسلوب إذا قورن بالشعر الصقلي عامة ، واعتماد بعض أنواع من البديع . ومن المؤثرات التي تركها فيه تدريس العروض اعتماده أحياناً بناء القصيدة لتقرأ على عدة أوزان وهو الصقلي الوحيد الذي يحاول ذلك . أما دراسة اللغة والنحو فجعلته يوجه اهتمامه إلى محاولات تافهة من مثل الألغاز بالأسماء ، وجمع حروف المعجم في بيت واحد . ولكن شعره عامة غير خاضع لنظرة عامة كونية وقد تستخلص منه وحدة تقع تحت عنوان اللذة ولكنها لذة تتبدد بها النزعات المتضاربة وتمسخ منها ، فهي حيناً لذة الفاتك وحيناً لذة العفيف

ومن هذه الحيرة بين ما تمليه الشهوة وبين ما تحد منه قلة التجربة يقع الشاعر فى التناقض البين . فقد يصور لك فى قصيدة من شعره أنه عفّ وغضّ طرفه وقبل الكأس محمولاً على التشبيه والتمثيل [١] :

قبلت خدّ الكأس محمولا على الـ تشبيه أو ضرباً من التأويـل
بالرغم منى أن أصادف بغيتى وأعود منها راضياً ببديـل
وغضضت من بصرى ولو أطلقته لعلمت أين مواقـع التقبيـل

ثم ينسى هذا التعفف الذى دفع إليه دفعاً بعد بيت واحد أو بيتين وإذا هو ينال كل ما اشتهاه ، فيقبل الحبيب ويعانقه بعد ما أظهر الندم على ما حرمه . وبين هذا الحرمان الواقعى والنيل المتخيل يقع الشاعر فى التناقض ، لأنه يبنى من الأحوال التى يعالجها غيره واقعاً لنفسه لم يتحقق .

ولكن صقلية تتجسم فى شعر أبى العرب — بعض الشىء ، وإن كنا حرمنا الشعر الذى قاله هذا الشاعر فى صقلية إذ لم يصلنا إلا بعض القصائد التى قالها فى الأندلس وهى على قلتها ترسم لأبى العرب حدود شخصية واضحة — شخصية الشاعر الجاد الذى تسيطر عليه الفخامة والقوة . وهو فى هذه الناحية وفى إيمانه بالخمر يشبه ابن حمديس ولكنه يفارقه فى النظرة الوطنية . فكلا الرجلين تلقى ضياع الوطن تلقياً يتفق مع نفسيته . فقد اجتمعت عوامل كثيرة على أن تحرم ابن حمديس كل عزاء بعد ما غلبه اليأس من العودة إلى وطنه . أما أبو العرب فإنه أظهر التجلد وتعزى عن هذا الوطن ، وأغلق باب التصريح دون حزنه فلم يبد إلا فى فلتات قليلة نتبينها فى مثل قوله [٢] :

وهل فى ضمير الدهر للقرب عودة فنغنى كما كنا أم الصبر أعود
ليالى ترضينا الليـالى كأنهـا إلينا بإهـداء المنى تتـودد

---

(١) مجموعة الشعر رقم ١ ص ٥ .

(٢) مجموعة الشعر رقم ٦٢ من الترجمة .

وذهب يقنع نفسه — كما سبق أن أشرت — أن الأرض كلها وطن ما دام أصله من تراب ، وشغل نفسه حيناً بالتدريس، فكان فى كل تلك المحاولات ما يسليه قليلا .

ولكن سقوط صقلية بعد إخفاق ابن عباد فى سرقوسة ونوطس ووقوع الجزيرة فى يد النورمان خلق ابن حمديس خلقاً جديداً، ولم تستطع تلك الهجرة أن تنسيه صقلية ، فظل يحن إليها طوال حياته ؛ فإلى ابن حمديس شاعر صقلية أوجه الاهتمام فى الفصل التالى .

الفصل الخامس

ابن حمديس أثر من آثار الفتح

١ ـ مجمل حياته

٢ ـ الشعر الصقلى فى ديوانه

٣ ـ تحليل قصيدتين صقليتين له

٤ ـ أثر صقلية فى نفسه وشعره

١

مجمل حياته

كان ابن حمديس سرقوسى الأصل ، وربما لم يكن يزيد عمره ، حين سقطت بلرم ، عن سبعة عشر عاماً . وفى هذه السن الباكرة شهد صقلية تضيع من أيدى المسلمين بلداً بعد آخر ، وشهد ما هو أبعد أثراً من ذلك فى نفسه ، فقد حضر طرفاً من وقفة وطنه وعناده للنورمان مع ابن عباد، واشترك هو نفسه فى الدفاع عن ذلك الوطن ، فهو يحدثنا عن المعارك البحرية التى كان يخوضها أهل بلده فيقول فى إغراقهم لسفن الأعداء [١] :

صَبَبنا عليها ضرْبنا من صَوَارم ... فغاصت بهامن أسرها القلب أنفس
ونحن بنو الثغر الذين سيوفهمْ ... ذكورٌ بأبكار المنايا تعرسُ
فمن عزمنا هنديةُ الضرب تنتضى ... ومن زَندنا نارّيةُ البأس تقبسُ

وفى سرقوسة وهب شبابه للحب والحرب والتمتع بالحياة ولذائذها ، فكان يخرج مع صحبه إلى الحانات أو الأديرة ليشرب الخمر ويسمع الغناء وينعم بمناظر الرقص؛ وترك هذا اللون من حياة الفروسية أثره العميق فى نفسه وخاصة وأنه لم يرو غليله منه . وفى أثناء هذه الفترة من حياته ببلده توفى جده وهو يرسم حياة مناقضة نقيضاً مفارقاً لشبابه العارم، إذ توفى عن ثمانين عاماً قضاها فى النسك، وكان هو الشخص الوحيد من أقربائه الذى استطاع أن يودعه قبل أن ينزل فى قبره [٢] :

تنسك فى بـرّ ثمانين حجـة ... فياطولَ عُمر فر فيـه إلى الربّ
ضممتُ إلى صدرى بكفّى صَدْره ... وأسندتُ مخضرّ الجناب إلى الجنب ،

(١) الديوان : القصيدة رقم ١٦١ .
(٢) الديوان : القصيدة رقم ٢٨ .

تبركت الأيدى بتســوية الثرى   على جبل راسى الأناة على هضب

ولم يكن قد تجاوز الرابعة والعشرين حين غادر صقلية وذهب يصحب العرب فى الصحراء الإفريقية سنة ٤٧١ ؛ ولعله فى هذه الفترة من حياته اتصل بالأمير تميم ومدحه، وربما كان يشير إلى ذلك بقوله فيما بعد يخاطب الحسن بن على [١] :

ومدحت غلاماً جــدّ أبيـ   ـك وها أنا ذا شيخــاً يفنا

ونحن نجهل كل شىء عن سبب هذه الرحلة أما ما ظنه أمارى من حادثة غرامية أخرجته عن وطنه مستمداً ذلك الظن من إحدى قصائده [٢] فقد صححه فيه البارون فون شاك إذ ليس فى القصيدة المشار إليها أى تلميح إلى مثل ذلك الحادث .

وإذا صدقت الروايات فإنه فى العام نفسه انتقل من إفريقية إلى الأندلس ودخلها سنة ٤٧١ ﻫ أيضاً . وفى التكملة [٣] أنه لما دخل الأندلس امتدح جماعة من ملوكها ثم صار من بعد إلى إشبيلية حيث المعتمد بن عباد ، وهذا يفيد أنه مدح جماعة آخرين قبل اتصاله بالمعتمد، مع أن ديوانه يكاد يقطع بأنه قصد المعتمد دون أن يعرج على غيره . وهو يحدثنا أن المعتمد أقام مدة لا يلتفت إليه ولا يعبأ به ، حتى كاد يستولى عليه اليأس وهم بالنكوص على عقبه . وهذه نقطة هامة لأنها تدلنا على أن المعتمد لم يستدعه كما استدعى أبا العرب وابن رشيق والحصرى وغيرهم . وبينما كان اليأس قد أخذ يدب إلى نفسه، جاءه غلام يحمل شمعاً ومركوباً ويدعوه لمقابلة المعتمد ، فلما وصل إليه أجلسه على مرتبة فنك ، وأراه منظراً وامتحن به قدرته على إجازة الشعر ومنحه جائزة سنية وألزمه خدمته [٤] .

(١) الديوان : القصيدة رقم ٣٢٠ .
(٢) القصيدة رقم ٢ فى الديوان .
(٣) الترجمة رقم ١٧٨٣ .
(٤) انظر مقدمة القصيدة رقم ٣٤٤ فى الديوان .

وفى هذه الفترة التى استمرت ما لا يقل عن ثلاثة عشر عاماً ذهب ابن حمديس يطيل قصائده فى المعتمد، ويذكر جهاده وانتصاراته على الفرنجة، ويصف المعارك التى كان يخوضها، ويشارك فى حياة الأندلس اللاهية فيحضر الدعوات ويخرج إلى المتنزهات ويشرب الخمر ويلهو مع اللاهين ويتبارى مع المتبارين فى صياغة الشعر .

وكانت سرقوسة التى خلفها وراءه لا تزال تجاهد ، وابن عباد الصقلى يغزو قلورية ويكسب نصراً بعد نصر ، وكل شىء من أحداث الوطن يزيد فى الأمل ويجعل أوبة المغترب أمراً ممكناً ، وابن حمديس فى المجالس وبين الناس يضحك للحياة وينال من طيباتها، فإذا خلا إلى نفسه تذكر صقلية ورجح الشك عنده على اليقين ، وكان يعكر عليه صفاء الحياة ما يرد عليه من أنباء أصحابه الذين قتلوا ولداته الذين خطفتهم المنية، وأقربائه الذين صرعتهم الحروب. وفى غمرة من تلك الغمرات اللاهية وصلته رسالة من وطنه تحمل إليه النبأ بوفاة أبيه وبأنه قبل وفاته كتب له رسالة يوصيه فيها بالبر ويحضه عليه . وفزع ابن حمديس للنبأ وزاد فى حزنه إحساسه بأنه غريب، واجتمعت فى نفسه عواطف الغريب الذى فقد شخصاً من أحب الناس إلى قلبه ، فرثى والده بقصيده باكية كانت أول الغيث من تلك الدموع التى ظل يبكى بها الوطن طوال حياته :

أتانى بدار النوى نعيه ... فيا روعةَ السمع بالداهيه
فحمر ما ابيض من عبرتى ... وبيضَ لمتىَ الداجيه
بدار اغتراب كأن الحياة ... لذكر الغريب بها ناسيه
فمثلتُ فى خلدى شخصَهُ ... وقربت تربته القاصيه
ونحتُ كثكلى على ماجد ... ولا مسعدٌ لى سوى القافيه
وما أنس لا أنس يوم الفراق ... وأسرارُ أعيننا فاشيه
ورحتُ إلى غربة مرّة ... وراح إلى غربة ساجيه
مضى وهو منى أخو حسرة ... تمازج أنفاسه الراقيه

فلم يبك فى القصيدة أباه بمقدار ما بكى نفسه، ولم يتأثر لموت أبيه بمقدار ما أثر فى نفسه أنه لم ير أباه قبل الموت . وفى هذا الحزن الجارف تمثل تلك الصورة المحبوبة لديه ، وتذكر يوم الفراق ، وحسرة أبيه وهو يودعه ، كأنما كان يحس من يومئذ أنه يودعه إلى الأبد .

ولكن ابن حمديس لم يغادر الأندلس بل ظل يمدح ابن عباد متكئاً فى مدحه على ما كان يعده أكبر حقيقة لديه ، إذ أخذ يذكره أن تعلقه به شديد وأن حبله به وثيق لم يقطعه موت أقربائه فى الوطن، ولم يجذّه موت أبيه، وكان حقيقاً به أن يرجع ولكن لطف ابن عباد قيده [1] :

وكم حوى الترب دونى من ذوى رحمى	وما مقلتُ لبعدى منهم أحدا
ولم يسرّنى من مثواكَ موتُ أبى	وقد يقلقلُ موتُ الوالد الولدا
وما سددتَ سبيلى عن لقــائهم	لكن جعلتَ صفادى عنهم الصّفدا
وحسن برّ إذا فاضَتْ حــلاوته	على فؤادىَ من حرّ الأسى بردا

فى هذه الفترة من حياته كان يشيد بانتصارات قومه ويمدحهم ويحضهم على مواصلة القتال ويحذرهم الغربة، وينصحهم بالاعتماد على أنفسهم، فإنه لن يغنيهم تطلعهم إلى الناس . ولكن صقلية سقطت فهز سقوطها قلبه ، ولم يكد يفيق من هول الصدمة حتى رأى نفسه يقف إلى جانب ابن عباد الأسير فى أغمات، وكأنما شعر بصقلية تسقط مرتين، وربما كان فى المرة الأخيرة حادث انكسار المركب به أثناء خروجه من الأندلس وغرق جارية له تسمى جوهرة . وهو يشير إليها فى كتاب كتبه إلى ابن عمته أبى الحسن بعد أن كتبت له السلامة [2] :

ألمْ أكُ فى الغرق مشيراً براحتى	فلم أنجُ إلا من لقاء حمامى
ألم أفقد الشمس التى كان ضوءها	يجلّى عن الأجفان كلّ ظلام

---

(١) القصيدة رقم ١٠١ .

(٢) الديوان : القصيدة رقم ٢٨٢ .

طمعت بهذا كله فى لقائكم   لتغرم نفسٌ أتلفتْ بغرام

وأقام فى أغمات مدة قريباً من المعتمد واتصل بأبى القاسم قاضى سلا [١] ومدحه، ولكن مقامه لم يطل وعاد إلى المهدية — إلى الأمير تميم فمدحه ومدح ببجاية المنصور بن الناصر بن علناس ، ثم اختص بمدائحه بعد تميم ابنه يحيى وعلى بن يحيى والحسن بن على . وفى هذه الفترة الطويلة يجد الدارس قصائد تصور العلاقة بين صقلية النورمانية وشمال إفريقية ويستشف منها كيف وقفت الأيام بابن حمديس وقفة من يهاجم أعداء بلده لا بالسيف والرمح ولكن بالشعر .

وطال به العهد فى إفريقية فى ظل بنى باديس وغيرهم، وظل يتردد ما بقى من عمره الطويل بين المهدية وبونة وبجاية وميورقة وفقد بصره فى أواخر حياته [٢] وأصبحت العصا ضرورة لازمة له ، ومرة نراه يدخل على كرامة بن المنصور صاحب بونة ، وهو كفيف البصر ، فيقول له كرامة : كيف حال الشيخ فيجيبه كيف حال من كان صاحب عينين فصارتا غينين فقال له كرامة : "خذ هذه العصا وتعكز عليها" فمد يده فوجد غلاماً باعه بعد ذلك بثلاثين ديناراً [٣] . ومع ذلك فإنه لم يشر إلى فقدان بصره فى شعره ؛ وفى الثمانين من عمره كان نشاطه الفنى لا يزال قوياً — على ضعفه وشيخوخته — فكم رثى من أناس ماتوا وهو فى تلك السن ، وكم نظر إلى الثمانين وهو لا يصدق أنه بلغها ، وكأن رثاءه للناس كان رثاء يمهد به للبكاء على نفسه؛ وكأن توقد الشعلة فى ذلك العام كان إيذاناً بانطفائها وفناء ذلك « العنصر » الحساس . وفى شهر رمضان عام ٥٢٧ توفى ودفن ببجاية . أما القول بأنه دفن فى ميورقة بجانب ابن اللبانة [٤] فخلط بينه وبين أبى العرب الصقلى، لأن أبا العرب هو الذى دفن بميورقة إلى جانب الشاعر المذكور [٥]

---

(١) الديوان : القصيدة رقم ٣٥٦ ورواية الذخيرة أكمل .

(٢) أشار ابن خلكان إلى أنه عمى انظر المكتبة : ٦٢٦ ورواية السلفى تؤيد ذلك .

(٣) السلفى : المعجم المجلد الثانى الورقة ٢٨٢ .

(٤) هو نص ابن خلكان فى المكتبة : ٦٢٦ .

(٥) التكملة : الترجمة رقم ٥١١ وفيها أن أبا العرب كان طوالا وابن اللبانة دحداحا .

٢

الشعر الصقلى فى ديوانه

أربعة وعشرون عاماً فى صقلية — تلك هى كل الفترة التى عاشها ابن حمديس فى وطنه، على التحقيق، أما إذا شئنا المجاز قلنا إنه عاش كل حياته فى ذلك الوطن — أى فى ظل تلك الأعوام التى وعى ذكرياتها وأحداثها . وقد كانت تلك السنون هى عصر الشباب ، وفى ذلك العهد تكونت النواة الأولى لشاعريته فشعره فى صقلية إبان الصبا هو شعر الفارس المحارب الذى يلتفت إلى آلات الحرب والسفن الحربية ويعتز بالقوة ويحب فيكون حبه عارماً وشهواته فاتكة، ويتردد بين عنف الحرب ، ورقة الحب . وهذا ما نلمسه فى قصيدة له من ذلك العهد مطلعها [١] :

لىَ قلب من جامد الصخر أقسى وهو من رقة النسيم أرق

وفى هـذا الشعر الذى قاله فى الصبا فخر بالضرب والطعن وبالفتك الشهوانى ، وهى نشأة عارمة تمثلها لك القصيدة التالية [٢] :

وذات ذوائب بالمسك ذابت بلغتُ بها المنى وهى التمـنى
منعمة لهـا إعزاز نفس يصرفُ دلهـا فى كل فن
شموسٌ من ملوك الروم قامت تدافع فاتكاً عن فتح حصن
بخد لاح فيـه الوردُ غصناً وغصنٌ ماسَ بالرمان لـدن
فطالت بيننا حربٌ زَبـون بلا سيف هناك ولا مجنّ
وفاضت نفسها الحمراء منها وفاضت نفسى البيضاء مـنى

(١) القصيدة رقم ٢٠٢ ويجرى معها من قصائد الصبا رقم ١٦١ ، ٣٠٦ وأظن أن ٢٤٣ من ذلك العهد . أما القصيدة رقم ٤٩ فتشير إلى غزوة أندلسية .

(٢) القصيدة رقم ٣٠٦ .

فى هذا الشعر — والشعر الذى قاله فى صباه عامة — قوة الشباب واندفاعه وحرارته وحدة شهواته وصوره المستمدة من حياة القتال ومن دفاع الروم ومن مهاجمة الحصون. وقد ظل ابن حمديس عاكفاً على هذه الصور يحبها لأنها كانت جزءاً من شبابه ؛ وبعد أن خفت صوت الشباب عنده ، ظل قوى الشعور جارف الرغبات ، يكلف بوصف المعارك البحرية خاصة .

وقد بقى ثمانى سنوات بعد خروجه من صقلية وهو يعلق أملا كبيراً على جهاد ابن عباد الصقلى وبنى حمود بقصريانة وجرجنت ، ويتوقع أن يكلل جهادهم بالنصر فى النهاية . وكانت هذه الفترة كلها فى الأندلس وفيها نظم قصائده « الصقليات » وهو فى طور مزهر بالآمال ، وفيها أيضاً نظم القصائد التى يبكى فيها صقلية إثر سقوطها مباشرة [١] .

وفى القصائد التى كانت فى عهد الرجاء نجده يفتخر بقومه « بنى الثغر » الذين يغذى فطيمهم من حلب الأوداج ، ويثنى على شجاعتهم وحربهم للروم فى البر والبحر ، ونكاية سفنهم ونفطها المحرق فى أعدائهم ، ويقر لعدوه بالقوة شأن الفارس الذى لا يفخر فخراً كاذباً :

ومتخذى قمص الحديد ملابساً ... إذا نكل الأبطال فى الحرب أقدموا [٢]
كأنهم خاضوا سراباً بقيعة ... ترى للدبا فيها عيوناً عليهم
صبرنا لهم صبر الكرام ولم يسغ ... لنا الشهد إلا بعد ما ساغ علقم

وفى كل قصيدة من هذه القصائد « خاتمة حنين » إلى الوطن هى أضعف ما فى القصيدة من حيث النفسية :

أحنّ إلى أرضى التى فى ترابها ... مفاصلُ من أهلى بلين وأعظمُ
كما حنّ فى قيد الدجى بمضلة ... إلى وطن عودٌ من الشوق يرزمُ

---

(١) القصائد التى نظمها فى دور الأمل بنجاح المقاومة هى ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ والقصائد التى قالها يبكى الوطن إثر سقوطه هى ١٥٧ ، ٢٣٨ ، ٢٧ (بعد سقوطه بسنين) .
(٢) رقم ٢٦٩ .

ونراه فى قصيدة أخرى يحرض « بنى الثغر » على الجهاد ، ويدعوهم إلى أن يتركوا النوم ، وأن يردوا وجوه الخيل نحو معركة تتكشف للروم عن ثكل ويتم ، ويصولوا عليهم بالسيوف، وينفذ من ذلك إلى تذكيرهم بحق الوطن وعلوه على كل بلد آخر [١] :

ولله أرض إن عدمتم هواءها	فأهواؤكم فى الأرض منثورة النظم
وعزكمُ يفضى إلى الذلّ والنوى	من البين ، ترمى الشمل منكم بما ترمى
فإن بلادَ الناس ليست بلادكم	ولا جارها والخلم كالجار والخلم
أعن أرضكم يغنيكمُ أرضُ غيركم	وكم خالة جداء لم تغن عن أم
أخلى الذى ودى بــود وصلته	لدى كما نيط الولى إلى الوسمى
تقيدْ من القطر العزيز بموطن	ومتْ عند ربْع من ربوعك أو رسم
وإياك يوماً أن تجرب غربــة	فلن يستجيز العقلُ تجربةَ السمّ

وفى هذه القصيدة يتكئ ابن حمديس على قوته الخطابية ، ويستفيد من تجربته التى عرفها فى الحياة — تلك الغربة أو ذلك السم الذى ذاقه ، ولا يريد لغيره أن يجربه ، ولذلك يحرض أخاه فى الوطن أن يموت مدافعاً عن وطنه ، فذلك أجدى عليه من الضرب فى بلاد الناس. ولا ندرى أى روح أشاعتها هذه النصائح فى نفوس السرقوسيين ، وأى قوة بعثتها فى دمائهم ، ولكن الذى ندريه حقًّا أن هذه النغمة لم تطل، فلم تلبث سرقوسة أن سقطت، وغرق ابن عباد الذى كان يحيي الأمل فى نفس الشاعر ، وسقطت قصريانة وغرقت الأحلام التى كانت تراوح ابن حمديس وتغاديه فى كأس من اليأس ، وسقطت دمعة كان يحبسها وتحدثه نفسه أن اليوم الذى يذرفها فيه لم يحن بعد [٢] :

أعاذل دعنى أطلق العبرة التى	عدمتُ لها من أجمل الصبر حابسا

(١) رقم ٢٧٠ .

(٢) رقم ١٥٧ .

لقد رُمْتُ أرضى أن تعودَ لقومهـــا	فساءت ظنونى ثم أصبحتُ يائسا
وعزّيتُ فيها النفس لما رأيتهـــا	تكابد داءً قاتل السمِّ ناحسا
وكيف وقد سيمتْ هواناً وصيرَتْ	مساجدَها أيدى النصارى كنائسا
إذا شاءت الرهبانُ بالضرب أنطقتْ	مع الصبح والإمساء فيها النواقسا
صقليةٌ كاد الزمانُ بلادَهــا	وكانت على أهل الزمان محارســا
فكم أعين بالخوف أمستْ سواهراً	وكانت بطيب الأمن منهم نواعسا
أرى بلدى قد سامهُ الرومُ ذلةً	وكان بقومى عــزهُ متقاعسا
وكانت بلادُ الكفر تلبس خوفه	فأضحى لذاك الخوف منهنّ لابسا

ومن حقنا هنا أن نسجل لابن حمديس هذه الروحَ الدينية التى شاعت فى هذه القصيدة ، إذ لم نلمسها من قبل إلا فى كلمة الجهاد المبهمة ، أما هنا فإن المسجد قد احتل مكانته من نفس الشاعر ، والغيظ على تلك النواقيس التى كان يدقها الرهبان دقَّ فى صدره — كان ابن حمديس يحب الوطن سواء اقترن بشعور دينى خاص أو لم يقترن ، وكانت ذكرياته من ذلك الوطن سيفاً وكأساً وقينة ، فلو أنه كان يمس الوتر الدينى فى قصائده لكان كاذباً مع حياته ومشاعره . لقد كان يقدم الوطن على كل اعتبار آخر لأنه « الدين » الأول الذى يؤمن به ، أما فى هذه القصيدة فإن الدين لا يذكر إلا سمة من سمات التغير التى جرت على الوطن وأهله . وحسبك أن لا تلمح فى ذكر الدين هذا استنفاراً أو طلباً للنجدة ، فكل ما هناك صورة من تغير حال الوطن بعدما فقد حماته الأبطال ، ولذلك ذهب ابن حمديس يثنى على بطولتهم ويشيد بانتصاراتهم فى قلورية ، ويعرج على قصريانة فيبكى دروس الإسلام منها ، ويتذكر سرقوسة وكيف أصبحت دار منعة لأعدائها ، ولا عجب فقد أصبح أهلها الأبطال تحت الثرى ، ولم يكن للأعداء حيلة فيها وهم فوقه ، والذئب يتبختر فى الغيل حين يغيب الأسد .

ومن المصادفات أن المعتمد سجن وسيم الذل سنة ٤٨٤ وتمّ للنورمان احتلال صقلية كلها فى هذا العام. وفقد ابن حمديس صقلية والأندلس معاً ، وعادت المقادير فطرحته إلى أفريقية . فوجد نفسه من جديد فى بلاط تميم. واجتمعت كل المآسى فى نفسه تذكره بالفردوس المفقود - ذكر صقلية وفتنتها وشبابه فى وطنه وصحبته للعرب متبطلا يضيع عمره سدى . وافتخر بنفسه واستشعر اليأس من العودة إلى الوطن . و وصف بطولة قومه ورثى موتاهم . ومدح تميما لأنه حاول ذات يوم أن ينقذ وطنه فأخفق . وتمثل الحال التى هو عليها فبكى جازعاً لما حلّ به . ومن يومئذ ألفت الدموع مجارى عينيه . وفى قصيدة أو ملحمة من تلك الملاحم جمع ابن حمديس كل تلك الخواطر ، فمثل فيها فنه الشعرى كله ، وكأنها البرزخ بين ما قبلها وما بعدها وسأقف عندها لأن فيها صورة ابن حمديس -- ابن صقلية

٣

تحليل قصيدتين صقليتين

لم تكن الفقرة السابقة من حديثى عن ابن حمديس أكثر من عرض وترتيب زمنى مقارب لنماذج من الشعر قالها منذ أول عهده بالقريض ، حتى وقف عند ذلك البناء المتهاوى . يتحدث عنه حديث الذى يحس صلته الطبيعية بالحياة انقطعت . لأنه دفن تحت الأنقاض كثيراً من الأحباب ، وأصبح التشرد فى حياته هو قانون تلك الحياة ، وفقد الوطن أى عصر الشباب ، أى الأمل . وغدا يحيا الحياة كما تجىء ، لا كما يريدها ، ويتعالل بأشياء من تفاهاتها فيمدح هذا وذاك ، وحيناً يصفق للانتصار - وحيناً يعزى بالانكسار ، ولكن نفسه كانت غائبة عن كل تلك المشاهد تحوم فى ربوع سرقوسة والقصر القديم ونوطس .

فالقصائد التى قالها فى صباه ، أو التى قالها فى الأندلس وهو يرجو الأوبة . أو التى قالها بعد سقوط وطنه حتى تلك الوقفة عند تميم بن المعز هى التى تهمنا فى

هذه الدراسة لأنها هي القصائد الصقلية من حيث الروح والموضوع والزمن . وربما كان عددها لا يزيد عن تسع قصائد .

وليس معنى ذلك أنه نسي صقلية فلم يعد يحن إليها ولكن معناه أن تقلب الحياة به قد باعد بينه وبين تلك النشأة، وحكمت عليه السن بالنضج، واستوى له قدر من التجربة، وقدر من الضعف الجسماني، وكان لهذا كله أثر في تلوين فنه بلون جديد غير ذلك اللون الذي سنسميه صقلياً ، وكان له أثره في تغير فلسفته ونظرته إلى وجوده . وإن لم تتغير نظرته إلى صقلية . وقبل أن أنتقل إلى تحليل قصيدته التي يمدح بها تميم بن المعز أود أن أقف عند هذه القصائد الصقلية وأجمل خصائصها العامة لتكون أساساً لما بعدها من نظرات .

هذه القصائد الصقلية من أصدق شعر ابن حمديس عاطفة ، وسمتها العامة القوة ، لقوة الموضوع ، ولذلك نحس أن الشاعر يتدفق فيها بكلام متحمس لا يحتاج إلى تلوين أو تصوير ، فليس فيه سند من صنعة ، وليس فيه وقوف عند التشبيه وعبادة له . وتغلب عليها روح الجندي الفارس الذي يغرق في الحب والحرب ، وفيها النواة الأولى لما سيكون موضوعاً رئيسياً للشاعر - أعني وصف السفن والمعارك البحرية ، إلا أن القصائد التي قالها قبل أن يغادر صقلية تدل على أنه كان يعنى باللذة أكثر من أي شيء آخر ، وإذا كان لنا أن نحكم منها على مستقبل شعره ، قلنا : إنه كان يصبح شاعر حب وخمر ، وإن سواهما من الموضوعات، كان يكون ثانوياً بالنسبة إليه. وهذه القصائد الصقلية الخالصة فيها ذهاب بالنفس شديد، ولكن الرحلة إلى الأندلس ثم ضياع الوطن غيّرا كثيراً من ذلك الاتجاه، والتأثير الأندلسي يتضح في بعض المظاهر السطحية والمعاني العامة أكثر مما هو في الروح. ولكن الأثر الصحيح هو الذي أحدثه ضياع الوطن : فنغمة الحزن الجديدة ، وتغير نظرته إلى اللذة، والإحساس بالغربة كاملة، كلها تتصل بفقده لوطنه وكلها صبغت شعره بلون آخر غير قوة الشباب .

والقصيدة التي أشرت إليها تمثل هذا الطور من حياته ، ففي تحليلها بيان

لمذهبه فى الشعر ولبعض خصائصه ويزيد هذا المذهب وضوحاً مقارنة هذه القصيدة بأخرى قالها بعد ثلاثين عاماً من نظمه للأولى، والموضوع فى الثانية تشوقه وحنينه إلى صقلية، وبالمقابلة بين القصيدتين يظهر الأثر الذى أحدثه الزمن فى شعر ابن حمديس .

أما القصيدة الأولى فمطلعها :

تدرعت صبرى جنة للنوائب فإن لم تسالم يا زمان فحارب

وفى هذه القصيدة يخلق ابن حمديس الفارس الذى فقد قرنه شخوصاً كثيرة ليبارزها، ويصب عليها نقمة يعجز أن يوجهها إلى عدالة السماء أو إلى القدر، فهو يطالعنا بالتحدى أو يطالع به الزمان الذى أودع عنده ثأراً لا يموت ، ليقبل الزمن محارباً إن لم يشأ السلم ، فإنه قد عجم من ابن حمديس حصاة لا تلين لعاجم ، وهذه الفكرة الحربية تستولى على نفسه فيظن أنه فى المعركة حقاً ، فإذا به يتحدث عن السيف ومآربه فيه ، ثم يشفق من هذه الثورة على الزمن لأنه يحس أن غدره قليل إذا قيس بغدر الصاحب :

أتحسبنى أنسى وما زلتُ ذاكراً خيانةَ دهرى أو خيانةَ صاحبى

تغذّى بأخلاقى صغيراً ولم تكن ضرائبه إلاّ خلافَ ضرائبى

ويا ربّ نبت تعترّيه مرارةٌ وقد كان يسقى عذبَ ماء السحائب

علمتُ بتجريبى أموراً جهلتها وقد تجهلُ الأشياءُ قبل التجارب

فمن هو ذلك الصاحب الخائن ؟ أترانا وقعنا على السر الذى فارق الشاعر من أجله صقلية وذهب يجوب فى الأرض ؟

وابن حمديس شاعر عاهد نفسه على أن لا يهجو ولكن أى ثورة هذه التى يعلنها فى قصيدته ؟ إنه يتحدى الزمن ويهجو الصحراء الإفريقية التى عوض بها عن وطنه :

بلادٌ جرى فوق البلادة ماؤها فأصبح منه ناهلاً كل شارب

فطمتُ بها عن كل كأس ولذة ۞ وأنفقت كنز العمر فى غير واجب
يبيت رئاس السيف فى ثنى ساعدى ۞ معاوضَةً من جيد غيداء كاعب

وإنه ليمقت هذه الصحراء التى لا تجمع له بين الحب والحرب، لأنها ليست عوضاً صالحاً عن ذلك الوطن، ولأنها لم تحقق له أمنية كان يطلبها :

بصادق عزم فى الأمانى يحلنى ۞ على أمل من همة النفس كاذب

فما هى تلك الأمنية التى طلبها فى غير وطنه ؟ أتراه طلب العلا كما يقول فى بعض قصائده ؟ وما العلا ؟ أم تراه ذهب يطلب المال ؟ لست أدرى وإن كنت أقف عند التعابير « المالية » الكثيرة فى ديوانه، وعند طلبه الصريح أحياناً للمال من ممدوحيه ، وأحس أحياناً بأنى لم أستطع أن أقول إن المال كان غاية له . فهل هناك رابطة بين رحلته وبين الذهب وهو يقول لابن عباد فى الأندلس [١] .

بالله يا سمرات الحىّ هل هجعتْ ۞ فى ظلّ أغصانك الغزلانُ عن سهرى
وهل يراجعُ وكراً فيك مغتربٌ ۞ عزّت جناحيه أشراكٌ من الغـدر
ففيك قلبى ولو أسطيع من وله ۞ طارتْ إليك بجسمى لمحَةُ البصر
قولى لمنزلة الشوق التى نقلتْ ۞ عنها الليالى إلى دار النوى أثـرى
نلتُ المنى يابن عبـاد فقيـدنى ۞ عن البدور التى لى فيك بالبدر

وهل تلك البدرُ هى التى انتزعته من أحضان الوطن ؟ ليس من السهل أن يجيب الإنسان على ذلك إن كان يتحدث عن ابن حمديس ، لأن مسألة الفقر والغنى غير واضحة فى شعره ولن تكون واضحة عند شخص متحفظ فى بعض أمور تتصل بنفسه وبيته ، متحرج يعرف مواقع القوة ويتحراها ، ويعرف مواطن الضعف ويتجنبه ، وحسبك مفتاحاً لشخصيته أنه حين رثى امرأته جعل ذلك على لسان ولديه ، ولكنه حين رثى جاريته تفجع عليها وتغنى بجمالها ، وفى هذه

(١) القصيدة رقم ١٢٧ .

اللمحة دلالة على نفسيته حين تتصل الأمور بحياته اتصالا وثيقاً .

إذن فهو ثائر فى قصيدته ناقم مغيظ يتهجم على الزمن ويتمرر بذكر الخيانة ويهجو الصحراء وسكانها ، ويأسى على غبن ناله بها بعد وطنه ، ويعلن أنه لا يجد من يأنس إليه بل لعله أحس أنه أصبح منبوذاً يضيق الناس به ، شريداً غريباً لاوطن له ، حتى طيفٌ كان يزوره فى المنام أصبح يصد عنه مزوراً :

ولا سكنٌ إلا مناجاةُ فكرة	كأنى بها مستحضرٌ كلَّ غائب
ولما رأيتُ الناس يرْهبُ شرهم	تجنبتهم واخترتُ وحدةَ راهب
أحتى خيالٌ كنت أحظى بزوره	له فى الكرى عن مضجعى صَدّ عاتب
فهل حالَ من شكلى عليه فلم يزُرْ	قضافة جسمى وابيضاض ذوائبى

وسكن قليلا حين ذكر الطيف واستحضر كل غائب — كلَّ ما عرفه بصقلية ، فإذا به يذكر الوطن أو السماء التى كان يطلع فيها كوكباً ، وعرج على صداقاته وندامه ، ووقف عند الخمر ولم يستطع أن يخفى علينا السبب النفسى الذى حمله على تلك الثورة المستطيرة ، وانقلب السكون من جديد إلى صيحة تطير فى أذيالها النقمة والأسى . إن سبب تلك الثورة الخانقة معروف لنا حتى ولو لم يصرح به ، إنه عجزه عن أن يعود إلى وطنه :

ولو أنَّ أرضى حرةٌ لأتيتها	بعزم يعد السيرَ ضربةَ لازب
ولكن أرضى كيف لى بفكاكها	من الأسر فى أيدى العلوج الغواصب
لئن ظفرت تلك الكلاب بأكلها	فبعد سكون للعروق الضوارب

ولقد عرفنا ابن حمديس من قبل يثنى على أعدائه ويصفهم بالشجاعة والقوة ، ولكنه فى هذه الفورة من الغيظ نسى كل ذلك وأقذع فى السب ، وهو عفيف اللسان ، وعذره العجز وقلة الحيلة التى يصورها قوله « كيف لى بفكاكها من الأسر » — كلمة أسير مقيد فى الأصفاد يريد أن يبلغ وطنه فلا يستطيع .

وهذه الأصفاد هى التى تغل روحه الشاعرة فى هذه القصيدة وتشد عليها فيجىء شعره صيحات من الغضب والنقمة والسخط والتحدى .

وابن حمديس يخفى تحت السخط والنقمة حزناً مكبوتاً مكفوفاً ليس له مسرب يتصعد فيه أو ينحدر . وكيف يكون له مسرب وهو قد بدأ قصيدته بالتجلد وادراع الصبر . وهذا الكبت فى الحزن آت من حقيقة واحدة لو وجدت فى القصيدة لاتخذت شكلا آخر . وتلك الحقيقة هى فقدان صوت « الصارخ الفزع » . إنه لا يتفجع على وطنه ليستصرخ الناس ويستنجدهم ويهيب بهم للعمل من أجل وطنه باسم الدين أو باسم الجهاد ، ولا يتحدث عن وطنه ليستمد منهم عطفهم ودموعهم ، هو ناقم حقاً ولكن على من ؟ إنه مع إعلانه فى القصيدة بمسئولية بنى وطنه ، لأنهم تفانوا فى فتنة وحطبوا لنارها — مع ذلك كان شعوره الداخلى يحدثه أن هنالك مسئولية أكبر تقع على عاتق المسلمين الذين تخلوا عن صقلية حين كانت فى حاجة إلى نصير ، ولكن عوامل نفسية من القوة لم تخل بينه وبين الإفصاح عن هذا الشعور ، فذهب يتحدث عن غدر الصاحب وخيانته . وأكبر الظن أنه ليس هناك صاحب معين ، وإنما ذلك رمز إلى كل المسلمين الذين تجاهلوا الأخوة الإسلامية والقرابة الدينية ، وتركوا صقلية تعانى الموت وحدها ، وهو مندهش مستغرب من السلبية المطلقة التى واجه المسلمون بها ضياع وطنه ، حيران فى أمره وأمر المسلمين معه ، وأقوى شىء يصور هذه الحيرة تساؤله الجازع « كيف لى بفكاكها من الأسر » .

لم يكن ابن حمديس يحمل بنى وطنه مسئولية ضياعه ، كما فعل بعض الشعراء الصقليين ، لأنه كان يقدّر دور الجهاد الذى قامت به سرقوسة ونوطس وقصريانة ، فهو إذا تحدث عن الفتن بين قومه مر بها مروراً سريعاً لأنه موضوع يكرهه ويراه مناقضاً لما يحس به حقيقة ، ولعل الذى حمله على التعرض له فى هذه القصيدة وقفته أمام تميم الذى حاول إنقاذ صقلية ، وكانت فتنة الصقليين من أسباب الإخفاق الذى منى به جيشه ، وأحب من هذا الموضوع إليه أن يتحدث

عن بطولة قومه في الحرب البرية والبحرية وعن بلائهم في الروم ، ليكون هو واحداً منهم وليعد من أبطالهم ويتحقق وجوده النفسي في وجودهم ، ولكن تلك البطولة قذفت بهم في هوة الفناء فغاروا كما تأفل النجوم « وأبقوا على الدنيا سواد الغياهب » ولم تكن الدنيا التي أبقوا عليها ذلك السواد إلا التي كانت تراها عيناه ، ومن خلال السواد أخذ يتطلع في حسرة إلى المعاهد والديار ، وبعد أن كان يتحدى الكون ، تحدته شعلة الحنين في صدره فإذا به يبكي كالضعيف :

ألا في ضمان الله دارٌ بنوطس ودرّت عليها معصرات الهواضب
أمثلها في خاطري كل ساعة وأمري لها قطرَ الدموع السواكب
أحنّ حنين النيب[1] للموطن الذي مغاني غوانيه إليه جواذبي
ومن سار عن أرض ثوى قلبهُ بها تمنى له بالجسم أوبةَ آيب

وفي كل تحية وداع أو خاتمة قصيدة يغلب الحزن ذلك الرجل القوي فتتساقط الدموع من عينيه .

هذه القصيدة بناء شاهق وأكثر قصائد ابن حمديس أبنية شاهقة فيها أجزاء كثيرة تجعل منها في النتيجة كلاً ضخماً كبيراً وتمتاز — كما تمتاز قصائده العاطفية الأخرى التي نظمها في هذه الفترة — بعد ضياع صقلية مباشرة — بوشيجة تنظم أجزاءها وتضمن لها الاتساق والانسجام ، فهي بناء ضخم من حيث النغم وتراكب الأجزاء وتسلسلها ؛ ومما يلفت الانتباه أن أكثر قصائده في هذه الفترة بخلاف المقطوعات التي نظمها وهو في صقلية جاءت على البحر الطويل .

وإذا كانت صقلية هي موضوع القصيدة لم يحس الإنسان هذه التجزئة في القصيدة ولكن ابن حمديس ، حين كان يفقد التعاطف بينه وبين الأشياء التي يتحدث عنها ، كان يرقص نظره بين أجزائها ويسافر فيها مستقصياً ليتكلم عن كل جزء على حدة — ذلك أصبح شأنه إذا وصف قصراً أو أسداً أو سفينة أو أي

---

(١) في الديوان : حنين البنت .

شيء آخر ، يحضر الأشياء المبعثرة كلا على حدة ويسلم نفسه إلى التشبيه ولا يعنيه من بعد أن يكون منها صورة مغمورة بالانسجام ، ولست أدعى أن الوحدة مفقودة فى قصائده — وقد تكون — ولكنى أحس بالفرق بين القصائد التى تزخر بالعاطفة والحنين إلى صقلية وبين غيرها من القصائد . فابن حمديس الشاعر الصادق ، لا الشاعر الصانع ، هو ابن هذه الفترة الغارقة فى أحلام صقلية . أما القصيدة الثانية فمطلعها [١] :

قضت فى الصبا النفس أوطارها ... وأبلغها الشيب إنذارها

وفى هذه القصيدة يريد ابن حمديس أن يجمع أمامنا أجزاء ذكريات قديمة فليس من الغريب إذا جمعها مبعثرة ، لأن ذاكرته تقفز من منظر إلى آخر . وإنما يوحدُ بين هذه المناظر أنها مستمدة من الماضى ومن صقلية ؛ وتنبسط صورة الخمر — التى أصبح محروماً منها — على كل منظر وتصرف الشاعر عن إطالة النظر إلى المناظر الأخرى . وتركه للخمر حين نظم هذه القصيدة حقيقة هامة تفسر هذا الاضطراب فى ذكر الخمر ثم الانصراف عنها والعودة إليها وهكذا ، والدليل التاريخى على هذه التوبة تصريح ابن حمديس نفسه فى غير قصيدة أنه تارك ما ارتآه فى الصبا وقوله فى قصيدة كتبها إلى ابن عمته أبى الحسن وهو فى سن الستين [٢] :

فرغتُ من الشباب فلستُ أرْنو ... إلى لهو فيشغلنى الرحيقُ
ولا أنا فى صقلية غلامـــاً ... فتلزمنى لكلّ هوى حقوق
ليالىَ تعمل الأفراحُ كأسى ... فمالى غيرَ ريق الكأس ريق
تجنبتُ الغواية عن رشـــاد ... كما يتجنب الكذبَ الصدوق
وإن كانت صبابات التصابى ... يلوحُ لها على كلمى بروق

---

(١) القصيدة رقم ١١٠ .

(٢) القصيدة رقم ٢١٥ .

وقد نظم هذه القصيدة فى الستين أيضاً ففيها اعتراف الفنان لنفسه لا للناس بأن الخمر هى محبوبته الجميلة ، وإن يكن انصرف عنها ، وللسن حكمها ومن ثم لن تسمع ذلك النغم الصاخب الثائر الذى سمعته فى القصيدة السابقة، ولا تلك القوة التى تتحدى الناس أجمعين ، فلا السيف من آلاته ، ولا الغضب من أدواته — إنه أفنى آلات الحرب ووقع فى عمر مسالم هادىء، خمدت فيه الجذوه القديمة ولم تبق إلا ذكراها — لا وطن ولا شباب ، هذه هى الغربة الكاملة التى أحسها ابن حمديس حينما كبر ولذلك نسمعه فى بعض قصائده إذا ذكر الوطن صدّر قصيدته بذكر الشيب — وهو غربة عن الزمان الجميل — ثم ثنى الكلام إلى الوطن — وهو غربة عن المكان الجميل — وأصبحت تلك النقلة فى الزمان والمكان هى المؤثر الوحيد فى نفسه وشعره ، ولو كانت ذات طرف واحد لما كان حزنه بهذه الحدة .

وفى هذه القصيدة غاب الوجود كله من حوله وانعدمت صور الأشياء من ذاكرته إلا صورة ليلة ساهرة قضاها فى صقلية . كانت ليلة ذات أشباه ، رأى فيها شيئاً واحداً تعددت له الأسباب ، رأى الخمر فذكرته بالساقية ، ثم رأى الندامى فعاد يتحدث عن الخمر ، ثم تذكر ليلة فى دير فرجع إلى الخمر . . . رأى الخمر فى عدة أوضاع وأحس بها هنا وهناك كأنما تخيلها تتسرب كالروح فى جسم الوجود ، رآها فى يد الساقية ليلحظ اختلاط لونها بخضاب كف الساقية كأنه رأى المعجزة أو اتحاد العنصرين ، وهو كلف بالعناصر فإذا تغزل خاطب حبيبته بقوله [١] :

عــذبتنى بالعنصرين بلظى حشاى وماء عينى

فللعنصرين فى شعره سيطرة بعيدة المدى . ورأى الخمر بين الندامى تبعث الضياء وتنسج شبكاً من الحباب تصيد به ما يحاول منها أن يطير ، ورآها فى الدير

---

(١) القصيدة رقم ٣١٠ .

واهتدى إليها برائحتها الجميلة ، وإلى جانبه نديم متفرس عارف بالخمر يستطيع أن يحسب عمرها من رائحتها .

فى كل حين وقفة عند الخمر ، تتردد فيها المعانى الخمرية التى أشرت إليها من قبل فى شعر الخمر الصقلى عامة ، وهى اجتماع العنصرين ، وفكرة الشبكة والصيد ، واستمداد بعض الصور الحربية فى قتل الخمر للهموم أو شنها الغارة عليها. وليست هنا وقفة عند الخمار أو الساقية أو الندامى أو لون الخمر وأثرها بقدر الوقوف عند رائحتها ، فهى التى هدت الشاربين إلى نفسها بما أذاعته من سر لأنوفهم ، وهى عديل المسك فى دارين ، والمتفرس فيها يزكيها برائحتها وشم طيبها.

وتمام ذلك المجلس الخمرى صورة القيان والمغنيات والراقصة ، والقاعة مضاءة بالشموع التى تحمل الدجى على رأسها ، وتحاول أن تهتك أستار الظلام بالنور ، وكأن الآجال مسلطة على أعمارها فهى تنمحق ولا تفنى فى يسر . ولم يقل ابن حمديس إن هذه الشموع مثله تسعى إلى الفناء مع أنه كان يحس بمر الزمن ويعد عمره عدا . ولم يتعز بمنظرها وهى تموت فقد كان يريد أن يبعد فكرة الموت عن نفسه لأن الموت لا يتفق والشباب ، وهو فى هذه القصيدة يصور الشباب . ولكنه فى واقع أمره كتلك الشموع — حمل مسئولية الأسى على رأسه طيلة عمره ، من شدة أسفه على وطنه وشبابه فيه ، حتى ليقول لنا إن الناس قد بكوا الشباب ولم ينصفوه ، وجاء هو يستدرك ما فات الناس جميعاً (١) :

بكى الناس قبلىَ فقد الشباب ... بدمع القلوب فما أنصفوه
وإنى عليه لمستدرك ... من البث والحزن ما أهملوه

وهو كتلك الشموع صهر نفسه شعراً حزيناً منيراً بصدق العاطفة ، وهو الذى ينمحق عمره بما سلط عليه من أجل .

وقد اختلفت هذه القصيدة فى النغمة عن سابقتها فليس لها ذلك الشكل

---

(١) القصيدة رقم ٣٢٧ .

« القوطى » الضخم ؛ ولكنها حزينة ذابت فى أثنائها وطواياها تلك الفحولة التى كانت تملى قصائد الشباب ، وخفتت تلك الفروسية التى كانت تشيع القوة فى النفس ، وفيها أوتى ابن حمديس القدرة على التعبير الجميل — لا التعبير القوى كما فى أختها السابقة — إذ كان الحزن قد مسح شعره بهذه المسحة المحببة ، وكان نضجه فى السن قد صرفه عن القوة إلى محاولات أخرى يزين بها شعره . فالقهوة تذيع لأنفك أسرارها ، وفى التردد بين الحركة والسكون جمال عجب يتمثل فى قوله :

وقد سكنت حركات الأسى قيـــان تحرك أوتارهـــا

وتكاد القصيدة كلها تكون نموذجاً لجمال التعبير ، وفيها القدرة على التصوير الجميل . كصورة الشموع التى تقل الدجى على رأسها :

تقل الدياجى عـــلى هامها وتهتك بالنـــور أستـــارها

وفيها صورة بارعة للراقصة وخفة حركتها . ومع ذلك فإن الشاعر لا يزال فى بعض صوره يذهب مع تلك المبالغات التافهة المحلية ، وهى أمور تسربت إلى شعره، منذ البدء فلم يسلم منها من بعد ، فالدن مضمار للكوب ، والدموع أنهار صقلية لولا ملوحتها — مبالغات فيها الاستجلاب المتكلف لصورة بعيدة أو حقيقة مستحيلة ؛ واجتمع إلى القدرة على التعبير الجميل تلك الحركة التى تنبض بها كل صورة وكل لفظة . .

وربما كان يستعين على التصوير بالتحريك لأنه يحس بسكون القوى الطبيعية فى جسمه ، وتأمل كيف يخونه الضعف الجنسى الذى صار إليه فيعلن عن نفسه بقوله فى القيان :

فهذى تعانق لى عودهـــا وتلك تقبـــل مزمارهـــا

وكلمة « لى » فى هذا البيت ، التى تدل على الملكية والتخصيص إنما

تؤكد ضياع ذلك الملك الذى كان — ضياع قوة الشباب ، ولكن الشاعر قد نسى واقعه وهو يخلق هذه القصيدة ، وعاش فى فترة الشباب يوم كانت تلك الملكية من أدواته .

وسواء أحسّ الشاعر أم لم يحسّ بضعفه فإنه لجأ إلى أمور يخفى بها وجه ذلك الضعف ، فاستمد من روح الفتك القديمة بعض تعابيره :

خطبنا بنات لهـا أربعا ليفترع اللهـو أبكارها

وتلاعب تلاعباً جميلاً — لفظياً كان أو معنوياً — ليزين الصورة :

طرحت بميزانهـا درهمى فأجرت من الدن دينارها

أو جانس فى اللفظ أو اتكأ عليه — كما كانت تضغط يده على العصا — وهو يشد على الحروف شداً يخيل إليك معه أنه يفتعل القوة افتعالا .

فالساقية « زرّرت » أزرارها والقيان « سكّنت » حركات الأسى ، وواحدة منهن « تقبّل » مزمارها والشمع عمد « صفّفت » وهى « تقلّ » الدجى على هامها وكأنها « تسلّط » عليها آجالها « فتمحق » أعمارها والأسى « يهيّج » التذكار وهكذا فى كل القصيدة حتى لتستطيع أن تصلح بعض الروايات فى قراءة أبيات معينة منها فابن حمديس لا يقول فى هذه القصيدة « وراهبة أغلقت ديرها » ولكن يقول « « غلّقت » ولا يقول تثور فيقتل ثوارها وإنما يقول « فإن ثرن قتّل ثوارها » حتى إذا انتهى الوصف فى هذه القصيدة ووقفت الحركات ، وقف ابن حمديس — كما يفعل دائماً — وقفة الحزين الذى يجر لحنه الأخير جرا ليشعرنا بأنه قارب النهاية فقال :

ذكرت صقليـة والأسى يهيـج للنفس تذْكارها
ومنزلة للصبا قـد خلتْ وكان بنو اللهو عُمارها
فإنْ كنتُ أخرجتُ من جنة فإنى أحـدّث أخبارهـا

وعند هذه الغاية نشهد آدم القديم يتحدث عن نفسه وعن الجنة التى أخرج

منها . غير أن آدم أخرج من الجنة حقاً فهل خرج ابن حمديس من جنته مختاراً أو وجد من أخرجه ؟ ويعود هذا التساؤل يثير الحيرة فى غربة مختارة أو غير مختارة ، وحسبنا أن ابن حمديس يقول إنه أخرج من هذه الجنة دون أن يذكر لنا الخطيئة التى أخرجته أو الثمرة المحرمة التى أكل منها . ولكن من تتبع ابن حمديس فى ديوانه يجد « الذنب » شبحاً يلاحقه كقوله فى غربته [١] :

ألم ترَ أنا فى نوىً مستمرة نروح ونغدو كالمصرِّ على الذنب

وقوله فى الصحراء [٢] :

كأنك فى ذنب عظيم بقطعها فأنت إلى الرحمن منه تتــوب

وتتردد صورة آدم فى نفسه فيقول [٣] :

قد كنت فى عهد النصيح كآدم لكن ذكرتُ هوى الدمى فنسيت

ولست أرى بأساً من اعتبار ابن حمديس تحت ظل ذنب معين بهذه الأبيات وغيرها .

نعم إنه آمن بأن حياة اللهو كانت ذنوباً ، وأظهر الندم عليها فى آخر عمره ، وكانت صورة جده الشيخ الناسك الذى ضمه إلى صدره تتعرض من وراء السنين لتنظر إليه نظرة لوم على حياته اللاهية ، ولكن لعلّ « الخطيئة » الكبرى كانت تشغل حاله ، والخطيئة الكبرى فى حياته أنه قصر حتى فى حق وطنه ، وإذا كان آدم قد نسى فأكل من الثمرة فإن ابن حمديس نسى الثمرة حين كانت فى حاجة إلى رعايته . لقد رأيناه يحرض الصديق على أن يموت دفاعاً عن وطنه فلمَ لم يقل هذا لنفسه ؟ ورأيناه دائماً يتمدح ببطولة قومه يمدح نفسه فيهم ، ويتستر وراء حادثة أو اثنتين باشر فيهما العمل فعلاً من أجل وطنه ، ولكن ضميره كان يحدثه

(١) القصيدة رقم ٢٨ .
(٢) رقم ٢٩ .
(٣) رقم ٤٧ وانظر أيضاً رقم ٤٠ .

بالذنب الذى ارتكبه ، ومن ذلك الذنب نجمت طائفة كبيرة من الحزن الذى ظل يصبغ حياته حتى لقى الأجل . وقد كنا دائماً نتساءل لمَ خرج من صقلية فدعنا نسأل لمَ لم يعد إليها ، ففى الجواب على هذا السؤال تفسير لفكرة الذنب . لقد قال لنا إنه يعيش فى ظل مثل معينة ولا يطيق أن يرجع إلى بلد فقد حريته :

ولو أن أرضى حـــرةٌ لأتيتُهـــا بعزم يعـــدّ السير ضربة لازب
ولــكن أرضى كيف لى بفكاكها من الأسر فى أيدى العلوج الغواصب

وحدثنا أنه يطلب العلا وتكلم عن ذلك كلاماً مبهماً . أما فى الحقيقة فإنه لم يرجع لأنه كان يتمثل وطنه عاتباً عليه ، وكان ذا حس مرهف بمرارة ذلك العتاب ، فآثر الغربة ليغسل بدموعه ما كان يعده ذنباً . لم تكن عودته مستحيلة حتى أيام الحكم النورمانى ، وكان أهله يكاتبونه لعله يعود ، فكان يقول لهم : كيف أعود إليكم وأمرى بيد القضاء وبأى عين أراكم شيوخاً بعد أن عرفتكم شباناً ، وترونى شيخاً بعد أن عرفتمونى غلاماً ؛ ولمَ تغربت ؟ ألا تذكرون أننى أطلب العلا[1] :

وكيف أرى لى قَصْدَ وجهى إليكمُ إذا كان فى كف القضاء زمامى
وما هى إلا غربــةٌ مستمرةٌ أرى الشيخ فيها بعد سن غـــلام
كأن قـــذالى بالقتـــير معوّضٌ قبيلةَ سام من قبيـــلة حـــام
وما شيبَ الإنسانَ مثـــلُ تغرب يمرّ عليـــه اليوم منـــه كعـــام
وهل رحتُ إلا طالباً بالنوى عُلاً كأنّىَ منهـــا للنجوم مســـام

لم يكن ابن حمديس كاذباً فى حزنه على وطنه وما صار إليه قومه ، ولكنه كان مغلوباً بطمع واحد صرف قوته فى وجهة أخرى — ذهب يطلب العلا — ولا أستطيع أن أفهم من هذه العلا إلا أنه ذهب يطلب الشهرة بالشعر . كان ذلك هو حلمه منذ أن أصبحت تطيعه القوافى — وإن لم يصرح لنا بهذا — ولم تكن

(١) رقم ٢٨٢ .

صقلية المحدودة تسع أطماعه المترامية ، وخرج وهو يقدّر أن يعود ، ثم أرادت له الأقدار شيئاً آخر فلم يعد يستطيع أن يرجع إلى صقلية ليعيش مادحاً لقوم أعلن عليهم سخطه ، ورآهم سبب المصيبة التى حلت بوطنه ، ورضى بالغربة ليبكى تقصيره فى حق الوطن ، ولم تطمئن به حاله حيث وقع ، لولا أملٌ كان يراوده بأنه سيكون شاعراً كبيراً فى بلاط أمير كبير .

٤

الآثار التى تركتها صقلية فى نفسه وشعره

كثرت المؤثرات فى حياة ابن حمديس وفى شعره بعد صقلية — زادت تجاربه فى الحياة ، واتسعت ثقافته ، وأخذت وقدة الشباب تخمد فى كيانه ، واحتضنته بيئة أو بيئات جديدة تغاير صقلية فى مؤثراتها ومظاهرها ، فأصبح فى شعره مجال للتجربة التى تهيئها السن ، ومجال آخر للثقافة التى يزوده بها الدرس . وبعد أن كانت صقلية تريد لشعره أن يسلم من وصف الناقة والرحلة للممدوح ، ووصف الأطلال عادت البيئة الإفريقية فأمدته بهذا اللون ، وأملت عليه الحروب المتتالية بين إفريقية وصقلية أن يفسح للدين والجهاد فى سبيل الإسلام — بدلا من الجهاد فى سبيل الوطن — موضعاً فى شعره .

ولكن هذه الحياة بما فيها من ألوان لم تستطع أن تنسيه صقلية إذ لم يكن لها قبل بمحو الشباب وذكرياته ، بل لعل صقلية ظلت أقوى من كل مؤثر جديد إذا كان صدق الشعور دليلنا على قيمة كل مؤثر ، جديداً كان أو قديماً . وما كان ابن حمديس يتحدث عن شعوره ببساطة صادقة مزودة بشعلة عاطفية ، إلا حين كان يذكر صقلية أو شيئاً يتعلق بها ، وما كان يصحو إلى حقيقة وجوده المنطوى على مأساة ، إلا حين كان يبلغه كتاب من قريب أو صديق أو

يصله نعى قريب صقلى أو صديق — وكانت أكثر ذكرياته من وطنه تتصل بمتعة الشباب وصداقاته ، أى تتصل بالأشخاص ، وفى إحدى القصائد نراه يذكر الوطن بأزهاره فقد رأى النيلوفر مرة فقال :

هو ابن بلادى كاغترابى اغترابه   كلانا عن الأوطان أزعجه الدهر

وهذه العلاقة بالناس وذلك الحب لهم يفسران لنا جانباً هاماً من شخصية ابن حمديس الشاعر الذى كان يحب الجماعة ولا يقوى على العزلة ، أما النقمة التى قد تصادفنا فى ديوانه على الناس وأهل الدهر فنقمة عارضة تمليها حوادث عارضة .

ولما كان هذا البحث لا يتحمل دراسة الآثار التى تركتها صقلية فى نفسه وشعره بالتفصيل — لأن شعره يتصل أثناءها بغير صقلية — فإنى أجمل تلك الآثار إجمالا :

١ — قضى ضياع الوطن بتغير فلسفته فى اللذة — كما أشرت من قبل — وبعد أن كانت الخمر غاية فى نفسها أصبحت عوناً له على نسيان الهموم . ولقوة همومه أصبحت الخمر أداة تحركها بدلا من أن تخمدها ، وقد لمح هو هذه الظاهرة فى حياته ، فى قصيدة لعلها من القصائد التى قالها بعد سقوط صقلية فقال :

يجر علىّ شرب الراح همّاً   ويورثُ قلبىَ الشدوُ اكتئابا
وفى خلق الزمان طباع خلْف   تمر رُ فى فمى النغب العذابا

٢ — ومن ثم اتصل الحزن بقلبه وبحياته ، فقضى طول عمره يبكى مصائب الناس ويشاركهم فى أتراحهم . نعم إن نصيبه من الشعور الإنسانى كان وافراً ولكنه كان فى كل مصيبة جديدة يبكى صقلية القديمة ؛ وكانت الجزيرة تحضر

---

(١) القصيدة رقم ١١٣ .

فى نفسه دون استدعاء واستجلاب ، لأنها دائماً حاضرة لاتغيب . وقد يفهم من هذا أن بكاءه مع الآخرين كان تظاهراً ، ولكن الأمر لم يكن كذلك فإن صقلية كانت تتمثل له فى كل حزن فيبكى مصائب الآخرين بشعور من الحزن عميق الجذور ، وذلك التمثل الدائم قد جعل حزنه فى كل مرحلة وعند أية مصيبة يظهر صادقاً . وكانت كل فاجعة لديه تمثل له بناء ينقض لأمرين : لأن صقلية تهدمت وأصبح يراها طللا — ويبكى الأطلال من أجلها — ولأن ابن حمديس بناء كانت الأعوام تشرف به على السقوط . وحدة بكائه على ماضيه مستمدة من علاقة هذا الماضى بصقلية ، ومن ثم عاش فى ذلك الماضى ، فكان كالرحالة الذى يحدث عن عجائب ما رأى ، وكان فى استطاعته أن يكبر تلك الذكريات ويضخمها لأنه كان يطل على مشارف كل حاضر يجد من أبعد نقطة فيه ، ومع ذلك فإن ابن حمديس لم يغال فى ذلك .

٣ — واستولى عليه الشعور الدائم بالغربة وفى هذا وحده دليل كاف على أن البيئات الجديدة لم تكن تتجاوب مع قلبه . وقد بدأت الغربة فى حياته حقيقة تتصل بيوم الفراق ، وانتهت أكبر حقيقة تاريخية عاطفية فى حياته ولما شاء أن ينظر إلى أول يوم أزمع فيه الرحلة ، قرنه بالتنبؤ لها ، وأنها ستكون رحلة وحسب ، طرفها الأول يوم الفراق وطرفها الثانى الأجل . وربما لم يكن لهذا التنبؤ من وجود ولكن عز عليه أن لا يكون للاشفاق من فراق الوطن نصيب فى قلبه منذ البداية وإلى هذا يشير قوله :

وقالت غرابيبٌ دَرَجنَ ببينه ... سيستدرج الأيامَ وهو غريب
فما كان إلا ما قضى بالهـا به ... فهل كان عنها الغيبُ ليس يغيب ؟

وتنبه هذا المعنى — الغربة — فى حياته لما مات أبوه ، وأصبح يرى فى وطنه منبعاً يقذف بالغرباء سواء فى ذلك من يموت أو من يرحل :

ورحت إلى غربة مرّة ... وراح إلى غربة ساجيه

ولما توفيت عمته لم يؤلمه شيء بقدر ما آلمه أنها ماتت غريبة :

فياليتني شاهدتُ نعشك إذ مشي ... حواليه لا أهلي حفاةٌ ولا صحبي

ودفنك بالأيدى الغريبة والتقت ... مع الموت فى إخفاء شخصك فى حدب

وحسبك أنه رجل لم يطمئن به جنبه فى أى مكان حله ، حتى إنه ليحس فى الثمانين أنه غريب ، وقد كان من المنتظر أن ينسيه مر الأعوام أمله بالعودة إلى الوطن ، ويمهد وطناً جديداً ، ولكن الأعوام زادت شعوره بأن الوطن فى ذلك الاتجاه الواقع على مسافة كذا من حيث يسكن ، وظل ينظر فى تلك الوجهة إلى البقعة التى انتزع منها . رجل فى الثمانين من عمره لا يزال يحس أنه غريب أى بعد مضى ست وخمسين سنة منذ أن خرج من وطنه ؟ إن كان لهذا دلالة فإن معناه أن الوطن كان — كل شيء فى حياته — وليس كثيراً أن يكون أى أثر إلى جانبه سطحياً ؛ فى سن الثمانين قال يرثى ابنته (١) :

أرانى غريباً قد بكيتُ غريبةً ... كلانا مشوقٌ للمواطن والأهل

بكتنى وظنتْ أننى مت قبلها ... فعشت وماتت وهى محزونة — قبلى —

ومن هذا الوجد الشديد تشخصت الغربة فى نفسه فلم تعد معنى مجرداً هائماً ، وإنما أصبحت هى ابن حمديس ، فإذا ذكرت الغربة أو دعيت أجاب :

أنا من صاح به يومَ النوى ... عن مغانيه غرابٌ فاغتربْ

طفت فى الآفاق حتى اكتهلت ... غربتى واحتنكتْ سن الأدب

وتلك الغربة التى اكتهلت هى ابن حمديس الذى اكتهل .

٤ — وبقدرما عمقت صقلية شعوره بالحزن لم تستطع أن تخلق له « مشكلة » يحاكمها ويحوم حولها ويحاول حلها ، كان الحزن فى حياته ذكريات متصلة وحلماً

(١) القصيدة رقم ١٤٥ .

طائفاً من عالم الماضى ، ولكنه لم يصبح فى حياته فلسفة ولا كان نتاجاً لها ؛ حتى الموت ظل حيث كان — ظل تلك القوة الجبارة التى تتخطف العصم وتردى عقاب الجو — كما رآه أبو ذؤيب ذات مرة ، أما هو فلم يسأل نفسه عن المتناقضات التى طرحته الحياة فيها ، ولم تتعقد فى نفسه مشكلة الوجود أو مشكلة الفناء، ولم يصرخ ثائراً لأنه غريب ، بل لم يستفد من هذه الغربة فى المكان فلسفة الغربة الإنسانية عامة ، — كان يشعر دائماً بالعجز إزاء كل مشكلة فيتركها لنفسها، وكان يطمئن نفسه بعجز الطبيب الذى لا يرد العوادى عن نفسه، وبعجز الفيلسوف " عن طرق ليست لأهل العقول منسلكة "، وبعجز القائد القوى الذى لا يغنى عنه سلاحه . وظل ينحدر فى درجات السلم لا ليسأل نفسه إلى أين ولكن ليعد تلك الدرجات، أربعون ، خمسون ، خمس وخمسون ، ستون ، ست وستون، كان مشفقاً من أن يبلغ النهاية ولما بلغها كانت صقلية لا تزال على شفتيه، والغربة لا تزال محور حديثه ، وكانت الشيخوخة قد حالت بينه وبين رؤية مشاهد الوجود بعينيه، ليرى — بعين المخيلة — صقلية وشبابه فيها .

الفصل السادس

حياة الشعر فى العصر النورمانى

١ ـ شعر هذا العصر من حيث الكم والاتجاه.

٢ ـ وصف القصور والمتنزهات .

٣ ـ الشعر فى البيئة الإسلامية .

٤ ـ مقارنة بين الشعر فى البيئة الإسلامية والشعر فى البلاط النورمانى .

١

شعر هذا العصر من حيث الكم والاتجاه

كل ما تبقى من شعر هذا العصر هو ما اقتبسه العماد عن ابن بشرون المهدوى الصقلى، وهو عثمان بن عبد الرحيم بن عبدالرزاق بن جعفر بن بشرون بن شبيب من قبيلة الأزد. وهو صاحب كتاب "المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر."

وهذا القدر الذى بقى يشمل اثنى عشر شاعراً [١] ، عاشوا فى الفترة الأولى من العصر المشار إليه أى أنهم فى الغالب عاصروا رجار الثانى؛ وليس هناك ما يدل على أن بعضهم عاش فى زمن ابنه غليالم الأول. وكل ما نملكه من الشعر الصقلى فى عهده نقش فى قصره المسمى بالعزيزة[٢] . وهناك نقش آخر فى مدح غليالم الثانى وذكر لفقيه صقلى اسمه الشيخ أبو الحسن على بن أبى الفتح بن خلف الأموى الصقلى[٣] فى زمنه أيضاً كان له بابن قلاقس علاقة. وإلى عهد غليالم الثانى يضاف ما قاله ابن قلاقس فى مدح أبى القاسم بن حمود وغيره من رجالات صقلية. أما الشعر المهاجر فى هذا العصر إلى الجزيرة فلدينا منه شعر الإدريسى الجغرافى[٤] وذكر ليحيي الشاعر القفصى التيفاشى [٥] الذى كان فى صقلية أيام غليالم الأول ، وقتل فى الثورة التى ذبح فيها المسلمون سنة ٥٥٠ هـ وقصيدة لشاعر آخر من بنى رواحة فى مدح صاحب صقلية حين انكسرت به سفينة

---

(١) انظر التراجم ٣ - ١٣ والترجمة رقم ٦١ من مجموعة الشعر الصقلى.

(٢) Amari: Le epigrafi Arabiche di Sicilia, p. 31.

(٣) الخريدة - قطعة من أول القسم الخاص بشعراء مصر وفلسطين بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية مصورة من مكتبة نور عثمانية رقم ٣٧٧٤ .

(٤) الترجمة رقم ٦٣ من مجموعة الشعر .

(٥) الخريدة جـ ١١ الورقة ٥٣ .

وأسر [١]، وقصيدة للشيخ أبي الحسين بن الصبان المهدوى [٢] تدل على أنه كان فى صقلية .

فى هذا العصر انفصلت صقلية بتاريخها عن ممالك الإسلام وأصبحت أحداثها الداخلية التى لا تهم العالم الإسلامى غامضة ، وأصبح الشعراء فى بيئتهم منعزلين لا تربطهم روابط بالمسلمين توضح حالهم ، ولولا أن ابن بشرون عاش فى الجزيرة مدة وخصص من كتابه فصلا لشعرائها ، ولولا أن العماد اطلع على هذا الكتاب لجهلنا ما نعرفه الآن عن حياة الشعر فى صقلية النورمانية ، فليس من الغريب أن لا نسمع عن شعراء مسلمين فى بلاط غليالم الثانى أو فردريك الثانى وابنه منفريد فيما بعد ، لأنه إن كان هناك شعراء حقاً فإنه لم يسعفهم الحظ بابن بشرون آخر يدون آثارهم فتخترق حدود الجزيرة إلى غيرها . وحتى القدر الذى أورده العماد عن ابن بشرون ليس كاملا فى أجزائه لأن الأصبهانى حذف أكثر الشعر الذى وجده فى مديح الكفار ، وصرح بذلك فى قوله « واقتصرت من القصيدتين على ما أوردته ، لأنهما فى مدح الكفار فما أثبته » [٣] ولدينا شاعر هو عبد الرحمن بن رمضان المالطى ويصفه ابن بشرون بأنه كان غزير الشعر ، وأنه استنزف جهده فى مدح رجار ، ومع ذلك فليس هنالك فى شعره الموجود شيء من مدائحه .

وهؤلاء الاثنا عشر شاعراً فيهم نحوى وفقيهان وأربعة غلب عليهم الشعر وخمسة كانوا كتاباً . ولا بد من الإشارة إلى غلبة النثر على المشهورين فى هذا العصر والذى سبقه ، وهذه حقيقة هامة لا تسعفنا المصادر كثيراً فى تصور مظاهرها ونتائجها وعلاقتها بالشعر ، ولا تمكننا من القول بأن صقلية فى العصرين أنتجت نثراً خصباً يوازى نشاطها فى الشعر ، أما أولا فلأننا لا نعرف لها نثراً كثيراً

---

(١) المكتبة : ١٥٣ من المسالك .

(٢) الخريدة : ١١ الورقة ٥٨ .

(٣) انظر الترجمة رقم ٧ ورقة ١٢ .

وأما ثانياً فلأنها فى الواقع اتجهت إلى الشعر اتجاهاً جعلنا نحكم لها بكثرته . ولقلة هذا الموجود من النثر لانستطيع أن نحكم له بالتفوق على الشعر ، إلا أن فى رسائل ابن الصباغ فى العصر السابق والنثر الذى أورده ابن بشرون كمية — على قلتها — تعطينا فكرة طيبة عن النثر فى صقلية ، فهو نثر عامر بالحياة فيه صنعة ولكنه ذو موضوع حىّ .

ومهما يكن من أسباب فإن الذين أخلصوا للشعر وحده أبين شخصية ممن غلبت عليهم نواح أخرى من النشاط ، فلابن الخياط وابن حمديس وأبى العرب الصقلى مشخصات بينة على قلة ما نملك من شعر الأول والثالث ، أما شعراء العصر النورمانى فليس فيهم شاعر يهيئ لنا شعره رسم صورة عامة لشخصيته .

ولا بد من أن نقرر منذ البدء أن الشعر فى العصر النورمانى عاش فى بيئتين فى كل منهما خصائص اجتماعية ونفسية مختلفة ، ولذلك نستطيع أن ندرس هذا الشعر على أنه قسمان :

(ا) شعر يتصل بالملك النورمانى وبلاطه وفيه المدح ووصف المبانى والمتنزهات الملكية وفيه الرثاء لأقرباء الملك أو أبنائه فالشاعر عبد الرحمن المالطى أكثر شعره فى مدح رجار "يسأله العودة إلى مالطة ، ولا يحصل منه إلا على المغالطة" وعمر بن حسن النحوى الصقلى وقع أسيراً فى يد النورمان فهو يمدح رجار لعله يطلقه : وعبد الرحمن البثيرى وابن بشرون وعبد الرحمن الاطرابنشى من الوصافين لقصور رجار ومتنزهاته ، وأبو الضوء سراج الكاتب يرثى رجار الابن البكر لرجار الثانى .

(ب) شعر يصور حياة المسلمين وعلاقاتهم فيما بينهم وفيه العتاب والمدح والرثاء وشعر الرسائل ، أو يصور أموراً ذاتية كالغزل بالمؤنث والمذكر وشعر المجون .

٢

وصف القصور والمتنزهات

ولأتناول من هذا الشعر ما يتصل بوصف القصور والمتنزهات فإنه الموضوع الذى يبدو — لأول وهلة — أنه ملىء بالحياة ، وهذا يضطرنى أن ألم عاجلا بشىء من حال بلرم نفسها ومن قصورها ومتنزهاتها التى جدّتْ فى العصر النورمانى . ولا شك فى أن البساتين والمياه والأرجاء والقصور كانت أهم مظهر للمدينة فى العصر الإسلامى واستمر هذا المظهر وازداد فى العصر الذى يليه ، وشهادة المعاصرين فيه تكفى فى هذا المقام . يقول الإدريسى [١] : " والمياه بجميع جهات صقلية مخترقة ، وعيونها جارية متدفقة ، وفواكهها كثيرة ومبانيها ومتنزهاتها حسنة تعجز الواصفين ، وتبهر عقول العارفين ، وهى بالجملة فتنة للناظرين " . وجاء بعده ابن جبير فلم يملك نفسه من إظهار إعجابه بها [٢] " فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ، ومراد عيش يانع أخضر . عتيقة أنيقة ، مشرقة مونقة ، تتطلع بمرأى فتان ، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان . . . يشقها نهر معين وتطرد فى جنباتها أربع عيون ، قد زخرفت فيها لملكها دنياه . . . (فهو) يتقلب من بساتينها وميادينها بين نزه وملاعب . فكم له فيها — لاعمرت به — من مقاصير ومصانع . . . إلخ » ويقول هوجو فلقندو [٣] « ومن ذا الذى يستطيع أن يعبر عن إعجابه بالبنايات المدهشة فى هذه المدينة وبكثرة ينابيعها المنبثقة هنا وهناك ، وحلاوة أشجارها الدائمة الخضرة وقنواتها التى تمد السكان بما يحتاجون ؛ ومن ذا الذى يستطيع أن يستوفى وصف جمال السهل الأفيح . . . يا للسهل البهج السعيد

---

(١) نزهة المشتاق فى المكتبة : ٢٩ وانظر فى هذه الصفحة وصف قصر رجار .

(٢) ابن جبير والمكتبة : ٩١ .

(٣) C. Waern · Med. Sicily p. 81-83

الذى يحمل فى أحضانه كل نوع من الأشجار والثمار ، ويبدى للعين أنواع المباهج ، ويسحر كل ناظر ويخلب قلبه ، فلا ينفك من رآه يصبو إلى مناظره ؛ هناك ترى الكروم التى قد أرسلت فروعها واسترسلت فى خضرتها ، وهناك جنات يثنى المرء على آلائها وأبراجها المخصصة للفرجة والحراسة ، وهناك أرحاء الماء ودلاؤه صاعدة هابطة . . . " ويمضى فلقندو فى هذا الاستقصاء فيذكر أنواع الثمار من الرمان الحلو والحامض والليمون والبرتقال واللوز وأنواع التين والزيتون والنخيل والقصب .

أما القصور فقد بنى منها ملوك النورمان قصر الفوارة وقصر العزيزة وقصر القبة وكثيراً غيرها ؛ وقد أمر رجار بأرض واقعة على فرسخ من بلرم ، فجعل هناك بركة ، وأمر بأن يوضع فيها السمك من كل نوع وعلى مقربة منها بنى قصراً جميلا رائعاً هو الذى عرف بقصر الفوارة ، كان يعكث فيه أيام الشتاء وأثناء الصوم لكثرة السمك هنالك . أما فى الصيف فكان يفر من الحرارة ويقصد المنتزه ليسلى نفسه بالصيد. والمنتزه جبال وغابات حول بلرم أحاطها رجار بالأسوار ، وجعل منها منتزهاً جميلا غرست فيه أنواع الأشجار وربيت بينها الحيوانات ، وعنده بنى قصراً يجلب إليه الماء بالقنوات الأرضية [1] وليس هنا مكان وصف الفن المعمارى والفسيفساء فى هذه القصور ، أو تبين الآثار الإسلامية فيها ، فذلك موضوع متصل بالفن ، ولكن هذه الصورة الوصفية تهيئ الجو لتناول الشعر الصقلى الذى قيل فى وصف القصور والمتنزهات .

فى هذا الجو عاش البثيرى الصقلى فهو يصف المبانى التى أنشأها رجار فى قصيدة يمدحه بها فيقول :

وقصورٌ منصوريةٌ حطَّ السرورُ بها المطيهْ
واعجبْ بمنزلها الذى قد أكملَ الرحمنُ زيه

(١) C. Waern : Med. Cicily, p. 111-116.

والملعب الزاهى عـلى كل المبانى الهندسيـه
ورياضه الأنفُ الـتى عادت بها الدنيا زهيـه
وأسـودُ شاذَرْوانـه تهمى مياهـاً كوثريه
وكسا الربيـعُ ربوعهـا من حسنه حللاً بهيه
وغـدا وكللَ وجههـا بمصبغات جوهريـه
عطرْنَ أنفاس الصبـا عند الصبيحـة والعشيه

والشاعر يذكر فى هذه القصيدة المنزل والملعب والرياض والأسود التى تتدفق المياه من أفواهها، ثم يلتفت إلى ألوان الأزهار وعطرها الذائع فى الصباح والمساء — « يذكر » فقط ولا شىء وراء هذا الذكر لأنه أعجز من أن يعبر عن إعجابه، فهو يطلب إلينا أن نعجب بكل هذه الروائع، وهو كشعراء الطبيعة فى العصر السابق ينظر إلى الأجزاء ويعدّها، إلا أن الفرق بينه وبينهم أنه هنا غير مهتم بالتشبيه اهتمامهم، ليس لأنه عاجز عن توضيح هذه العناصر بما يقاربها، ولكن لأنها أقوى منه فغلبته بفكرة تفوقها، وأن لا شىء يدانيها، فالملعب يزهو على كل المبانى، والرياض الأنف تزهو بها الدنيا، ومنزلها قد أكمل الرحمن زيه، وبيئة الشاعر الدينية قد أسعفته شيئاً ما فى تصوره الجنة مثالاً أعلى لهذه القصور والمتنزهات البديعة، ومع ذلك فأى فرق بين هذا الوصف وبين قطعة فلقندو فى تعداد أنواع الثمار ومحاولته الإفضاء بإعجابه بتلك المناظر والقصور؟ بل ربما كانت قطعة فلقندو أكثر انفعالاً من قطعة البثيرى.

وعرض البثيرى الشاعر قصيدته هذه على ابن نشرون وطلب إليه أن يعمل على وزنها ورويها فقال:

لله منصوريـةٌ راقتْ ببهجتها البهيـه
وبقصرها الحسَن البنا والشكل والغرف العليه
وبوحشها ومياهها الـ غزر العيون الكوثريه

فقد اكتستْ جنّاتهـــا ... من بينها حللاً بهيـــه
غطى عبير ترابهـــا ... بمـدبجات سندسيـــه
يُهْدى إليك نسيمهـــا ... أفواه طيبٍ عنـــبريه
واستوقفتْ أشجـــارها ... بأطايب الثمـــر الجنيه
وتجاوبتْ أطيارهـــا ... فى الصبح دأباً والعشيه
وبها رُجارُ نمى العلا ... ملك الملوك القيصريه
فى طيب عيش دائمٍ ... ومشاهد فيهـــا شهيه

وإذا كنا لا نستطيع أن نتهم البثيرى صراحة بعدم التأثر والاستجابة لفتنة القصور والأشجار والمياه ، فالأمر مختلف مع ابن بشرون إذ أنه دفع إلى المحاكاة دفعاً فردد ما قاله البثيرى أوكاد ، وكلاهما ذكر الحلل ووصفها بأنها بهية ، وأشار إلى الرائحة العطرة التى يحملها النسيم ؛ ثم زاد ابن بشرون ملاحظته للأشجار المستوسقة بأثمارها ، وتجاوب الأطيار فى أعاليها . وربما لم يغفل البثيرى هذين المنظرين لأن قصيدته غير تامة . وتسيطر صورة الجنة على ابن بشرون أكثر من صاحبه فهنا الغرف العلية والعيون الكوثرية والمدبجات السندسية ، فالمثال عند الشاعرين واحد .

وكما وقف هذان الشاعران أمام القصور ومتنزهاتها وقف عبد الرحمن الطرابنشى أمام متنزه المعتزية المعروف بالفوارة يقول :

فوارةَ البحرين جمّعْت المنى ... عيشٌ يطيبُ ومنظرٌ يستعظم
قُسِمَتْ مياهُكِ فى جداول تسعةٍ ... يا حبذا جريانها المتقسم
فى ملتقى بحريك معترك الهوى ... وعلى خليجيك الغرام مخيم
لله بحر النخلتين وما حـــوى الـ ... بحر المشيد به المقام الأعظم

ففى فوارة البحرين تجمعت المنى « عيش يطيب ومنظر يستعظم » ولا بأس بهذا الجمع لأن المنى لا تجمع الأشياء حسب ترتيب منطقى ، ولكن أرأيت

إلى كلمة « يستعظم» كيف أضعفت من شأن المنظر ولم تجعله عظيما بحال، إنها دليل فقر فى القدرة على التعبير عند الشاعر. وهذا يجعلنا نلتفت إلى القصيدتين السابقتين ونرى فيهما مثل هذه الظاهرة لا فى الألفاظ فحسب بل فى ضعف التراكيب فى تلك الصيحات التعجبية من مثل: لله منصورية، لله بحرالنخلتين، وأعجب بمنزلها . . . إلخ لنضيف فقراً آخر قد ذهب بالتأثر الصحيح والانفعال الصادق. ثم ما هذا الانتقال من فوارة البحرين إلى إعلامها أو إعلامنا أنها قسمت فى تسعة جداول ؟ ثم لماذا «حبذا جريانها المتقسم » هذا عجز يدل على أن الإحساس بالمنظر ميت أو معدوم أصلا فى نفس الشاعر .

وطريقة الشاعر فى الوصف أن يعدد المناظر التى رآها كلا على حدة كأن يقول :

وكأن ماءَ المفرعين وصفوَهُ　　　درٌّ مذابٌ والبسيطةُ عنــدم
وكأن أغصانَ الرياض تطاولت　　　ترنو إلى سمك المياه وتبسم
وكأن نارنج الجزيرة إذ زها　　　نارٌ على قُضُب الزبرْجدتُضْرم
وكأنما الليمون صفرة عاشقٍ　　　قد باتَ من ألم النوى يتــألم
والنخلتان كعاشقين استخلصا　　　حذر العدا حصناً منيعاً منهمُ

وهذه هى الطريقة التى رأيناها عند ابن حمديس وغيره من شعراء العصر السابق؛ والخيط الذى يربط بين أجزاء قصيدته هو حروف التشبيه، فإذا وصل إلى النخلتين انصرف عن كل منظر آخر سواهما وأطال الوقوف نسبياً عندهما . ولأورد أبياته فيهما قبل أن أحاول استكشاف السبب الذى دفعه إلى ذلك :

والنخلتان كعاشقين استخلصا　　　حذر العدا حصناً منيعاً منهم
أو ريبــة علقتهما فتطــاولا　　　يتهيبــان ظنون من يتوهم
يا نخلتىْ بحْرىْ بلرْمَ سقيتما　　　صَوْبَ الحيا بتواصلٍ لا يُصْرم

هنيئًا مرّ الزمـــان ونلـــتما كلّ الأمانى والحوادث نوم

بالله فيئا واسترا أهلَ الهوى فبأمن ظلكما الهوى يتحرّم

ولكى نفهم سر هذا العشق للنخلة لا بد من أن نعرف أن هناك معنى مبهماً يحوم الشاعر حوله من أول القصيدة إلى آخرها ، ومهما ينصرف عنه فإنه يعود إليه من جديد ، وذلك المعنى المبهم هو «الهوى » — الهوى الذى لا يعرف حدوداً ، ويكفى أن يكون أى هوى كان حتى يصلح لذلك المسرح الذى يخيم فيه الغرام. ثم لا بد أن نضيف إلى ذلك الهوى المبهم تلك الثنائية التى تأسر الشاعر أسراً قويًّا : فالفوارة هى فوارة البحرين أو الخليجين ، والبحر بحر النخلتين ، والماء يجرى فى مفرعين ، والماء يذكر مع البسيطة كالدر على العندم ، والحوت فى الماء يقابل الطير فى أعالى الشجر ، والنخلتان ؟ هذه الثنائية تفسر ذلك الهوى المكبوت فالشاعر يرى الأزدواج فى الطبيعة ويفقده فى حياته ، وأجمل ما يرمز إلى هذا الازدواج النخلتان اللتان ترتفعان بين تلك الأشجار بقامة إنسانية جذابة فهو يدعو للنخلتين بالهناءة طوال الأيام وبأن تنالا الأمانى والحوادث عنهما غافلة — دعوات غريبة حقاً. ثم لمَ كانت الوقفة عند النخلتين لا عند أى شجرتين أخريين ؟ ربما كان من أسباب ذلك تفردهما بطول يلفت النظر ، وربما كان أقوى من هذا السبب ألفة يجدها الشاعر بين قلبه والنخلة لو كانت مما تورث لقلنا إنها موروثة لأن النخلة بنت الصحراء[1] فهى أقرب إلى نفسية الشاعر من أى شجرة أخرى سواء أكان عربى الأجداد أو إفريقى النشأة ، هى رمز البداوة التى لم تمت من نفسه على الرغم من بعد عهده بها . هذه النخلة جلبها آباؤه أو أجداده ومعها الجمل ليطبعوا على الأرض الصقلية طابع البداوة — التى أرادت أن تنقل الصحراء حيثما انتقلت.

ومهما يكن فى هذه الأشعار من ضعف فى العاطفة والأسلوب فإنها التفاتة

(١) يذكر هوجو فلقندو فى رسالته لصديقه ويشير إلى البلح ولكنه لا يجسر أن يقول إنه مما يؤكل .

استطاعت أن تجعل من الطبيعة الصقلية ذات القصور والمتنزهات موضوعاً ولا يوازيها – مع ما هنالك من فروق – إلا وقفات ابن حمديس عند تصور إشبيلية وبجاية . أما شعراء العصر الإسلامى السابق فلم يكن اهتمامهم بهذه الناحية واضحاً.

٣

الشعر فى البيئة الإسلامية

ونخلى هذا الشعر فى بلاط الملك النورمانى وبين متنزهاته لنرى حال الشعر بين الجماعة الإسلامية ، ونطلع على روافده الاجتماعية والنفسية ، ونعرف إلى أي حد تأثر بالأوضاع الجديدة . وقد عرفنا من قبل ما صنعه الفتح بالجماعة الإسلامية ، وكيف نفى منها الأكثرية المثقفة ، وأبقى أقلية من العلماء والأدباء ؛ ثم رأينا كيف احتفظ الحكم النورمانى بالجماعة المفيدة له فى الحياة العملية – بالتجار والصناع أو بتلك الطبقات المدنية التى كانت رسخت فيما بينها قواعد المال ، وبالجند الذين كانوا ضرورة لازمة لحماية المملكة الجديدة . وشاهدنا كيف انقلب المسلمون فى بعض النواحى إلى أرقاء لاصقين بالأرض وكيف انحصر فى ربقة هذا الرق عدد كبير منهم .

هذا المجتمع الإسلامى الجديد ليس هو المجتمع الذى عرفناه من قبل وإنما هو مجتمع ذمى يدفع الجزية ، مجتمع كان يتمتع بالسيادة على غيره من الأجناس ، فأصبح يحاول بالطرق السلمية الضعيفة أن ينال بعض الحقوق التى قد تقربه من الأجناس الأخرى ، أو إن شئت التمثيل فقل إنه مجتمع كان أسداً فمسخ ثعلباً ، وحالته الاجتماعية والنفسية والخلقية تلخص فى الجوانب التالية :

(ا) فقد السيادة وأصبح محكوماً بعد أن كان حاكماً ، ومنع الإيمان المطلق برمز معين كانت قداسته فى الحياة السياسية ذات أثر فى حياته لاتصالها

بالدين ، وذلك الرمز هو الخليفة ، وليس من الممكن جحد الأثر الذى كان للخلافة فى عقليات الناس يومئذ .

(ب) أصبح حكمه حكم الأقلية ، له ما للأقليات من دأب ونشاط ، بسبب المنافسة ، وفيه ما فى الأقليات من محاولة المحافظة على الكيان الجماعى والتمسح بأذيال السلطة الحاكمة والتقرب منها بشتى الوسائل ، ثم فيه ما يتبع ذلك من مداهنة وتملق صاغر والتفاف حول الحامى كالتفاف الكلب على صاحبه ، وقد يصبح هذا الحامى موضع نزاع الجماعة نفسها إن كان فيهم ذوو أطماع ، فيحاول كل فريق أن يستأثر بعطفه ، فتنقسم الجماعة على نفسها وخاصة إن تقريب الحامى لجماعة دون أخرى أو لفرد دون آخر يوقع الجماعة فى خصام فتصبح قوتها مشلولة بالاختلاف والتناحر ويفيد من ذلك صاحب السلطان .

(ج) صار دائم التوجس والخوف من عدوان يقع عليه بين لحظة وأخرى وأصبح يعد نفسه لمقابلة الشر بالشر ، لا للإنتاج المفيد فى وقت السلم ، وفى هذه البيئة يكثر الشطار والنهازون للفرص ، كما تكثر العيون التى تسعى لتكيد للجماعات الأخرى فى السر .

(د) أصبح من سماته التدين والالتفاف حول عمود الدين لأنه المبدأ الذى يربط الجماعة ذات الجنسيات المختلفة ، وهو الذى يحدد علاقتها بغيرها من أهل الأديان الأخرى ، ومن أشق أحوال الشعور الدينى كبته خوفاً أو تقية ولذلك لا تكاد الأقلية تشعر بشىء من القوة حتى تصخب متظاهرة بشعائرها فى شىء من التحدى تعرفه القرون الوسطى صخباً جماعياً ؛ أما الفرد نفسه فيشيع الصدقات ويعين الفقراء ويعطف على الغرباء من أهل دينه . والعداوة الدينية مريرة تسير الحياة ؛ ومما يذكيها رؤية الثراء فى فريق دون آخر ، ورؤية المسجد الذى حول كنيسة ، وتربع فريق دون غيره فى الوظائف العليا ، وكلمة نابية ندت فى حق واحد من غير دينه . . . إلخ ثم تستمد كل هذه المظاهر سيفاً كتب عليه اسم الدين أثناء الثورة والهياج .

(هـ) امتحان فريق من الأقلية بالفتنة فى دينه ولجوئه أحياناً إلى تغيير دين آبائه لإخفاقه فى دنياه ، أو لحب غلب عليه ، أو لشهوة عابرة يقضيها كالتخلص من الضريبة ، أو الرفعة فى المناصب ، وما أشبه، ومثل هذا له نفسية خاصة أبرز مافيها القلق .

(و) الفوضى فى حياة الأسرة وخروج الابن على طاعة أبويه ، وثورة البنت على أهلها ، وانحلال سلطة الأب والزوج لوجود ملجأ يعوذ به الحانق ويتخلص به مما يعتقده ظلماً واستبداداً ، وغلبة المداراة أو النفاق الاجتماعى لا فى السوق والمكتب والديوان فحسب ، بل فى البيت وبين أفراد الأسرة الواحدة .

ونسرف إن قلنا إن المسلمين كانوا غالباً يعرفون الرضى عن حالتهم فى صقلية ويدينون بالقناعة فيما صاروا إليه — كانوا يخافتون فى تذمرهم ، ويهمسون فيما بينهم وبين أنفسهم بالشكوى ، فإذا وجدوا رجلا كابن جبير يحدثونه بمخاوفهم وآلامهم نفضوا بين يديه كلّ ما كان خافياً ؛ ولدينا قطعة نثرية فيها هذا التذمر والقلق ، يقول فيها كاتبها بعد إعلان الشوق لصديقه : " لكنى إذا رجعت إلى شاهد العقل ، وعدلت إلى طريق العدل يمازج قلبى سروراً ، ويخالط شوقى بهجة وحبوراً ، بما ألهمك الله تعالى إليه من صفاء النية والإخلاص والظفر بأمل النجاة والخلاص ، فأتلو عند ذلك " ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً " ثم أرجع إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم : " الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن" فاعلم أن الأمور كلها مقدورة وأنها فى اللوح مسطورة ، فأفزع إلى الدعاء لمقدّر الأمور الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، أن يحسن لنا العقبى ، ويقضى لنا بالحسنى ، ويسبل علينا من العافية ستراً سابغاً ضافياً ، ويوردنا من السلامة مورداً سائغاً صافياً " [1] .

وقد صور الشعر هذه الحياة للجماعة الإسلامية إذ نجد صوراً من الغضب والرضى والتعاطف فهناك من يسعى بين اثنين — فقيهين — فيتعاتبان بشدة

---

(١) الخريدة ١١ الورقة ١٩ انظر الترجمة رقم ١١ من مجموعة الشعر .

ليتصافيا ، وهناك رسائل فى الشعر تصور مبلغ التلطف فى مخاطبة الواحد الآخر ورسائل منثورة مليئة بالعتاب الذى يبلغ أحياناً حد الغضب ،وهناك من يحجب عن أحد الرؤساء فيؤثر هذا فى نفسه حتى ليتمنى أنه لم يكن.وهذا الإرهاف فى المعاملة من ناحية،وسورة النفس ونهوضها إلى التدقيق فى العلاقات من ناحية أخرى،ألا يمكن أن يكون له صلة بما قد نسميه« الواجب المتعارف » بين جماعة متآخية فى الدين يؤذى الفرد منها إلى درجة النفور أن يحس الإخلال فى هذا الواجب آتياً لا من الغريب بل من القريب ؟ ثم ألا يدل هــذا الإسراع إلى التعبير عن القلق أنه مستوحى من روح ذلك التضامن الذى يمليه الواجب المتعارف ؟

وليس عبثاً أن نسمع فى هذه البيئة شاعراً لا يدعو إلى التنفير من الناس فحسب بل يقوى صوته فيدعو إلى إعلان الحرب عليهم وينهى عن الاغترار بالتبسم والملق الذى يبدونه (١) :

إخوان دهرك فالقهم مثل العــدا بسلاحكا
لا تغــترر بتبسم فالسيف يقتل ضاحكا

وهل نستطيع أن ننسب إلى عدم النجاح فى التقرب من الحامى والإخفاق فى المنافسة،وإلى التباين الذى تحدثه الحكومة المؤسسة على النظم الإقطاعية ــ هل نستطيع أن ننسب قول الشاعر (٢) :

وكم خامل فى الناس أمسى مرفعا ترقى إلى العليــاء كل سنام
فتعسا لدهر حطّ علو مراتــبى وقلل إخوانى وأكــثر ذامى
إذا اخضر يوماً منه للمرء جانب غدا فجلا للعــين كف لئام

---

(١) الخريدة ١١ الورقة ٨ والترجمة رقم ٥ من مجموعة الشعر .

(٢) الخريدة ١١ الورقة ١٠ والترجمة ٩ من مجموعة الشعر .

نعم هذا معنى شائع كثيراً ولكن هل من الغريب أن تنبت الأسباب المشابهة نتائج متشابهة ؟

ثم ماذا كان أثر التدين فى شعر هذا العصر عامة ؟

لقد انعدم الشعور الدينى فى القصائد التى تدور حول الملك النورمانى وأسبابه ، وماتت كلمة الجهاد ، فلم نعد نسمعها أو نسمع متعلقاتها فى الشعر ، إذ لم يعد يجمع بين الممدوح والمادح رابطة دينية ، أو يحفزه إلى الثناء عليه شعور دينى بجانب حاجاته الدنيوية ــ هذا صوت قد خفت أبداً ، وقد كان المتوقع أن يكون كبت هذا الشعور فى العلاقة بين الشاعر وصاحبه سبباً لتسربه فى ظل الحياة الإسلامية الخالصة ، ولكن إذا استثنينا قصائد الرثاء وجدنا الصبغة الدينية تمحى فى الشعر الإسلامى الخالص أيضاً ، حتى لنجد أشعار الفقهاء لا فى الحب فحسب بل فى المجون والغزل ببنى الأصفر .

وحب الحياة أو الثورة النفسية على الواقع الدينى تتضح فى شعر الإدريسى إذ يحاول فى قصائده أن يقتل الشعور بالحرمان ، ويصور تحقق الرغبات والغرق فى اللذة فى زيارة تستغرق طول الليل ، وقد كان هذا العامل الجديد قادراً على أن يكسب الشعر فى هذا العصر حيوية لم نعرفها فى كثير من شعر العصر الإسلامى ولكن هذه الحيوية لم تكمل له لأن عمره كان قصيراً ، ولأن الثورات قد باعدت بين المسلمين والطمأنينة التى تبث فى الصدور حب الحياة .

ومهما يكن فقد برزت فى هذا الشعر بعض مظاهر القوة وخاصة فى التصوير وأصبحنا نجد مثل هذه الصورة الفكهة فى قصيدة مجونية [1] .

تجذب خصراً مخطفا بكفل مرجرج
كمثل زق ناقص على حمار أعرج

---

(١) الخريدة ١١ الورقة ١٢ والترجمة رقم ١٠ من مجموعة الشعر .

أو هذه الصورة الأخرى[١] :

بتنا على فرش العفاف وبيننا نجوى ترق لها الصفا وتلين

والليل كالزنجى شــد وثاقه والنجم مطّلع عليه أمــين

٤

مقارنة بين الشعر فى البيئة الإسلامية والشعر فى البلاط النورمانى

ولتوضيح الفرق بين الشعر فى الجماعة المسلمة والشعر فى بلاط الملك النورمانى أتناول شعر الرثاء بالمقابلة وأدع المدح، لأن الذى وصلنا منه فى رجار قليل لا يسمح بعقد مقارنة وافية . أما الرثاء فلدينا منه قصيدة لأبى الضوء سراج فى رثاء ولد رجار كما أن هناك عدة قصائد فى رثاء بعض زعماء المسلمين . وكثرة الرثاء والتفجع على من يموت من هذه الجماعة فيه إحساسها بالخسارة الاجتماعية كلما ذهب فرد عظيم من أفرادها ، ولا بد من أن نقدر الفروق القائمة فى كل مناسبة حتى لا يقع الحيف على أبى الضوء فى قصيدته . يقول أبو الضوء[٢] :

خبا القمرُ الأسنى فأظلمت الدّنــا ومادَ من العلياء والمجد أركانُ

أحينَ استوى فى حسنــه وجلاله وتاهتْ به أوطارُ عزّ وأوطانُ

تخطّفهُ رَيْبُ المنــون مخاتــلاً على غرّة ، إنّ المنون لخوّان

كذلك أغراض البــدور يعوقها إذا كملت من حادث الدهر نقصان

فهو يصف الظواهر التى صاحبت وفاة المرثى ثم ينحى على الموت الخائن القادر الذى استلبه حين استوى فى جلاله ، ومثله بالبدر الذى يعتريه النقص إذا سعى إلى الكمال .

وبعد أن انتهى من هذه المقدمة قال : إنه من الحق أن يبكى عليه بدموع

---

(١) الخريدة الورقة ١٥ والترجمة : ١١ .

(٢) المصدر السابق الورقة ١١٨ والترجمة : ٦١ .

بيض وحمر كالدر والمرجان ، وأن تحرق الأكباد وتمرض الأنفس وتعظم الأتراح والأحزان . فانظر كيف جعل الشاعر البكاء حقًّا على سواه أما هو فلا شأن له بتنفيذ هذا الذى يعده حقاً :

لحق بأن يبكى عليه بأدمع لها فى مسيل الخد درٌّ ومرجان

ثم ما قيمة تشبيه الدموع فى موطن الحزن أو تقسيمها إلى فئات إن كان الحزن صحيحاً ؟ وقد ذكر الدموع فى هذا البيت فلم عاد يذكرها بعد بيت واحد ؟

وتبتاع أحزان وتهمى مدامع وتجمع أمواه غزار ونيران

وما الفرق بين الدمع هنا والدمع هنالك وما هذه الأمواه إلا الدموع ؟ وما الفرق بين قوله : وتعظم أتراح — وتكبر أشجان — وتبتاع (؟) أحزان ؟ من هنا ترى الفقر شاملاً فى كل شىء — فى العاطفة ، فى الأسلوب ، فى الترتيب ، والشاعر إنما يحشد ألفاظاً تتصل بمعنى الحزن ولا تنطوى عليه. وقد يكون هذا من ضعف شاعريته ، ولكن مما زاد الضعف وضوحاً ، انعدام العاطفة فى موضوع يحتاج إلى قسط كبير من الصدق ولا ينفع فيه الانفعال البسيط .

ضع هذه القطعة مقابل قول محمد بن عيسى :

عزّ العزاء وجل البين والجزع وحلّ بالنفس منه فوقَ ما تسعُ
يا عينُ جودى بدمع خالص ودم فما عليك لهذا الرزء مُمْتنع
فالجسم ينحلُ والأنفاسُ خافتةٌ والقلبُ يخفق والأحشاء تنْصدع
كونى على الحزن لى يا عينُ مسعدة فإن قلبى لما تأتينه تبع

فهنا هذا التهويل المقارب للتهويل السابق ، وفيه هذه الدموع البيض والحمر ، وفيه تصوير للحالة الجسمية والنفسية التى نزلت به من جراء الحادث الجلل — فيه كل التكلف الذى ورد فى القطعة الأولى ولكن فيه عنصراً واحداً ينقص شعر ابى الضوء فقد أبى أن يقول للناس إنه بكى أو أن كبده احترقت أو أن الماء

اجتمع مع النار من شدة حزنه هو — أبى أن يقول ذلك لأنه فى حقيقة الأمر صادق مع نفسه لم يحزن ولم يبك ولم تحترق كبده ؛ وإذن فلم يرثى ولم يطلب إلى غيره أن يفعل ما لم يفعله ؟ كلا الشاعرين يرثى شخصاً غريباً عنه وكلاهما يلجأ إلى التهويل فى تصوير الحزن ولكن حتى فى هذا التهويل فرق لأن التعاطف المشترك مفقود بين أحدهما وبين المرثى .

ثم انظر إلى المسألة حين تخف حاجة الشاعر إلى هذا التعاطف القائم فى أصله على وحدة ما — والوحدة الدينية يومئذ أقواها — واستمع إلى أبى الضوء يعد الأشياء التى حزنت على ولد رجار تجده يقول :

تبكت له خيماته وقصـــوره	وناحت عليه مُرْهفات ومرّان
وعاد صهيلُ الخيـــل فى لهواتها	حنيناً وعاقتهن ّ لُجْمٌ وأرسان
وما ناح وُرْقُ الأيك إلا لهُ فلوْ	دَرَت لبكت قبل الحمائم أغصان

فهذا ميت قد بكت عليه الخيمات والقصور والمرهفات والمران والخيل والورق وكذلك مرثى ابن عيسى بكت عليه الخيل والسيوف (المرهفات) والخطية (المران) . فالباكون متقاربون أو متشابهون ولكن أين الفرق ؟ استمع إلى ابن عيسى يقول :

بكته المذاكى المقربات وقطعت	شكائمها إذ منه أعدمت الركضا
مشت وهى بين الخيل أنزرها دما	وأبرزها جسما وأهزلهـــا نحضا
وكادت سيوف الهند تنـــدق ّ حسرة	وأجفانها تنشق ّ عنها لكى تنضا
وخطّ على الخطية الرزءُ أحـــرفاً	أرادت لها خفضاً فحولها خفضا

تجد أن صورة أبى الضوء ألطف لأن فيها عبوراً سريعاً فى الصورة — المستحيلة أصلا — أما ابن عيسى فوقف عند المحال يغرق فيه ، ويمد فى

جوانبه، ويضفى على الصورة زيادات تزيدها افتعالاً ؛ ولا شك فى أن أبا الضوء حين جعل صهيل الخيل حنيناً كان ألطف طبعاً من محمد بن عيسى الذى أخرج الخيل عن طورها حتى قطعت الشكائم ونحل جسمها وبانت عظامها وأدركها الهزال والإعياء . فلما لم يكن أبو الضوء فى حاجة إلى سند من شعور عميق فى هذا المعنى استطاع أن يجلوه خيراً من ابن عيسى .

ثم راح أبو الضوء يصور هول ذلك اليوم وأنه تشيب فيه الولدان ويشبهه بيوم الحشر وقد اجتمع فيه الرجال والنساء حتى ضاقت بهم الأرض ، ولحظ لبسهم للسواد فشبههم بالأغربة ، بعد أن كانوا فى ثياب اللهو كالحمائم :

كأن منادى البعث قـام مناديـاً لحشر فهب الخلق طرا كما كانوا
وقد ضاق رحب الأرض بالخلق فالتقت جموعهم مرجاً رجالٌ ونسوان
وكانوا بلبس اللهو بيضاً حمائماً فعادوا وهم فى ملبس الحزن غربان

وهذه المعانى مفرقة عند ابن عيسى فى غير قصيدة . ففى معنى يوم القيامة يقول :

شهدنا على قرب بمشهد موتـه مشاهد لم تخط القيامة والعرضا

وفى لبس السواد :

سعوا مشاة وهم فى الزى أغربة مسودّة من وراء النعش تتّبـع

وانفرد ابن عيسى بمعان لم يكن أبو الضوء يستطيع أن يقترب منها وهى أمور إسلامية كذكر العيد وحال السرور فيه ، وكيف منعت الوفاة الناس من ورود المصلى ضحى ، والتعزى بالرسول والصحابة ، والتحدث عن الملائكة التى جاءت لترفع الميت إلى السماء . فأبو الضوء إنما يحشد المبالغات حشداً لأن المضطرب الذى يهوى فيه محدود ، وربما لم يساعده كثيراً فى الرثاء أنه ليس من الشعراء الذين يجدون العزاء فى مظاهر كونية حتى يلجأ إلى الحكمة والتفلسف فى

أمر الموت فهو ضيق الباع قصير الرشاء من ناحيتين : ناحية المعانى التى لا بد له أن يتجاوزها فى مثل موقفه ، وناحية مذهبه الشعرى ، والضعف فى الناحية الأولى يجيء من ضعف الشعور الدينى المتبادل . وهناك معنى لا يمكن أن يتعرض له أبو الضوء ، وأفاد منه الشعراء المسلمون فى رثاء عظمائهم ، وهو أن كل مفقود منهم فإن فقده ضربة فى صميم العزة الإسلامية بالجزيرة وركن كانوا يستندون إليه فخفت هيبتهم بعده :

لقد مات فيه عُدّةٌ أىّ عـــدة	لنا فعدمنا كلّ عيش به يرْضَى
وأبصارنا كانت تسامى له وقـــد	غدا الكلُّ منا طرْفه اليومَ قدغضّا
وقد كان طرفى ليس يغضى على القذى	فأصبح عن أقذائه اليوم قد أغضى

الفصل السابع

هجرة الشعر إلى صقلية

ابن قلاقس الإسكندري

هجرة الشعر إلى صقلية — ابن قلاقس الإسكندرى

كل ما تقدم من حديث عن شعر العصر النورمانى يشمل عصر رجار على وجه الخصوص، وليس بعده شعر عربى صقلى إلا نقوش على القصور من أمثلتها فى قصر لغليالم الثانى [١] :

تأملْ وقفْ وانظرْ ترَ خيرَ إيوان ... لخير ملوك الأرض غليالم الثانى

ولكن إغراء الأدباء والشعراء بالقدوم إلى صقلية وتشجيعهم على ذلك بالمنح والعطايا كان لا يزال دأب الملك النورمانى منذ أن سن رجار هذه الطريقة. ولعل هذا هو الذى أثار ابن قلاقس عن مصر وحمله على زيارة صقلية إذ ليس هناك إشارة واضحة إلى الدافع الذى حدا به للقيام بتلك الرحلة . وذكر ابن ميسر فى تاريخه « أن رجار كان يحب مديح الشعراء ويجيزهم فذهب إليه جماعة من الشعراء ومدحوه منهم ابن قلاقس ، وأمر أن يصنف له تاريخ فصنف له تاريخ كبير [٢] ». وفى هذا النص سهو فإن ابن قلاقس لم يزر رجار وإنما زار صقلية أيام غليالم الثانى، وأما التاريخ الكبير الذى صنف له فربما كان إشارة إلى كتاب الإدريسى وهو فى الجغرافية لا فى التاريخ. ولسنا ندرى هل اتصل ابن قلاقس بغليالم الثانى أو لم يتصل ؛ فقد كان غليالم حين دخل ابن قلاقس صقلية سنة ٥٦٣ هـ لا يزال تحت وصاية أمه . وليس فى ديوانه — أو ما تبقى منه — قصيدة فى مدح صاحب صقلية . وينص الصفدى على أنه مدح ملك صقلية الإفرنجى

---

(١) Amari : Le Epigrafi arabiche di Sicilia p. 72.

(٢) تاريخ ابن ميسر : ٨٥ .

(غليالم) وأن جملة ما أعطاه هذا الملك مركب مملوء جبناً[١] ومما قد يؤيد هذا النص أن ابن قلاقس عرف شخصاً يسمى « جردان » [٢] وهو يدعى فى ديوانه وزير صاحب صقلية ، ومدحه بقصيدة مثبتة فيما بقى من شعره. واتصاله بالوزير أو بهذه الشخصية العظيمة مما قد يجعل اتصاله بصاحب صقلية نفسه محتملا. ولكن من هو (جردان) هذا ؟ إن التاريخ لا يسمى إلا أسطفان المستشار عند والدة غليالم الذى كان بمرتبة الوزير . ولكن إذا صدقنا ابن جبير الذى يتحدث عن وزراء غليالم بصيغة الجمع لم نستبعد أن يكون هنالك وزراء كثيرون لغليالم ولا يبعد أن يكون جردانو واحداً منهم ، بل ربما كان الأرجح أن جردانو وكثيرين غيره كانوا أعضاء المجلس Curia فى بلاط الملك ؛ وإذن فيكون جردانو أحد أولئك الأعوان الشيوخ . وفى مدحه يقول ابن قلاقس[٣] :

وَجرّدْنا المدائــح فاستقرّتْ ... على أوصاف جُرْدَنّا الوزير

فنظّمْنا المفاخر كالــلآلى ... وحلّينا المعــالى كالنحــور

وقمنا فى سماء العز نرْعى ... جبينَ الشمس فى اليوم المطير

وأعجبُ ما جرى أنّا أمِنّا ... ونحن بجانب الليث الهصور

وواضح أن ابن قلاقس يحوم حول المدح لينفذ إلى صفات يمدح بها ، ويبهم فى القول فيستعمل ألفاظ المفاخر والمعالى والعزّ ، ولكن قدرة الشاعر فى هذا الإبهام جعلت التحويم حول المدح خيراً من المدح نفسه ؛ فلما نفذ إلى المدح المباشر عاد يرتطم بصخور المبالغة ، وهو يحاول أن يقلبها على كتفى ممدوحه ويقول :

لهيبُ صواعق العزَمات منه ... يكادُ يذيبُ أفئدة الصخور

(١) أعيان العصر مجلد ٢ الورقة ٢١٩ والنص على أنه مدحه عند ابن خلكان أيضاً .

(٢) فى نسخة الديوان المطبوعة يسمى يزجرد .

(٣) النص فى الخريدة نسخة نور عثمانية .

وماءُ مكارم الأخلاق منـــه يكادُ يردّ صاعدةَ الزفــير
وأغراسُ الأمانى فى يديـــه تهزّ معاطفَ الروح النضير

ويدل ما تبقّى من رسائله على أنه تعرف فى حضرة غليالم إلى القائد غارات ابن جوشن " خاصة المملكة الغليلمية بصقلية " وفى كتاب له كتبه إليه شكر على ما لقيه فى جنابه من حفاوة وإكرام "فقد فارق جنابها (الحضرة) الكريم ممتلئ اليد نعمةً ، والفم نغمة ، والخاطر آمالا ، والناظر أموالاً ، اصطناعاً منها ، وتفضلاً أبى الله أن يصدرَ إلا عنها [(١)] " .

وكاتبَ كذلك السديدَ الُحصرى وهو اسمٌ يذكرنا بمنافس ابن الحجر الذى يسميه هوجو فلقندو Sedictus وفى كتابه إليه دعابة تدور حول شهر رمضان ، وأنه شهر عظيم البركة ، ثقيل الحركة ، ودعاء لعله أن يمضى سريعاً ، ويقضى بخنجر هلال الفطر صريعاً [(٢)] . ولكنه كان أكثر أنساً بشخص ثالث اسمه ابن فاتح وهو شيخ فقيه أديب بصقلية ، يطلب إليه فى رسالة عوناً على السفر" فإن رأت (الحضرة) أن تيسر له أسباب سفره ، وتفتح له أبواب ظفره ، قبل خروج ركابها العالى ، فلسان شكره ينقلب دعاء ، ويكون له سمع الإجابة وعاء" [(٣)] .

فهذه الرسائل قد عرّفتنا بثلاثة من المسلمين فى بلرم ولعلهم كانوا جميعاً من رجال الدولة ومن الزعماء فى بنى قومهم .

ولكن ابن قلاقس فى صقلية اختص بمدائحه أبا القاسم بن الحجر ، ابن حمود زعيم المسلمين حينئذ فى الجزيرة والذى نعرفه من التاريخ أن أبا القاسم

---

(١) ترسل ابن قلاقس : ٣٤ من نسخة خطية رقم ٦١٧ أدب بالتيمورية .
(٢) المصدر نفسه : ٤٧ — ٤٨ .
(٣) المصدر نفسه : ٤٣ .

كان يلقب بالقائد ، وينافس فى الزعامة مسلماً آخر ، ويحرض المسلمين على أسطفان ، وأنه كان من الأغنياء ذوى الإقطاعات الواسعة ، وقد رأى ابن جبير له ولإخوته وأهل بيته فى بلرم قصوراً مشيدة أنيقة ، وكان ذا أطماع بعيدة ، يحلم بعودة الجزيرة إلى حوزة المسلمين ، ويعمل لذلك ، حتى ليقول الهروى إنه اجتمع به فى صقلية فأعطاه أبو القاسم كتاباً إلى السلطان يحثه فيه على أخذ الجزيرة [١] . ولعل هذا التدبير قد استغله أعداؤه فوشوا به إلى الملك ، فغضب عليه وصادر أمواله حتى أغرمه ما يزيد على ثلاثين ألف دينار مؤمنية ، وتخلّى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه ، حتى بقى دون مال [٢] ولما زار ابن جبير صقلية كان غليالم قد رضى عنه ، وأخذ ينفذه فى بعض أشغاله السلطانية " نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله " [٣] .

ولما نزل ابن قلاقس فى ساحته كان لا يزال على حالته الأولى من الرفعة والغنى ، فمدحه بقصائد كثيرة ، وألف له كتاب " الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم " والكتاب كما تصوره القطعة التى اقتبسها العماد فى خريدته لا يعدو أن يكون فى مقدمته وصفاً للرحلة التى قام بها الشاعر حتى بلغ إلى ممدوحه ، ثم المدائح التى قالها فيه وفى أبنائه ، ثم وصف لبعض المجالس التى استدعت قول الشعر .

ولكن ما هو المنصب الذى يحتله أبو القاسم بدقة ؟ إذا اعتمدنا على الزهر الباسم نثره وشعره ، سمعنا ابن قلاقس يصفه بالبلاغة ويقول : إن " ألبس قلمه المداد عرى من الفصاحة قس إياد ، وأنطق طرسه الرسائل أخرس عن الخطابة سحبان وائل ، يلزم لديه ابن العميد سمت العبيد ، ويغدو عليه عبد الحميد غير حميد ، يقول له الصاحب أنا عبد لا صاحب ، ونهاية الصابى أنه بألفاظه صابى ،

---

(١) الهروى – الإشارات إلى معرفة الزيارات ، المكتبة الملحق الثانى : ٢ .

(٢) ابن جبير – والمكتبة : ١٠٢ .

(٣) المصدر نفسه

حتى لو انقلب الديوان ديوان شعر والقرطى (؟) أقراط شذر لكان هو المقرط المعلى والمقرط المحلى »[1] فأبو القاسم كان صاحب ديوان ولكن أى ديوان ؟ وما هو القرطى الذى يشير إليه ؟

ثم هو فى موضع آخر يمدحه بقوله [2] :

وبيمناك طيرُ يمنٍ وسَعْدٍ   أصفرُ الظهر أسود المنقار
قلمٌ دَبّرَ الأقاليم فالكتْـ   ـب به من كتائب الأقدار
يا طرازَ الديوان والملك أصبحـ   ـت طراز الديوان والأشعار

هو صاحب قلم يدبّر الأقاليم ، والأقاليم اصطلاح كان جارياً فى صقلية على الأقسام العسكرية — فى الغالب — ثم ما الذى جعله يعرج على الطراز ؟ هل كان لأبى القاسم علاقة بديوان الطراز فى بلرم ؟ وأوضح من هده الأبيات قوله فيه[3] :

وتلتقى كُتْبهُ الكتائبَ فى   جيشٍ من الخطّ صائدالصّيد
بــكل لفظ كأنه نفسٌ   غيرُ ممــل بطول ترديــد
صَحتْ معانيه فانتسبن إلى   فَضْل ابتكار وحسن توليــد

فهذا يخيل إلينا أنه كان صاحب ديوان الإنشاء ولعل الأصح أنه كان رئيساً على كل" الدوائر" الإسلامية من ديوان إنشاء وطراز وسلطة إدارية وغيرها.

وإذا كان أبو القاسم فى بلرم فمعنى ذلك أن ابن قلاقس أقام فى ظله هنالك . فهل تعرّف إلى غيره فى مدينة سرقوسة ؟ أو هل عرّج عليها فى دخوله إلى صقلية أو فى رحيله عنها ، لأنه يقول[4] :

---

(١) الخريدة نسخة نور عثمانية الورقة ٥٢ .

(٢) الخريدة نسخة نور عثمانية الورقة ٥٤ .

(٣) المصدر نفسه الورقة ٣٣ .

(٤) الديوان : ٨ والنص هنالك محرف كثيراً وانظر الأبيات فى معجم البلدان مادة بلرم

قد سعى بي الوشاةُ نحو عـــلاهُ فسعوا لى فلا عدمْتُ الوُشاتا
حرّكوا لى الشباةَ منهم فظنّوا أنّهمْ حرّكوا علىّ الشباتا
فدعا من بلرم حجّى فلبيـ ـتُ وكانت سرقوسةُ الميقاتا

فمن هو الذى سعى به ؟ وهل اجتمعا فى سرقوسة ثم توجها إلى بلرم أو أن هناك شخصاً آخر سافر إليه ابن قلاقس ونزل عنده فى سرقوسة ؟ وهذه القصيدة — حسب ما فى الديوان — يقولها فى مدح رجل يسمى القاسم بن خليع .

والظن قوي بأنه عرج على سرقوسة سواء كان ذلك فى عودته إلى وطنه أو فى قدومه إلى صقلية ، لأن هناك قصيدة نونية يصف فيها رحلته ، وربما كان الوصف ينطبق على رحلة من بلرم إلى سرقوسة لا العكس ، وليست القصيدة فى ديوانه وإنما احتفظ ياقوت بقطع متفرقة منها فى معجم البلدان ولعل لها مقدمة غزلية هى تلك التى أوردها الصفدى فى أعيان النصر[1] ومطلعها :

أصبحتُ بين سوالف وعيون وقفاً على أمنية ومنون

وإذا كانت هى حقاً فلدينا من هذه القصيدة قطعة فريدة ، هى قصة رحلة فيها شيء كثير من صفات الشعر الجميل ، فيها الانفعال والحركة وفيها قدرة شاعر ذى دربة فى تقليب الأداة الشعرية فى يديه كالعجينة المرنة ، ولم يستطع الموضوع نفسه — موضوع الرحلة — أن يقف فى سبيلها بحيث يجعلها جامدة ، أو يجعلها حقيقة جغرافية منظومة ، لأنها استمدت قسطاً وافراً من حيوية ابن قلاقس الشاعر الشاب العنيف المنفعل دائماً ، وقد مرّ فى وصفه بثرمة وجفلوذ والقارونية واجتاز بيقطس وليبرى وحاذَى ميلاصَ إلى أن بلغ مسّيني ، فنزل فيها ثم عاد فجدد الرحلة إلى سرقوسة فهو يقول فى ثرمة وجفلوذ :

فدخلتُ ثرمة وهو تصحيفُ اسمها لولا حسينُ الندب ذو التحسين

---

(١) الورقة ٢٢٩ المجلد الثانى .

في حيثُ شبّ الماءُ جمرة قيظه | وبقيت في مقـلاهُ كالمقلـين
وشربتُ ماء المهل قبـل جهنم | وشفعتـهُ بمطاعم الغسلين
حتى إذا استفرغتُ منها طاقـتي | وملأتُ من أسفٍ ضلوعَ سفيني
أجفلتُ من جَفَلوذَ إجفال امرئ | بالدَّين يُطْلَبُ ثمّ أو بالدين
مـع أنهـا بلدٌ أشمّ يحفـه | روضٌ يشمّ فمن منىً ومنون
تجرى بأعيننـا عيونٌ مياهه | محفوفةٌ أبـداً بحـورٍ عـين
وتركتها والنـوءُ ينزل راحـتي | عن مالِ قارونٍ إلى قـارون

ويقول في مسيني وسرقوسة :

وأظلّ أُنشد حين أنْشدصاحبي | من ذا يُمسّيني على مسيني
وحللتُها وحللتُ عقدَ عزائمي | بيدى إلى السيد المبادر دوني
فأقامني تسعين يوماً لم تـزل | نفسى بها في عقدة التسعين
بتجلفٍ لا يستقل جناحـه | ولو استطار بريشتي جـبرين
برْدٌ جرى في معطفيه وفكّه | وكلامه وعجـانه المعجـون
ثم استقلّتْ بي على علاّتها | مجنونةٌ سُحِبَتْ على مجنون
هوْجاءُ تُقْسِمُ والرياحُ تقودها | بالنون أنّا من طعام النـون
حتى إذا ما البحر أبْدَتْهُ الصّبا | ذا وجنة بالموج ذات غضون
ألقتْ به النكباءُ راحةَ عاثث | قلبتْ ظهورَ مشاهدٍ لبطون
وتكلفتْ سرَقوسةٌ بأماننـا | في ملجـأ للخائفين أمين

وفي هذه القصيدة التي عليت على موضوعها وذلته ، واستحقت اسم الشعر ، يحدثنا ابن قلاقس كيف كره ثرمة لشدة حرارتها، ولم يجد فيها صدراً رحباً إلا عند رجل اسمه حسين ، ثم أجفل من جفلوذ كما يجفل الذى يطلب بالدّين أو بالدّين — شأن مسلمى صقلية قبل زيارة ابن قلاقس لها بقليل — وسر الشاعر من جفلوذ ومن رياضها وعيون مياهها المحفوفة بالنساء الجميلات — صورة صقلية

ريفية لم يلمحها إلا شاعر غريب ، وفى مسينة أقام تسعين يوماً — إن صحت رواية البيت — عند جلف ثقيل الظل لا تخفّ روحه ولو علق فى جنبيه جناحى جبريل مع أن مسينة نفسها أعجبته حين نزلها غرة شعبان سنة ٣٦٣ هـ[1] وأعلن عن إعجابه بقوله :

بلد أعارتْهُ الحمامة طوْقها ... وكساهُ حُلّة ريشه الطاووس
فكأنما الأزهارُ منـــه سُلافةٌ ... وكأن ساحات الديار كؤوس

صورة صقلية أخرى لم تفتن إلا شاعراً غريباً .

وعاد بعدها إلى تلك المجنونة التى كانت تسحب نفسها على ماء مجنون مثلها ، سفينة هوجاء تحلف لهم بالنون أنهم سيكونون طعاماً للحيتان ، وأخيراً رحبت به سرقوسة فنزل فى ملجأ أمين .

لا نعرف على وجه الدقة المدة التى قضاها ابن قلاقس فى صقلية ولكنه كان فى اليمن سنة ٥٦٥ هـ ، فمقامه فيها ربما لا يتجاوز السنتين . وفى أثناء هذه الإقامة تعرّفَ إلى حياة بلرم وبعض رجالاتها ، وحضر مجالس الشراب ، ووصفها وذهب يطيل المدائح فى أبى القاسم بن الحجر ، ويثنى على قدرته فى الكتابة وعلى جوده ، ويمدح بنيه أبا بكر وعمر وعثمان ، ويهنئه بالصوم والعيد ، وعرف من حياة صقلية ومن جمالها ما لمسنا أثره فى القصيدة المتقدمة . ومن المغالاة أن ننسب إلى صقلية أثراً فى شاعريته وصنعته لأن ذلك القدر من الإقامة لا يبيح مثل هذا التأثر السريع . وإذا كان شعره تحت سماء صقلية امتلأ بأسماء أمكنة صقلية وأعلام من أهلها ، فهذا شىء لا يضفى على الشعر سمات جديدة والذين يدرسون أثر بيئة معينة فى الشاعر سيجدون فى مثل ابن قلاقس عقدة من نوع ما ، لأنه لم يكن يستقر فى مكان .

ولم تستطع صقلية أن ترضى ابن قلاقس ولذلك نجده يقول لصديقه الشيخ

---

(١) انظر الخريدة نسخة نور عثمانية الورقة ٥٤ .

أبى الحسن على بن أبى الفتح بن خلف الأموى الصقلى ، لما قرر الرحلة عنها .

وقمت لى من جفاءٍ فى صقلّية بلطف مصرَ عليه ظرْفُ بغداد

إن كان طبعك من ماء ورقتــه فإن ذلك [ ] بين فولاذ

ويقول له فى قطعة أخرى :

تخذتك من صقلية خليــلاً فكنت الورد يُقْطَـفُ من قتاد

وسمْتك بين أهليها صفيّا فكنتَ الجمر يقْبس ُ من زناد

فلم استحقت منه صقلية هذا الذم ؟ لم وجدها قتاداً وزناداً صلداً وفولاذاً صلباً ووصفها بالجفاء ونفى عنها الرقة ؟ علينا أن لا نثق كثيراً بأحكام أولئك الغرباء الذين كانت تتغير عليهم البيئة ، وخاصة إن كان ذلك متصلا بعاطفتهم ؛ وما نظن أن الشاعر يصدق صدقاً — موضوعيا — حين يمدح أو يهجو إلا قليلا ، زد على ذلك أن ابن قلاقس عاش فى صقلية تلك المدة محكوماً بالحنين إلى وطنه يحلم بالعودة .

ولما قرر أن يعود كان الفصل شتاء ، فهبت ريح ردّته ُ من عرض البحر إلى صقلية فكتب إلى أبى القاسم يقول [١] :

منع الشتاءُ من الوصــو ل مع الرسول إلى ديارى

فأعادنى وعــلى اختيــا رى جاءَ من غير اختيار

ولربمـــا وقـــع الحمـــا رُ وكان من غرض المكارى

وحين نزل فى ميناء الإسكندرية خرج أصدقاؤه للسلام عليه ، ولكنه لم يستقر إلا ريثما يعد نفسه لرحلة جديدة .

---

(١) انظر ابن خلكان فى ترجمة ابن قلاقس .



خاتمة

الشخصية الصقلية والشعر

١ ـ الطبيعة الأرضية وأثرها فى الشعر

٢ ـ صقلية ملتقى شعوب لا وطن شعب وأثر ذلك فى الشعر

٣ ـ الموقع الجغرافى والسمات التى تركها فى الشعر.

٤ ـ صقلية بين التأثر والتأثير.

١

الطبيعة الأرضية وأثرها فى الشعر

للبحث فى حياة القرون الوسطى صلة قوية بالدين وإذا لم تنل هذه الصلة حقها من الكشف والجلاء فى مظاهر الحياة جميعاً — والشعر أحدها — كان ذلك إغفالاً لأكبر حقيقة تقوم من وراء كل مظهر فى تلك العصور . وليس يفهم الشعر حينئذ إلا حين نفهم العلاقة القائمة بينه وبين روح التدين — الروح لا المظهر المدرسى القائم على الدراسات الفقهية .

وفى شخصية صقلية ما يمكن أن نسميه « الطبيعة الأرضية » . وبيان هذا أن صقلية فى عصور الأسطورة لم تستطع أن ترفع رأسها إلى السماء فعبدت آلهة أرضية ، أى عبدت آلهة تخافها وتحبها فى الأرض لا فى السماء ، لأن هذه الآلهة هى التى كانت تمدها بالثمار والحبوب والخمور والفوارات والينابيع ، وهى التى تخيفها بقوة « إتنا » وجبروته ، وهذه النظرة التى انصرفت بصقلية عن السماء إلى الأرض جعلتها ترى القداسة فى جوانب تلك الأرض ؛ ومن هذه القداسة والأساطير حولها تغذّى الأدب . فلما جاءت المسيحية لم تقض تماماً على الأصول الوثنية لأن فى طبيعتها قدرة قبول كثير من المواضعات التى درج عليها الناس ، ومع ذلك لم تستطع صقلية فى ظل المسيحية أن ترفع رأسها إلى السماء فعبدت القديسين على مسافات قريبة من أرضها — عبدتهم على رءوس الجبال وأسبغت عليهم صفات الآلهة الأسطورية . ثم جاءها الإسلام يمزج بين غايتين : بين توجيه نظرها إلى السماء وبين سعى حثيث فى جنبات الأرض ، فاختارت فى الغالب ما هو أقرب إلى طبيعتها ، وغرقت فى الحياة المادية ، وزادها غرقاً فيها أن الإسلام التى نزع من نفسها الإيمان بقداسة الموجودات الأرضية ، ومحا الأسطورة القديمة

كانت لا تزال كامنة فى نفسيتها — كانت لا تزال حقاً لأن الأساطير القديمة عن سكلا وخاربديس وصلت إلى المسلمين ورددوها تلميحاً لا إسهاباً — . فلما أراد بعض الثائرين على هذا الاتجاه المادى — أو بعض المتصوفة — أن يجذبوا إليهم المريدين أخفقوا فى الوصول إلى غاياتهم على أرض لا تعرف هذا الاتجاه الواضح إلى العالم العلوى . فلا غرابة إذا كان الأدب فى الأيام الإسلامية كفئاً بتلك الحاجات اليومية العابرة ، لا تعبيراً عن شىء من المثالية فى الحياة .

وهذه الطبيعة الأرضية — وهى أول عنصر فى شخصية الجزيرة — كان لها أثرها فى توجيه الحياة الإسلامية بها ، وكان لها أثران بارزان فى الشعر ، أما أولا فقد أقرت أصولا خلقية عامة يقبلها الناس فى حياتهم فأصبح فى الشعر صدى لهذه المقاييس العرفية أو الدينية — أى أنه أصبح يحث على هذه الأخلاق أو تلك ، فاستقام فى هذا مع دروس أهل الوعظ ومع الطابع العام للدراسات الفقهية فى المساجد . وأما ثانياً فقد نشأ من الاتجاه إلى الحياة العملية اتجاهات دنيوية تحل بمقاييسها الجديدة محل الدين ، ولست أتحدث عن جميع هذه الاتجاهات هنا وإنما يعنينى منها ما اتصل بالشعر ، ففى أواخر العصر الإسلامى كان الشعور بالوطن قد أخذ يقوى على كل شعور آخر ، وأصبحت فكرة الوطنية هى الدين الجديد الذى يربط بين الصقليين أنفسهم ، وهذا ما لمسناه فى شعر ابن حمديس من قبل . فإن ابن حمديس فى بكائه على صقلية كان يحس إحساساً وطنياً لا دينياً ؛ ولكنه تغير بعد ذلك حين فرضت عليه الحياة أن يتحدث من بعد عن انتصارات المسلمين على غيرهم ، وليس معنى ذلك أن الشعور الدينى عند ابن حمديس فقد بتاتاً فى أشعاره الصقلية ، ولكنه حل فى المقام الثانى ، وأصبح ابن حمديس يقول لبنى وطنه حين يحرضهم على الثبات " موتوا من أجل الوطن فإن بلاد الناس ليست بلادكم " . وهذه صرخة عجيبة فى القرون الوسطى لا نسمع مثلها إلا تمنيات المؤرخ فلقندو بأن يتحد مسلمو صقلية ومسيحيوها ليحموا وطنهم من الأعداء . والواقع أن الدين نفسه لم يكن يسمح لهذا الشعور الوطنى بالتفوق

واحتلال المقام الأول، وقد رأينا كيف أن جماعات المتدينين أو من يأخذ أخذهم لم يبكوا على صقلية وطنهم الضائع لأنهم وجدوا فى ضياعها عدالة سماوية تحق العذاب على من استحقه . وربما كان من التنبؤ الكاذب أن يقال بأن صقلية لا الاحتلال النورمانى استطاعت أن تتبنى هذا الشعور الجديد وتنميه ، ولكن لا شك فى أن الاحتلال النورمانى قد صرف المسلمين إلى العناية بذلك الحبل الذى يربط بين جماعتهم والإشفاق عليه من أن ينقطع . فاعتصم الناس بالدين بعد أن كانت أمارات الحال تدل على أن الشعور بالجزيرة — ذلك الشعور الذى تتبعنا مبادئه حتى تجسم عند ابن حمديس — سيصبح قاعدة الحياة الاجتماعية . ومع ذلك فإن الدنيوية فى العصر النورمانى لم تمت من الشعر وإنما رجعت إلى المنزلة الثانية .

وإذا كان للشعر العربى من أثر فى الشعر الإيطالى ، فهو أثر بهذه الروح الدنيوية التى حفزت الشعراء إلى اتخاذ موضوعات الحب والغناء والعبث برجال الدين أساساً لشعر جديد وخاصة الشعراء الجولياريين Goliardic ونسمع أحدهم يقول[1] :

غايتى أن أقضى فى الحان ، فقرّب الخمر منى حين تهم الروح أن تطير :

Meum est propositum in tabernae mori ult eint vina proxima morientis eri

وهى روح تجدها شائعة فى الشعر العربى فإذا طلبتها فى الشعر الصقلى وجدت شبيهاً بها قول ابن الخياط الصقلى:

ولو أنّ ملكَ الأرض تحت يدى بجعلتُ كلّ نباتها كرما
حتى تكونَ الأرضُ منهلةً تغنى الصوادى عن زلال الما

---

(١) انظر الفصل ٣ من كتاب : Haskins : The Renaiss nce of twelfth century

أو تسمع من هذا الشعر نفسه قوله متهكماً برجال الدين ومن تبعهم حين خرجوا يستسقون :

خرجوا ليستسقوا وقد نشأتْ   بجنوبة شَرِقٌ بها السَفِح
حتّى إذا اصطفوا لدعوتهم   وبدا لفيض دموعهم نضح
كُشِفَ الغمامُ إجابة لهمُ   فكأنما خرجوا ليستصحوا

وقد كان الشعراء الصقليون يتفاوتون قليلا أو كثيراً فى الشعور بالنواحى المتعددة لهذه الدنيوية ، فبينا تجد ابن الخياط يتهكم برجال الدين أويريد أن يجعل كل نبات الأرض كرماً ليشرب الناس خمراً ، بدلا من الماء ، تجده ضعيف الإحساس بالناحية الوطنية ، إذا قارناه بابن حمديس . وقد مرّ بنا قوله من قبل لبنى أبى الحسين :

ليسلكمُ أن الجزيرة بعدكم   كما قيل فى الأمثال لحم على وضمْ

وكيف أن هذه السلوى على حساب الوطن الموزع المنتهب ، ومن كان عنده أدنى شعور بوطنه وعلاقته به لا يقول مثل هذا القول . وإذا وضعنا هذا إلى جانب قول ابن حمديس وهو يتغزل :

رشأ أحنّ إلى هواه كأنه   وَطنٌ ولدتُ بأرضه ونُشيتُ

تبين لنا أى فرق هنالك فى الشعور بالوطن بين الشاعرين .

ومن الإغراق فى الخضوع للطبيعة الأرضية فى النواحى الاجتماعية نشأت فى حياة الجماعة ثوراتٌ عليها ، فقام فى المجتمع الصقلى الزهاد والمتصوفة ، وسرت فى الشعور نغمة التوجس والخوف من الناس ، والإيمان بأنهم مطبوعون على الشر ، واصطبغت البيئات الفقهية بصبغة المحافظة والتشدد . حتّى لنستطيع أن نرسم لحياة الناس خطين متوازيين ، يمتدان أحياناً بذلك التوازى فى حياة الفرد نفسه . أى أننا

نستطيع أن نرى فى وجهات متعددة بالبيئة الصقلية تشدداً وتزمتاً ومحافظة من ناحية وانحلالاً وعدم اكتراث ومفارقة لكثير من المقاييس التقليدية ، من ناحية أخرى. ولذلك ابتعدت الدراسات الفقهية واللغوية وأهدافها عن الواقع الاجتماعى فأصبحت المحافظة صبغة لها والتحرز سمة عليها ، وأصبحنا نرى من مظاهر هذا التشدد المقترن بمعنى التدين ، أخذَ الفقهاء بالأشد من كل حكم ولزومهم المدونة لا يحيدون عنها ، وقول بعضهم وقد قدم إليه تلميذه خفه ليلبسه — وكان ذلك التلميذ ممن يفتى — اصفعنى به يا أبا القاسم ولا تفتنى [1] . وتأليف الكتب اللغوية فى رد اللغة إلى مقياس واحد هو الفصحى وعدم إقرار اللهجة المحلية ، وفى هذا الجو ألف كتاب تثقيف اللسان . بينا كان الواقع الاجتماعى يسير مع طبيعته فى التكلم باللهجة المحلية أو الكتابة بها أحياناً ، ويرى أن الضرورة لا تمنع الزواج من المسيحية على أن يقتسم الأولاد بين الأب والأم فما كان من ذكر فهو للزوج وما كان من أنثى فهو لها . وقد سرى مبدأ التشدد إلى الشعر حتى ليقول ابن حمديس [2] :

خذْ بالأشد إذا ما الشرعُ وافقــهُ ... ولا تملْ بك فى أهوائك الرخصُ
ولا تكنْ كبنى الدنيـــا رأيتهمُ ... إن أدبرت زهدوا أو أقبلت حرصوا

ولا تستغرب هذه الدعوة من شاعر دنيوى فإنها تمثل أيضاً ذلك التباين بين الواقع والمثل الأعلى .

هذا من حيث التشدد ؛ أما ما قد نسميه انحلالا فقد كان يشمل جوانب عدة — كان يشمل الخروج على مبادىء الخلق والعقيدة واللغة وقد وصف لنا ابن حوقل انحلالا واضحاً فى أخلاق طبقات من الناس يعيشون فى رباطات مليئة بالفساد على شاطىء البحر ، ورأينا كذلك بعض من يفهمون الدين كما يوافق حالهم ، أما فى اللغة فقد تحدث ابن حوقل إلى رجل صقلى بعد أن سمع الخطيب

---

(١) ترتيب المدارك : مجلد ٢ الورقة ١٥٧ والترجمة رقم ١٥٧ من مجموعة الشعر .
(٢) الديوان : القصيدة رقم ١٧٤ .

يلحن فى خطبة الجمعة وسأله كيف يرضون بهذه الحال فكان جواب ذلك الصقلى الأديب "كأنه والله يا سيدى كما تقول غير أنا نحن لا نأبه لمثل هذا [١] " .

"غير أنا نحن لا نأبه لمثل هذا "كلمة تمثل ذلك الانحلال أوقلة الاكتراث عامة وأراها مناقضة صارخة لذلك الأخذ بالأشد من المقاييس — ومع ذلك فإنك واجد بين هؤلاء الصقليين الذين يصفون أنفسهم بأنهم لايأبهون لمثل هذه الأمور— واجدٌ بينهم جماعة لا يروون الحديث وهم من حفاظه لأنه لم تتقدم لهم سابقة فى العربية مثل أبى حفص عمر بن يوسف بن محمد بن الحذاء القيسى الصقلى وقد التقى به السلفى وجهد حتى يروى عنه الحديث فأبى ، قال السلفى : " وجرى بينى وبينه خطب طويل فى فضل الرواية وأن روايته أولى من امتناعه منها ، فاعتل بعلل تكلمت عليها معه فوجدت عمدته فى تحريه التحرز من الوقوع فى الكذب على النبى صلى الله عليه وسلم إذ لم تتقدم له قراءة للعربية" [٢] .

ولما دخل ابن القطاع مصر أخذ عليه نقدة المصريين تساهله فى الرواية فقد أنكر أنه رأى كتاب الصحاح أو أنه وصل صقلية " ثم لما رأى اشتغال الطلبة به ورغبة الناس فيه ، ركب فيه طريقاً فى روايته وأخذ الناس عنه مقلدين له إلا الأقل من محققى النقل فى ذلك الوقت [٣] " أى أن ابن القطاع استباح الكذب ولم يأبه أن يوصف به. غير أنه فى موقف آخر كان مثالاً للتشدد — مرض تلميذه نصرون بن فتوح بن الحسين الخزرجى بمصر واحتاج إلى شىء من المال فباع كتباً أدبية وغير أدبية ، ومن جملتها صحيح البخارى وصحيح مسلم ، ولما أبل من مرضه ذكر ذلك لأستاذه ابن القطاع فغضب عليه غضباً شديداً وقال له " كنت تقنع ببيع كتب الأدب فعنها عوض وتترك عندك الصحيحين . هل رأيت مسلماً يخرج

---

(١) ابن حوقل ١٢٧/١ .
(٢) السلفى : ١٢٢/١ .
(٣) انباه الرواة : ٥٣٦/١ .

الصحيحين من داره ؟ هل رأيت مسلماً يخرج الصحيحين من داره ؟ " وظل يردد ذلك أمام الحاضرين حتى شعر ذلك التلميذ بالندم الشديد [1] . وهكذا تلمس هذا الازدواج فى النفس الواحدة وتراها مقلبة بين التساهل والتشدد .

٢

صقلية ملتقى شعوب لا وطن شعب وأثر ذلك فى الشعر

وأهم حقيقة ذات أثر فى تكوين الشخصية الصقلية أن صقلية جزيرة فى البحر وأنها فى ذلك الموقع المتوسط ملتقى يجتمع فيه المسافرون ، ويقف عنده المتحاربون، يوم أن كان البحر المتوسط مسرحاً للحضارات وطريقاً للحركات التجارية . فهذا الموقع هو الذى منح صقلية هذا اللون من التاريخ — أى تاريخ جزيرة يتعاقب عليها الغالبون أصحاب السيادة فى البحر المتوسط ، ولكنها لم تفقد أبداً الروح التى كانت تدفعها إلى الاستقلال حتى لحظ أحد المؤرخين المسلمين أنها لم تزل فى يد متملك لا يطيع من حوله من الملوك [2] ، غير أن هذه المحاولات كانت دائماً فردية لا تنبثق من نفسية الشعب الصقلى — إذا صح أنه كان هنالك مثل هذا الشعب. يقول المؤرخ فريمان : "ولما كانت ملتقى الشعوب وميداناً للصراع فيما بينها لم تستطع أن تكون وطناً ومهداً لشعب واحد . . . ومن ثم لم يتكون فيها شعب صقلى" [3] وفى هذا القول قسط كبير من الحق ، وإن كنت لا آخذه على علاته ، فإن الروح الوطنية فى آخر العصر الإسلامى كانت قد نمت قليلاً ، ولو استمر بها الحال لكان هنالك الشعب الصقلى الذى يشعر أنه ابن صقلية ، ولكن الظروف لم تمهل هذه الروح طويلا فلم يطل تمتعها بالحياة — نعم

---

(١) السلفى ٢/٤١٦ .

(٢) المكتبة : ١١٥ .

(٣) Freeman : Hist. of Sicily, vol. I, p. 4.

كانت صقلية الإسلامية جزءاً من عالم يدين بدين واحد ولكنها فى البحر المحيط بها استطاعت أن تنبت أجيالاً صقلية المشاعر مسلمة الدين . إلا أن الهجرات المستمرة وغلبة العناصر الغريبة على بعض نواحى الحياة فيها كانت تضعف من قوة هذه الروح أيضاً . ولذلك رأينا مع الشعر الصقلى دائماً شعراً آخر يعيش إلى جانبه هو الشعر المهاجر الوارد إليها من إفريقية وغيرها .

وفى هذه الحقيقة ، أى القول بأن صقلية كانت ملتقى شعوب لا وطناً لشعب صقلى نجد تفسير الضعف الذى نلمسه فى إقليمية الشعر أو وضوح النواحى الإقليمية فيه — وهى حقيقة تضاف إلى ما تحدثت عنه من عوامل كروح المحافظة ، وحب التقليد للأمثلة الشرقية ، والإيمان بمبادىء النقد التى تكونت فى المدرسة الإفريقية ، وكون هذه الأجناس التى افتتحت صقلية وتعهدت الشعر فيها إنما هى أجناس حظها قليل من المقدرة اللغوية والأدبية ، فإذا وضعنا كل هذه الأسباب معاً عرفنا لمَ غلبت الصبغة التقليدية على الشعر فى أدنى صورها . حتى إنا قلما نعثر بشعر قد اخترق أسوار التقليد وشق لنفسه طريقاً جديدة ، أو طريقاً فيها شىء كثير من الجدة .

فالصبغة العامة للشعر هى الصورة التى نلمحها فى الشعر العربى حين أصبح نماذج مكررة يسرى عليها التقليد ، وتتمشى فيها المبالغة بقدم عنيفة ، ويتوارثها الشعراء كأنها ملك عام لهم ، فى هذا الشعر لا يزال النهد كالرمان والورد يلوح من الوجنتين ، والعذار ميدان لهو يتسابق فى وصف جماله الشعراء ، والفم لؤلؤ فى شقيق ، والجفن حد سيف مرهف . ولا يزال الشيب والخضاب فيه موضوعاً للأسى والأسف ومفتاحاً لتذكر الشباب واسترجاع الندم على فواته . حتى التعبير عن هذه الحقائق لم يصبح موضع تميز يفرد شاعراً عن شاعر حتى يقال فيه ما كان يقوله الأقدمون إنه قد استحق هذا المعنى وأصبح به جديراً — ولا يزال الشاعر ينوء إلى ما اختزنه من دراسات فى الصبا فإذا رأى الجميل ذكر يوسف

ذكراً عابراً ، وإذا قيل له أنت قد سرقت قبلة وحد السرقة واجب عليك ، تفقه فى الجواب بقوله : إن الحد لا يجب إلا فى السرقة من حرز ، وإذا رأى المرجان الذى تصنع منه التماثيل تذكر داود الذى ألين له الحديد . وهو فى هذه الإشارات والتلويحات يبنى على أسس كانت حية فأحالها إلى التركز والثبات ، وأخذ يستدعيهـا لتعينه على نقل أفكاره ومشاعره . وكلما انصرفت نفسه إلى الليل لم يستقل بتصوير تأثره ، ولكنه كان دائماً يستحضر معنى النابغة فيه ؛ فهو إلى جانب مخزوناته من فقه وقصص قرآنية يوىء إلى ما يملكه من معان شعرية ومن أمثال وحكم لقنها فى نشأته. وكان اهتداؤه إلى هذه الأمثلة المقدسة المرعية هو الشاعرية الحقة فى عصره ، ومن الظلم أن نحاسبه فى الشعر بما نحب ونكره ، حتى التكرار الممل للصورة الواحدة فى تلك العصور لم يكن أمراً منكراً يضيق به الناس كما نضيق به نحن اليوم .

فالشعر الصقلى بهذه النظرة هو الطاقة التى هيأت لها جميع النواحى فى الحياة من اجتماعية وثقافية وسياسية ، فهو كفاء بحاجة الناس الذين من أجلهم وجد وعن نفوسهم عبر . وعلى هذا الاعتبار — أى على أنه طاقة اشترك فى إخراجها عوامل متعددة حتى كانت على هذا الوضع — يتقدم الدارس لدراسته . فالضعف فيه ظاهر بالنسبة لمقاييسنا . ويتجلى الضعف فى أشد حالاته حين تكون المقاييس التى نستعملها فنية — عندئذ يتفتت هذا الشعر ولا يقف عند مقياس فنى . ومن ثم تجنبت الحكم على فنية هذا الشعر قدر المستطاع ، وإن كان من العسير كثيراً أن أدرس هذا الشعر وأخرس أثناء دراستى له صوت النقد ، فأقل ما فى هذه الطاقة وأضعفه جانبها الشعورى ، حتى ليقال إن حظ هذا الشعر فى الضعف وفير فى كل ناحية — التعبير قاصر فى الأكثر ، والموضوع ميت لا حياة فيه . وقد حاول ابن حمديس أن يجعل صقلية موضوعاً لقصيـــدته ، ويجعل فكرة الوطن محط التعبير فى شعوره ، فلم ينجح كثيراً وعاد يتأثر التقاليد الموضوعة ويخلط بين صقليـــة وبين الطلل — والدراسات الفقهية

تغمر هذا الشعر بقواعدها ، والوعظ الدينى يسيطر عليه بنصائحه ومقاييسه الخلقية . وفكرة المناظرة تنخر فيه — فمناظرة بين الشيب والشباب ، والسوداء والبيضاء— وكلها تدور فى رأس الشاعر الذى يحاول أن ينتصر للشىء وضده ، ويظهر بذلك براعته . وهى لوثة جاءته من المشرق أيضاً . والشكل ظاهر على كل ما حوله عند الشاعر وهمه أن تتوفر له المقدمة ثم يتوفر له التخلص ولا يعنيه بعد ذلك شىء فى اللب الذى تقوم به القصيدة . وللغزل والرثاء وغيرهما طابع لا يفارقه الشاعر . فكل غزله تذلل وشكوى وضراعة وسهر ... إلخ ، وكل رثائه جار على نمط قول الشاعر الصقلى : « للموت ما يولد لا للحياة » . . والتذكير بأن النفس عارية مردودة ، والتهويل بالفاجعة التى كادت تهز أرجاء الكون أو لعلها هزتها بالفعل — كما يفعل أبو تمام فى مراثيه — هذه هى حال الشعر فيما يتناول من أمور ، ودع عنك ما سقط الشعر دون تناوله فذلك كثير — وقد بينت منه طرفاً فى فصول سابقة .

بهذا الضعف يقف الشعر الصقلى إذا قورن إلى أمثلة من الشعر العربى نفسه ، فكيف لو حاولنا أن نضعه بإزاء الشعر اليونانى كما فعل البارون فون شاك ؟ إننا عندئذ نقدم قزماً ليقف إلى جانب عملاق ضخم ، وهى مقارنة غير مستجلبة أو مقتسرة — على أى حال — لأن الأدبين عاشا فى الجزيرة وخضعا لبيئة طبيعية متشابهة ، وتكاد النتائج التى تتمخض عنها أية مقارنة لا تكون أسوأ من هذه النتائج التى تحصل عليها حين نجرى المقارنة بين ما أنتجته صقلية الإسلامية وما أبدعته هيلاس [١] .

وقد لحظ شاك أن هذا الشعر العربى الصقلى يشارك الشعر العربى الأندلسى خصائصه الأساسية ، وإذا قلنا الأساسية كان هذا القول صحيحاً لأن التمييز الفارق

---

(١) Shack : Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien vol, 2, p. I.

فى الشعر الأندلسى — فيما يظهر — كان قليلاً ، ولكنه على أية حال أظهر تميزاً من الشعر الصقلى . ويجد شاك سر هذا التقصير فى أن العرب يتذبذبون فى دائرة ضيقة من الآراء والأفكار ، وهذا ما يوصف عادة بروح المحافظة الغالبة عليهم . وهم قد جهلوا أساطير الأمم التى سبقتهم فلم يعرفوا شيئاً عن نبع أرثوسة وعن وادى يانة حيث كانت برسيفونة وصواحبها يجمعن الأزهار ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن عالم الأوديسية إلا ما تسرب منها إلى أسطورة السندباد ، ولم يرد لأتنا الشامخ ذكر فى شعرهم أبداً مع أن جغرافييهم وصفوه وصفاً دقيقاً . ولا جذب انتباههم تلك العظمة المتداعية التى كانت تمثلها المدن وهياكلها ، لا شىء من ذلك أبداً [1].

حقاً إن المسلمين لم يعرفوا شيئاً من هذا الذى يذكره شاك لأن قداسة الأمور الأرضية كان قد انتزعت من أنفسهم وعادوا يرون فى أرثوسة وإتنا مظهراً عادياً ، ولكنهم مسئولون عن إغفالهم الجمال — لا القداسة — فى هذه المناظر وقد حاولت من قبل أن أشير إلى ضعف صلتهم بالبيئة الريفية فى وطنهم لأسباب ذكرتها هنالك .

ويرى هذا المؤرخ الناقد أن الشعر العربى فى الغرب كان نبتة من أرض بعيدة ، يتوقع لها أن تستمد أنواعاً جديدة من التغذية ، حيث زرعت فى التربة الجديدة ، ولكنها تغيرت قليلا فى شكلها فى هذا المناخ الغريب ، ولم تتغير شيئاً فى أصلها . . . فكانت الصحراء هى التى تمد الشعراء بالمادة والصور فى قصائدهم ، وإذا كان شعراء أوروبة الحديثة يفيئون إلى ما تلقوه فى دراستهم من أدب يونانى أو رومانى ، فإن الشعراء العرب كانوا يرون مصادر وحيهم فى الحياة البدوية وما فيها من أبطال وشعراء ، ومنها استعاروا اصطلاحاتهم وتعابيرهم . فإذا تصوروا « أركاديا » تمثلوا وادياً مقفراً بين جبلين من الرمل تقوم فيه أطلال مية . . . الخ ولعب الجمل والغزال فى قصائدهم دوراً هاماً مع أنهما غير موجودين بصقلية .

---

(١) op. cit. p. 9.

ولعل صنعاء التى لم تكن خيراً من بلرم فى ازدهار عهدها كانت مثال الحضارة ومحط السعادة فى نظرهم ، وأمراء غسان والحيرة [١] يتبدون لخيالهم أعلى ما بلغه العالم من أبهة وجلال [٢] .

ولست أرى فى هذا الحكم جوراً على الشعر الصقلى ، بل لعلنى ذهبت إلى أبعد من ذلك فلم أبد إعجابى بذلك الشعر الذى يصور القصور والمتنزهات والبرك وأشجار الليمون والنارنج ويصف الحدائق والأزهار — لم أبد إعجابى بهذا الشعر الذى يفرده شاك بالعناية ويعده أصدق ما يمثل الطبيعة الصقلية حين يقول « وننصت بإعجاب إلى هؤلاء الشعراء حين يصورون الدور والقصور والزخرفة الفنية والسقوف فى أبهاء القصور والعرائش والنافورات المرسومة فى أشكال أسود ينبعث الماء من أفواهها . وننقاد فى سرور أيضاً وراءهم حين ينتقلون بنا بين الأشجار الخضر حيث يلتمع الليمون من بين الأوراق ويبسق رأس النخلة فى السماء . . . ونرحب بهم حين يطلقون العنان لعواطفهم ويتغنون بالحب البدوى دون توار أو مواربة . أو حين يصفون خمر سرقوسة ولياليها الصاخبة مصحوبة بأنغام المغنية وألحان الجوارى على الناى ، أو حين نسمعهم يتحدثون عن الإسلام الذى اندحر فى خضوع أمام المسيحية ، أو حين يمدحون الملك النورمانى ويصورون روعة بلاطه ، ويرسمون لنا حالة حضارة هى بين المسيحية والإسلام . فإلى هذه القصائد التى كانوا يبتعدون فيها عن التقليد ويستوحون الواقع المحيط بهم نريد أن نوجه اهتمامنا وفى هذه القصائد وحدها تخيم على الشعر الصقلى شخصيته المتفردة [٣] .

فى هذه النواحى التى يعددها شاك يكاد يكون الشعر الصقلى صادقاً لبيئته حقاً ولكنه صدق وحسب . أما الأصالة الفنية فى هذا الشعر فشىء نادر جداً وكثير من هذه الصور التى يذكرها شاك مستمدة من ابن حمديس نفسه مثل

---

(١) فى نقش شعرى بقصر رجار أنه فاق الخورنق والسدير .

(٢) Schak : vol, 2, p. 9-10.

(٣) op. cit. p. 10-11.

ليالى سرقوسة وخمرها والحديث عن الإسلام الذى ارتد على أعقابه أمام المسيحية ، وهى صور جميلة فى الواقع ، فابن حمديس قد استطاع أن يرتفع بالشعر الصقلى ارتفاعاً يجعل له موضعاً بين سائر الشعر العربى ، وأما تلك المدائح التى كانت تقال فى الملك النورمانى أو التى قيلت فى وصف المتنزهات والقصور ، فقد قلت فيها رأيى من قبل ، وإن كنت لا أنكر أبداً أنها خير ما يصور صقلية فى صدق. وموطن الطرافة فيها تلك الروح التسامحية التى يعيش بها المادح والممدوح على تباين الدين ، فى عصر لم يكن يسمح بذلك التسامح . وفيها شعور ساذج بالجمال — ساذج جدا — وهى بهذا القدر وحده جميلة فى الشعر الصقلى .

وإذا قلت الشعر الصقلى عنيت دائماً هذا القدر منه ، فإن هذا القدر الذى نملكه يكاد لا يتمتع بشىء يميزه . فمظاهر القوة فيه قليلة ولكنها غير منعدمة . وقد رأينا فيه خروجاً على بعض النواحى التقليدية وعرفناه تخطى قاعدة التذلل فى الحب ، وشهدنا كيف يعلو الشاعر أحياناً فى رقة فيقول :

لىَ وعدٌ دون عينيك مضَى دونه عمرى ووافَى أجــلى

كما فى أشعار عبد العزيز البلنوبى وهو من أصدق الشعراء الصقليين أصالة فى القطع التى رويت له ، ولكنها قليلة بحيث لا تستطيع أن تعطى عنه صورة صادقة ، وستعجبك فى هذا الشعر بعض الصور كقول ابن الخياط :

ترى كبرياء الحسن فى لحظاتهم تشــاب برهبانية المتعبــد

أو كقول ابن حمديس :

وقد سكنت حركات الأسى قيــان تحــرك أوتارهــا

وستجد فى الخصائص العامة لهذا الشعر تلك النعومة المتشهية التى تغلب على شعر عبد الرحمن البلنوبى ، أو ما يسميه شاك الخضوع للمتعة المؤقتة المستمدة من الطبيعة الجميلة ، حتى لتكاد تظن فى هذه الخاصة ، أنك لم تبعد كثيراً عن

ثيوقريطس على اختلاف فى الناس والزمان . والحق أنى لست أذكر بهذا الشعر شاعر الرعاة وكيف يأخذ جماعة الرعاة عنده بالغناء تحت شجرة الصنوبر وفى ظلها الظليل والجنادب الداكنة تصوت وتصر والريح المثقلة برائحة الأزهار فى الحقول تداعب الجفون بالسنة — لست أرى هذا فى الشعر الصقلى العربى إلا إذا كانت الرائحة المنبثة فى أشعار ابن حمديس وغيرها تستطيع أن تنقل قارئها إلى ذلك الجو الريفى الجميل .

ولقد طال بى الحديث عن نقد هذا الشعر حتى لأحسبنى جرت عليه فى التقدير ولكن ما إلى هذا قصدت ، فأنا أتحدث عن الشعر الصقلى وحده ، وهذا يجعل نقدى له يبدو أكبر مما هو ، ولو قد نقد هذا الشعر فى نطاق عام ، لو قد أخذ بين الشعر العربى جميعاً لأصابه نصيبه العادل من النقد ، إذ لم يكن الشعر الصقلى غريباً بمظهره ذاك فى تلك العصور وأكاد أقول ولم يكن ضعيفاً ، وهؤلاء هم الشعراء الصقليون لم يموتوا فى البيئات التى انتقلوا إليها حين هاجروا من وطنهم بل عاشوا إلى جانب غيرهم إن لم نقل تفوقوا عليهم ، وابن حمديس وأبو العرب فى الأندلس مثالان واضحان على ذلك . وأسارع فأضيف أن العوامل التى دخلت فى تقديرهم لم تكن دائماً عوامل فنية ولكنها كانت هى العوامل المؤثرة فى تقدير غيرهم .

٣

الموقع الجغرافى والسمات التى تركها فى الشعر

غير أن صقلية البحرية ، القريبة من جنوبى إيطاليا ، المتصلة مع بلاد الإسلام بصلات ثقافية واجتماعية ، قد أثرت هذه النواحى منها فى الأدب تأثيراً واضحاً . وخضوعاً لهذه المظاهر التى نجملها باسم الموقع نجد للشعر الصقلى ثلاث سمات بارزة :

(ا) السمة الحربية : وهى أول الصفات التى نشأت من موقع الجزيرة وقيام حياتها على الجهاد، لقربها من جنوبى إيطاليا واضطلاع أمرائها بالجهاد فى ذلك الاتجاه ، وقد وجدنا هذه السمة الحربية موضوعاً فى الشعر فهنا تصور مناظر القتال وحياة الأمير المجاهد ، ومن هنا يستمد ابن حمديس موضوعات البطولة التى يسبغها على بنى قومه أو بعبارة أخرى الفخر بالقوة الحربية والفتك بالروم . ومن هنا تسربت إلى الشعر الصقلى أيضاً معانى القتال وتشبيهاته فى موضوعات كالغزل ووصف الخمر وغيرها . فقد تسمع الشاعر يصف الخمر بأنها تفتك بالهموم أو بأنها تغير عليها ، وتسمعه إذا وصف روضة شبه الأشجار بالجنود والأغصان بالرماح ، وعند استقصاء هذه الناحية فى الشعر يتبين أنها ليست مجرد صور تقليدية يأخذها الشاعر من غيره فقد تكون كذلك ولكن لا ريب فى أن للحقيقة المستمدة من البيئة أثرها فى تصور الشاعر وتصويره .

(ب) السمة البحرية : ففى هذا الشعر الصقلى ما يمكن ، أن نسميه شعر البحر — فيه وصف المعارك البحرية والسفن المقاتلة وغير المقاتلة وخاصة فى أشعار ابن حمديس ، وفيه تصوير عام لانقضاء السيادة الإسلامية فى البحر

---

(١) المكتبة : ١٥٢ — ١٥٣ .

يتمثل لك فى قول أبى العرب الصقلى لما دعى إلى الأندلس :

لا تعجبنّ لرأسى كيفَ شابَ أسىً … واعجبْ لأسود عينى كيفَ لم يشب
البحر للروم لا تجرى السفين بـــه … إلا على غرر والـــبر للعرب

وفيه تصوير للسيادة البحرية أيام العصر النورمانى فقد أسر أسطولُ صاحب صقلية أحدَ بنى رواحة مع عصبة فوقف أمام الملك وأنشده قصيدة يمدحه بها ويقول فى وصف الواقعة :

أيا ملكاً جالت أساطيلُ جيشه … فأعظمت القتلى وأكثرت الأسرى
وأجريتّها فى لجة الماء إذ جـــرى … فأسكرته جرياً وأجريتّهـــا بحـــرا
وكنا لما تجرى المقادير عصبـــة … ركبنا به والموج يخطفنا ذعرا
وجاءت من الأسطول طيرٌ مسفّةٌ … أحاطتْ بنا من كل ناحية قسرا
فقمنا إليـــه ثائرين لدفعـــه … نغالبهُ قهراً فعاجلنـــا قهـــرا

ومع بساطة هذه الأبيات فإنها صادقة فى دلالتّها على سيطرة الأسطول النورمانى حينئذ وكثرته وقوته .

وفى هذا الشعر عامة شعور بالخوف من البحر ، ويؤيد هذا الخوف واقع السفر البحرى يومئذ . وفى رحلة ابن جبير وفى وصف ابن قلاقس للبحر وأهواله فى كتابه « الزهر الباسم » ما يزيل دهشة من يستنكر مثل هذا الخوف . فكان البحر مما يتجنب ، ولذلك كانت صورة البطولة فى السفن البحرية أقوى من صورة الجهاد البرى عند ابن حمديس ، وعند هذا الشاعر يكبر الخوف من البحر ، لأن هذا البحر هو الذى أخذ جاريته جوهرة ، ولأنه نفسه كان ذات يوم فى الغرق حين حاول مرة أن يذهب لزيارة أهله ، ثم هو يمقت البحر الذى يفصل بينه وبين وطنه ، ويمكن لأعدائه سيادة وتبسطاً ، ولذلك امتلأ شعره شعوراً به وكثر انتزاعه للصور منه . ولعل افتخاره بقطع الصحارى وركوب السفائن البرية ، وصبره على

أهوالها ، تعويض لما كان يحسه من نفور إذا وقف إزاء البحر ، فقد عاد ابن حمديس إلى إفريقية ووجد فى مصاعب البداوة ما تقبله نفسه ، أما أخطار البحر فلم يكن له صبر عليها . وقد دخلت صورة البحر فى تشبيهات الشعر الصقلى وأبرز ما هو مستمد منه ، صورة الشبكة فى وصف الخمر وتكاد تكون عامة فى الشعر الصقلى فيكررها ابن حمديس — كما مر من قبل — ويضيف إليها صورة الغائص الذى يذهب إلى القعر ليستخرج الدر — أى صورة الحباب حين يطفو عند ما يصب الماء على الخمر . وهى فى شعر أبى العرب الصقلى حيث يقول :

كادت تطير نفـــاراً حين نافسها … لولا الشباكُ التى صيغتْ من الحبب

وهى فى شعر الأمير ابن القاسم الكلبى فى قوله [1] :

كأن حبابها شبكٌ مقـــيم … لصيد الألسن المتطايرات

(ج) الرسائل الشعرية : فإن صقلية أولا بتوسطها فى موقعها وثانياً بهجرة بعض أهلها وبقاء البعض الآخر فيها ، قد أصبحت ترسل وتستقبل الرسائل الكثيرة . وكانت أكثر الرسائل الإخوانية بالشعر ، ولعل هذه الظاهرة هى أوسع الظواهر وجوداً فى الشعر الصقلى ، ومنها كثير فى شعر ابن أبى البشر ، وكان شعراء العصر النورمانى يراسلون بعضهم بعضاً وهم فى صقلية ، كما يراسلون جماعة من أصدقائهم فى الخارج ، كأبى الضوء الذى كان يراسل الشاقى الصقلى ، وكان أبو الصلت يراسل كثيراً من شعراء عصره ، وحوله قام نشاط أدبى واسع فى هذه الناحية . وكذلك كانت المراسلات دائرة بين ابن رشيق وأصدقائه من الشعراء فى صقلية . ولو كان إحصاء هذه الكثرة مما يفيد لوجدنا أن قسطاً وافراً من الشعر الصقلى الموجود لدينا ليس إلا رسائل أو أجوبة على رسائل .

ولكن هذه الرسائل كانت أحد عوامل الجمود فى هذا الشعر بدلا من أن تكون سبب حياة . ذلك لأن هناك قيوداً يجدها الشاعر حين يرد على رسالة وصلته

---

(١) انظر الترجمة رقم ٦٦ من مجموعة الشعر .

من صديق له، ويرى نفسه إزاءها مضطراً إلى اصطناع بعض ما يستسيغه فى الرد، وماذا يقول شاعر أرسل له صديقه قصيدة يطلب فيها أن يعيره كتاباً ؟ ماذا يقول فى رده سوى أن يحشد ألفاظاً فارغة لا معنى لها، ومع ذلك فإن هذه الرسائل التى كانت تدور بين الشعراء تتناسب فى الواقع مع الشعراء أنفسهم ومع موضوعاتهم فهى عامرة بالرقة فى شعر ابن أبى البشر كما هو الشأن فى شعره عامة، وهى كذلك فى شعر أخيه عبد العزيز الذى يقول لبعض إخوانه :

كتبت أشكو إليكم ما وجدت بكم	من الغرام ومثلى من شكا فبكا
والله والله ثم الله ثالثـة	ما قصر البين فى قتلى ولا تركا
كأنّ بين ضلوعى حين يذكركم	قلبى جناح قطاة علقت شركا

وهى فى أشعار الفقهاء مثال الجمود والقصور فى التعبير حتى حين يكون الموضوع عتاباً، وهى عند ابن حمديس تستمد قوتها من الموضوع، وعلى يديه بلغت هذه الرسائل أعلى درجات الأصالة والقوة، وفى رسالتين [١] أرسلهما لابن عمته أبى الحسن بن أبى الدار الصقلى، بلغ ابن حمديس من إجادة التعبير عما فى نفسه حدًّا بعيداً وذلك من قوة الموضوع لأنه يتحدث عن غربته ويعتذر عن عدم تمكنه من القدوم على أهله ولأنه أيضاً يخاطب فيهما أبا الحسن وهو من الأقارب الأصدقاء الذين كان لهم تأثير فى حياته.

وبهذه الخصائص الثلاث عبر الشعر الصقلى عن واقع صقلية الجغرافى كما عبر بوصف المتنزهات والقصور ومجالس الخمور عن حياتها الداخلية. وهذه هى المظاهر البارزة التى تواجه الدارس للشعر الصقلى أول ما تواجهه، ضعيفة كانت أو قوية.

ولا بد من أن نلمح فى هذا الشعر أيضاً شعوراً بالمغربية تشير إلى نوع من الاستقلال الجزئى فى الروح عن المشرق وما يتعلق به، فإن صقلية كانت تشعر

(١) انظر الديوان، القصيدة رقم ٢١٥، ٢٨٢.

بحكم موقعها القريب من إفريقية وعلاقاتها بها أنها جزء من إفريقية ، وكان استقلالها فى المذهب قد أخذ يباعد قليلا بينها وبين الشرق حتى إن أحد الصقليين حين هاجر إلى العراق لم يستطع أن يشتهر بالفقه لأنه وجد الناس قد انصرفوا عن مذهب مالك ، ولا بعلم الكلام لأنه لم يكن قادراً على أن يسبق العراقيين فى هذا المضمار فحول اهتمامه إلى اللغة والنحو [١] . وهذا الشعور بالمغربية يتجلى فى تحميل الشعر مدح مالك ومذهبه ، وفى استيلاء فكرة جزئية على مخيلة الشاعر هى القول بالشمس التى تطلع من المغرب وخاصة فى الغزل كما فى قول أحدهم :

أهذه الشمس التى قلـتم   تطلعُ للناس من المغرب

وقول الآخر :

أيأسنى التوبةَ من حبـه   طلوعه شمساً من المغـرب

وسافر أحد شعراء المغرب إلى المشرق ثم عاد فكتب إلى ابن حمديس فأجابه هذا بقصيدة [٢] يقولْ له فيها إنه طلع على مصر فقالوا هذا هلال طالع من المغارب ، وفى مصر نيل ولكن فى المغرب البحر المحيط :

طلعتَ على مصر ونورك ساطعٌ   فقالوا هلال طالعٌ من مغاربهْ
وفى المغرب البحرُ المحيط وقد علا   على نيل مصر منه مد غواربه

وبهذا الموقع كانت صقلية أيضاً حصناً يدافع عن بلاد الإسلام ، فهى التى تتلقى الضربة الأولى دائماً ، أى هى ثغر على الحدود بين عدوين أحدهما فى الشمال والثانى فى الجنوب . وبهذا الشعور تنطق أشعار ابن حمديس فى حديثه عن الثغر وبنى الثغر وفى مثل قوله :

صقلية كاد الزمان بلادهـا   وكانت على أهل الزمان محارسا

---

(١) انظر Centenario ١ / ٣٨٠ فى ترجمة المازرى المعروف بالذكى .

(٢) القصيدة رقم ٢٦ .

والخلاصة أن صقلية بموقعها وببحرها وروحها الحربية استطاعت أن تتحكم فى توجيه الأدب ولكنها لم تستطع أن تتحكم فى تكوينه ، وإذا كان هناك شاعر يمثل جوانبها المتعددة فى وصف الخمر والبحر والجهاد ، وفى الروح الدنيوية وفى قوة التعبير عن هذه جميعاً فهو ابن حمديس ، ومع ذلك فإنه تكوين لم يتم لأنه فقد صقلية وهو أشد ما يكون تعلقاً بها ، ومن ثم صهرت كل هذه الاتجاهات عنده فى شعور بالوطن قد لا نجد له مثيلا عند أى شاعر آخر رثى وطنه .

٤

صقلية بين التأثر والتأثير

وبحكم هذا الموقع أيضاً كانت صقلية متأثرة مؤثرة — كانت تستقبل المؤثرات الخارجية المهاجرة إليها مع الكتب والمهاجرين على اختلاف مهنهم ، وظهر هذا التأثر فى فنها ، حتى لم يعثر دارسو الفن فى صقلية الإسلامية على ما يميزها فيه عن سائر أقطار الإسلام ، وظهر كذلك فى شعرها وخاصة فى صورته التقليدية — كانت متأثرة حين تعتبرها جزءاً من بلاد الإسلام ، وكانت مؤثرة حين تعتبرها جزءاً من ذلك العالم متفوقاً على ما حوله فى الحضارة ، حتى كانت حضارتها مما تقتبس ، وكان مبلغ الجودة فى الأشياء عند بعض العارفين بالحضارة الإسلامية أنه شىء يعجب اليونان والمسلمين ، وهذه الحضارة هى التى أحبها النورمان وشجعوها وجاء من بعدهم فردريك الثانى وابنه منفريد وسارا على منوالهم [١] .

وقد كان فردريك شخصية ذات جوانب متعددة فهو شاعر محب للفلسفة وتربية الحيوانات والتريض والصيد ، وهو مشرع مستنير يضطهد المارقين ، ويصادق اليهود والمسلمين ، ويحسن لغات عدة ويقول فيه معاصره سالمبين :

(١) Haskins : Studies in Med. Culture p. 124.

"لو أنه أحب الله والكنيسة لما كان له إلا أشباه قليلون!" وقد أصبحت شخصيته فى عهد مبكر موضوعاً للأساطير وصوّره الدينيون عدوّاً للمسيحية ، حتى جعله دانتى يصلى اللظى فى الجحيم مع ملحدى الأبيقوريين ، وهو فى القصص الشعبى الألمانى يشبه « المهدىّ المنتظر » متلبث فى الكهوف بين الجبال يرقب اليوم الموعود ليرجع فيعيد الإمبراطورية ويخلص المظلوم . وقد كانت الثقافة الإسلامية ذات أثر فعال فى حياته وتتحدث المصادر العربية أن الذى رباه وهو صغير قاضى صقلية وتصفه هذه المصادر بأنه كان فاضلا محبّاً للحكمة والمنطق والطب [١] .

فى بلاط ملوك النورمان، وفى بلاط فردريك الثانى وابنه منفريد كان الشعراء المسلمون ينشدون قصائدهم إلى جانب شعراء اليونان واللاتين . وليست لدينا الشواهد التى تظهر مقدار الصلة بين هؤلاء الشعراء ولكن كل الذى نعرفه أن مدرسة صقلية تنظم الشعر باللغة الدارجة تكونت فى بلاط غليالم الثانى ، وبلغت ذروتها حول فردريك ، الذى كان عارفاً باللسان اللاتينى واللغات الدارجة فى

---

(١) انظر ابن سعيد فى القسم الرابع من مجموعة الشعر الصقلى . والمكتبة الصقلية ص ٤١٩ ، ٥١١ ويقول فيه المقريزى «وكان هذا الملك عالماً متبحراً فى علم الهندسة والحساب والرياضيات . وبعث إلى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة فى الهندسة والحكمة والرياضة وعرضها على الشيخ علم الدين الحنفى المعروف بتعاسيف وغيره فكتب جواباً : (المكتبة= ص ٥٢٢) وكان يوجه إلى علماء المسلمين أسئلة منها المسائل الصقليات التى أجاب عنها ابن سبعين وفيها أسئلة عن قدم العالم وعن العلم الإلهى والمقولات والنفس . . . إلخ وفى بلاطه احتشد كثير من العلماء، ومنهم سكوت وترجم له عن العربية كتباً فى التنجيم وكتاباً لابن سينا ومنهم تيودور المنجم الأناضولى الذى ترجم له شرح المنطق لابن رشد والمجسطى لبطليموس وكان لديه أيضاً مسلمون عارفون بالبيزرة . وقد أتم ابنه منفريد العمل فى هذا الاتجاه وزاره ابن واصل صاحب مفرج الكروب رسولا من الظاهر بيبرس واجتمع به مراراً ووصفه بالتميز بالعلوم العقلية وأنه كان يحفظ عشر مقالات من كتاب أقليدس وصنف له الأنبرورية فى المنطق . وكانت مكتبته تضم كتباً فلسفية ورياضية باللغتين العربية واليونانية (انظر فى الحياة العقلية أيام فردريك وابنه صفحات كثيرة فى المكتبة الصقلية وكذلك الفصل الثانى عشر من كتاب Haskins : Med. Science وتاريخ أمارى ٣ / ٧١١ ومابعدها وكذلك عند Huillard - Bréholles ولم يجد جديد يضاف إلى ماكتب عن الحياة العلمية فى بلاط فردريك بعد هؤلاء الباحثين .

إيطاليا وفرنسا ، والذى كان يجتذب إلى بلاطه رجالاً ممتازين فى العلم والأدب [١] ولا شك أنه تم فى عصره وبتأثير منه تقدم فى تركيز الألفاظ والشكل والشعر فقد اجتمع فى بلاطه شعراء من عدة جهات لهم لهجاتهم المحلية فتخلوا عن كثير من محليتهم واتخذوا نموذجاً من القول يناسب المقام ، ومن المنتظر أنهم فضلوا اللهجة الصقلية على غيرها فى نظمهم [٢] وصقلوا لهجاتهم وجنبوها الخشونة والشذوذ اللذين فيها [٣] .

ولكى نتصور الحال الأدبية لا بد أن نذكر أن النظم حينئذ كان ألهيةَ البلاط ، كان فردريك وابناه ومستشاره يتابعون هذه الهواية ، وكان الكتاب والقضاة والمحامون يخففون عبء الزمن البطىء بالنظم ، حتى إن أحدهم تقدم مرة إلى فردريك وأنشده قصيدة فتوجه بأكليل ولقبه « ملك القريض » [٤] .

حينئذ كان الأدب باللغة الدارجة قد أخذ ينافس الأدب باللاتينية ، ففتح أمام الناس ينابيع جديدة تهيىء لهم التمتع بالحياة . وفى بلاط فردريك أخذ الوزن الشعرى صورته التى جرى عليها الشعر الإيطالى فيما بعد [٥] . وبدأت فيه بوادر القافية وأشكال معينة من الشعر منها Tenzone, Canzone .

ولكن هذا الشعر الذى نشأ فى بلاط فردريك تقليدى محافظ ضحل ، أولا لأنه نتاج جماعة أرستقراطية ، وثانياً لأنه ترسم مثلا معينة كان قد جرى عليها شعر بروفانس مدة طويلة فتحجرت . فما كان من هذه المدرسة الصقلية وتقليدا لتلك الأمثلة بلغة جديدة فهو شعر ضعيف البنية فى مهده ، ولا بد أن يظهر فيه الحبيب المهجور كالأوزة التى تغنى أغنيتها الأخيرة ، وهى تطلع فى الغيب على

---

(١) J. A. Symonds : Renaissance in Italy - Italian Lit. part 2 p. 18.

(٢) op. cit. p. 19.

(٣) op. cit. p. 20.

(٤) H. Fisher : The Med. Empire, vol. 2, p. 266.

(٥) Symonds : part 2, p. 20.

دنو المنية . وشعلة الحب كالذهب المصفى ، وبسمة من الحبيبة تسوى الجنة ، فهى وردة وزنبقة ونجم ومرآة للأنوثة ، وهى تقتل بعينيها ، وحبيبها يعيش فى لظى الحب ، ولو استطاع أن يعبد الله كما يعبدها لدخل الجنة[١] .

ومن العسير الشاق أن نحدد للشعر العربى صلة بهذه المدرسة من ناحية أو بالحركة الشعرية عامة فى صقلية وجنوبى إيطاليا .

فالشعر الصقلى العربى قليل إذا كانت مشكلة التأثير موضوع البحث ، وليس بين أيدينا منه شىء من الموشحات أو الزجل وهى التى أحدثت أثراً فى شعراء التروبادور بجنوبى فرنسا ، ثم إن الشعر الذى بقى من المدرسة الصقلية قليل أيضاً يجعل إثبات المسألة صعباً . ولكن الذى حدث فعلا هو أن الاتصال الحضارى بين المسلمين وغيرهم بصقلية وجنوبى إيطاليا ، ثم تلك النهضة العلمية التى كانت فى بلاط ملوك النورمان وعند فردريك وابنه ، قد خلقت فى الواقع جوًّا من الحيوية هو مجال التأثر . وقد كان أمثال يوجين فى عهد غليالم الثانى يعرفون اللغة العربية ويترجمون عنها كتباً ليست كلها ذات صبغة فلسفية أو رياضية ، فلم لا يكون أمثال يوجين ممن ينظمون الشعر ويشتغلون بالدراسات العربية قابلين للتأثر ؟ ورب قائل يقول إن الضعف الذى تمثل به الشعر الصقلى يجعل من العبث أن نتخذه أداة للتأثير فى غيره ولكن هذا الضعف الذى نراه نحن اليوم لا ينفى أن هذا الشعر كان يمثل فى عصره اتجاهات معينة .

---

(١) H. Fisher : The Med. Empire, vol, 2, p. 269.

مصادر البحث

١ – المصادر العربية :

(ا) المخطوطة

١ – ابن سعيد = على بن موسى

المغرب فى حلى المغرب ، الجزء الثالث والرابع من نسخة مخطوطة رقم ٢٧١٢ بدار الكتب المصرية .

٢ – ابن قلاقس = الأعز نصر الله بن فتوح

ترسل ابن قلاقس نسخة رقم ٦١٧ أدب بالمكتبة التيمورية .

٣ – ابن مكى = أبو حفص عمر بن خلف الصقلى

تثقيف اللسان ، مكتبة مراد ملا رقم ١٧٢٥ ومنه صورة (فيلم) بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .

٤ – أبو الحسن الصقلى = على بن عبد الرحمن البناوبى (ابن أبى البشر)

الجزء من ديوان أبى الحسن الصقلى رواية الفقيه الحريمى بمكتبة الأسكوريال رقم ٤٦٧ ومنه صورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .

٥ – أبو إسحاق بن أغلب = مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة .

نسخة مصورة رقم ٢٢١٦ تاريخ بالمكتبة التيمورية .

٦ – البرادعى = أبو سعيد خلف بن أبى القاسم الأزدى

تهذيب المدونة . نسخة خطية رقم ٤٠٥ فقه مالكى بدار الكتب المصرية

٧ – السلفى = أبو طاهر

معجم السلفى = نسخة مصورة فى مجلدين رقم ٣٩٣٢ تاريخ بدار الكتب المصرية .

٨ ـ الصفدى = صلاح الدين خليل بن أيبك

(ا) الوافى بالوفيات الجزء الثالث بمكتبة أحمد الثالث رقم 2920-21
ومنه صورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .

(ب) الوافى بالوفيات نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ١٢١٩
تاريخ وخاصة الجزء السادس .

(ح) أعيان العصر وأعوان النصر الجزء الثانى من نسخة مصورة رقم
١٠٩٤ تاريخ بدار الكتب المصرية .

٩ ـ عبد الحق بن محمد بن هارون الصقلى

مسائل للشيخ عبد الحق وأجوبتها للإمام الجوينى ضمن مجموعة بخط مغربى
دقيق رقم ١١ ش ، فقه مالكى بدار الكتب المصرية .

١٠ ـ العماد الأصفهانى

(ا) خريدة القصر الجزء الحادى عشر والثانى عشر من نسخة
مصورة رقم ٤٢٥٥ بدار الكتب المصرية

(ب) قطعة من أول الجزء الثانى تحتوى على مختارات من الزهر الباسم
لابن قلاقس بمكتبة نور عثمانية رقم (٣٧٧٤) ومنها صورة
بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية

١١ ـ عماد الدين الصقلى ـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله

(ا) الأنوار فى علم الأسرار ومقامات الأبرار ضمن مجموعة مخطوطة
رقم ٢٣ تصوف بدار الكتب المصرية ، ومعه أيضاً

(ب) كتاب فيه الدلالة على الله تعالى للمؤلف نفسه

١٢ ـ العمرى = ابن فضل الله

مسالك الأبصار ، نسخة مصورة رقم ٥٥٩ معارف عامة بدار الكتب
المصرية

١٣ — عياض القاضى
ترتيب المدارك ، مجلدان بخط مغربى رقم ٢٢٩٣ تاريخ بدار الكتب المصرية .
١٤ — القفطى = على بن يوسف
(ا) إنباه الرواة مخطوط فى مجلدين رقم ٢٨٠١ تاريخ بدار الكتب المصرية .
(ب) المحمدون من الشعراء ، مصور عن خزانة باريس تحت رقم ٢٢١٧ تاريخ بدار الكتب المصرية .

(ب) المطبوعة

١ — ابن الأبار = أبو عبد الله محمد بن أبى بكر القضاعى البلنسى (توفى ٦٥٩ هـ)
التكملة لكتاب الصلة ، جزءان فى مجلد واحد طبع مجريط سنة ١٨٨٩ م
٢ — ابن أبى أصيبعة = موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة (— ٦٦٨ هـ)
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جزءان طبع الوهبية سنة ١٨٨٢ م .
٣ — ابن الأثير (— ٦٣٠) هـ
الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزءاً طبع مصر .
٤ — ابن بسام الشنترينى (— ٥٠٣ هـ)
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٥ — ابن بشكوال = خلف بن عبد الملك بن مسعود الأنصارى (— ٥٧٨ هـ)
الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم . طبع مجريط سنة ١٨٨٢ م .
٦ — ابن البيطار — ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد الأندلسى المالقى

كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية . أربعة أجزاء فى مجلدين .
ط مصر سنة ١٢٩١ هـ .

٧ ــ ابن جبير الكنانى البلنسى (ــ ٦١٤ هـ)
الرحلة ، نشر وتحقيق رايت . ط . ليدن سنة ١٩٠٧ .

٨ ــ ابن حجر العسقلانى (ــ ٨٥٢ هـ)
لسان الميزان فى ٨ أجزاء ط . الهند .

٩ ــ ابن حمديس = أبو محمد عبد الجبار (ــ ٥٢٧ هـ)
الديوان ، نشر جلستينو سكياباريللى روما سنة ١٨٩٧ م .

١٠ ــ ابن حوقل = أبو القاسم أحمد (القرن الرابع الهجرى)
صورة الأرض = الطبعة الثانية فى جزءين ــ الجزء الأول منها .

١١ ــ ابن خلدون عبد الرحمن (ــ ٨٥٨ هـ)
(ا) المقدمة ط. بيروت
(ب) العبر وديوان المبتدأ والخبر سبعة أجزاء ط . بولاق .

١٢ ــ ابن خلكان القاضى شمس للدين (ــ ٦٨١ هـ)
وفيات الأعيان ٣ أجزاء ط . بولاق .

١٣ ــ ابن رشيق القيروانى = الحسن بن على (ــ ٥٦٣ هـ)
العمدة فى صناعة الشعر ونقده جزءان فى مجلد ــ ط . الخانجى

١٤ ــ ابن ظافر الأزدى = أبو الحسن على (ــ ٦٢٣ هـ)
بدائع البدائه على هامش معاهد التنصيص فى جزءين ــ ط . مصر سنة ١٣١٦ هـ .

١٥ ــ ابن عساكر ــ الحافظ (ــ ٥٧١ هـ)
تهذيب التاريخ الكبير ــ ط . مطبعة روضة الشام .

١٦ ــ ابن فارس أحمد .

الصاحبي ط . السلفية .

١٧ – ابن فرحون – إبراهيم بن على بن محمد (– ٧٩٩ هـ)
الديباج المذهب فى معرفة علماء المذهب – ط . مصر ١٣٢٩ .

١٨ – ابن ميسر المصرى – محمد بن على بن يوسف بن شاهنشاه (– ٤٢٠ هـ)
أخبار مصر جـ ٢ – ط . المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩١٩

١٩ – الاصطخرى (القرن الرابع الهجرى)
مسالك الممالك – ط . بريل سنة ١٨٧٠

٢٠ – أمارى = ميشيل
ا) المكتبة الصقلية ومعها ملحقان
ب) العيد المئوى لميلاد ميشيل أمارى
Centenario della nascita di M. Amari

٢١ – الأنطاكى = داود (– ١٠٠٨ هـ)
تزيين الأسواق – ط . بولاق سنة ١٢٩١ هـ

٢٢ – التجيبى = أبو طاهر (فى القرن الخامس الهجرى)
شرح المختار من شعر بشار . ط لجنة التأليف

٢٣ – جويدى = أغناطيوس
محاضرات بالجامعة المصرية سنة ١٩٠٧ .

٢٤ – الخفاجى = شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر (– ١٠٦٩ هـ)
طراز المجالس – ط . المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٤ .

٢٥ – الدميرى
حياة الحيوان الكبرى فى جزءين – ط . مصر سنة ١٣١٩ .

٢٦ ــ سبط ابن الجوزى = شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قيزا أوغلى .
مرآة الزمان جـ ٨ أخرجه جويت بالزنكوغراف سنة ١٩٠٧ .
٢٧ ــ السبكى = تاج الدين عبد الوهاب (ــ ٧٧١ هـ)
طبقات الشافعية الكبرى ــ ط . المطبعة الحسينية فى سبعة أجزاء (الطبعة الأولى) .
٢٨ ــ السمعانى ــ أبو سعيد عبد الكريم بن أبى بكر (ــ ٥٦٢ هـ)
كتاب الأنساب ــ طبع حجر بالزنكوغراف ، المخطوطة المحفوظة بمكتبة المتحف البريطانى سنة ١٩١٢ .
٢٩ ــ السيوطى = جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ــ ٩١١ هـ) .
بغية الوعاة ــ ط . الخانجى
٣٠ ــ الشعرانى ــ عبد الوهاب (ــ ٩٧٣هـ)
الطبقات الكبرى ــ ط . العثمانية بمصر سنة ١٣٠٥ هـ
٣١ ــ صاعد الأندلسى = أبو القاسم (ــ ٤٦٢ هـ) .
طبقات الأمم ــ ط . الآباء اليسوعيين ببيروت .
٣٢ ــ القزوينى ــ زكريا بن محمد بن محمود (ــ ٦٨٢ هـ)
آثار البلاد وأخبار العباد ــ ط . ليدن سنة ١٨٤٨ م .
٣٣ ــ القفطى = جمال الدين على بن يوسف (ــ ٦٤٦ هـ)
أخبار العلماء بأخبار الحكماء ــ ط الخانجى
٣٤ ــ القلقشندى ــ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على (ــ ٨٢١ هـ)
صبح الأعشى فى ١٤ جزءاً ــ ط . الأميرية بالقاهرة
٣٥ ــ الكندى = أبو عمر محمد بن يوسف (ــ ٣٥٠ هـ)
كتاب الولاة والقضاة ــ نشر ريفون جست ومعه ملاحق من رفع الإصر وغيره . ط . بيروت سنة ١٩٠٨ م
٣٦ ــ المقدسى = شمس الدين أبو عبد الله البشارى (القرن الرابع الهجرى)

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ج ٣ فى المكتبة الجغرافية) . ليدن سنة ١٨٧٦ م

٣٧ ــ المقرى = شهاب الدين أحمد بن محمد (ــ ١٠٤١ هـ)
أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر

٣٨ ــ المقريزى ــ تقى الدين أحمد بن على (ــ ٨٤٥ هـ)
١ ــ المواعظ والاعتبار فى أربعة أجزاء ــ ط . مصر سنة ١٣٢٥
٢ ــ اتعاظ الحنفا تحقيق الدكتور الشيال ــ ط . دار الفكر العربى

٣٩ ــ مجهول ــ (فى القرن السادس)
الاستبصار فى عجائب الأمصار ــ نشر كريمر ــ ط . فينا سنة ١٨٥٢م.

٤٠ ــ ناصر خسرو ــ سفرنامه ــ ترجمة الدكتور يحيى الخشاب . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر

٤١ ــ النيفر = الشيخ محمد : عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب (جزءان) المطبعة التونسية ١٣٥١ .

٤٢ ــ النواجى = شمس الدين محمد بن الحسن (ــ ٨٥٩ هـ)
حلبة الكميت ــ ط . بولاق سنة ١٢٧٦ هـ

٤٣ ــ ياقوت بن عبد الله الحموى ــ (٦٢٦ هـ)
١ ــ معجم البلدان فى ثمانية أجزاء ــ ط . الخانجى سنة ١٩٠٦ م .
٢ ــ معجم الأدباء فى عشرين جزءاً ــ ط . دار المأمون .

ملحوظة : يجد القارى إشارات كثيرة إلى مجموعة الشعر الصقلى ، وهى مجموعة صنعتها ، أدرجت فيها ما وجدته من شعر الصقليين اعتماداً على ما فى الخريدة والمنتخل ، وابن سعيد ، وديوان البلنوبى وما ورد فى المصادر الأخرى مثل إنباه الرواة ، وأسماء المحمدين ، وشرح المختار من شعر بشار وغيرها (انظر المقدمة ففيها تفصيل القول فى مصادر الشعر) ، وقد رتبت هذه الأشعار ورقمتها ، لتكون مرجعاً ومعرضاً لما بقى من شعر الصقليين ، باستثناء ابن حمديس .

٢ – المراجع الإفرنجية :

1. Amari, Michele : a) Storia dei Musulmani di Sicilia, 3 vols. Seconda ediziene, Catania 1933-1939.
   b) le Epigrafi Arabiche di Sicilia, Palermo 1875.
   c) Su le iscrizioni arabiche de lpalazze Regio di messina (Memoria) 1880-1881.
2. Benjamin of Tudela : The Travels of, in Early Travels in Palestine, ed. by Wright,
3. Bradley : The Goths.
4. Bury : a) History of the Eastern Roman Empire.
   b) Cambridge Medieval History, vols. 2 &5
5. Curtis, Edmond : Roger of Sicily.
6. Dozy, Reinhart : Supplément Aux Dictionnares Arabes, 1927
7. Fisher, H. : The Medieval Empire, 2 vols.
8. Freeman, Edward. A. : a) History of Sicily in 4 vols. esp. vol. I, Oxford 1891.
   b) Sicily, Phoenician, Greek and Roman, 3rd edition 1892.
   c) The Normans at Palermo in Historical Essays, 3rd series, 1892.
9. Gregorio, Rosario : Rerum arabicarum quae ad historiam siculam spectant ampla collectio.
10. Gregorovius, F. : History of Rome in the Middle Ages.
11. Haskins, G. Homer : a) Studies in the History of Medieaval Science, 2nd edition, 1927.
   b) Studies in Med. Culture, Oxford 1929.
   c) The Rennissance of the 12th century, Cambridge 1928.

12. Hodgkin, Thomas : a) Italy and her invaders 4 vols. Oxford 1892.
b) Letters of Cassiodorus.

13. Mann, Jacob : The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs, 2 vols. 1920.

14. Martin Edward James: A History of the Iconclastic controversy.

15. Schack : Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien, vol. 2.

16. Scott, S. P. : History of the Moorish Empire in Europe vol. 2, 1904.

17. Symonds, John A. : The Renaissance in Italy — Italian Literature, part I.

18. Waern, Cicilia : Medieaval Sicily, 1910.

19. Williams : Historians' History of the world, vol. 9.

تم طبع هذا الكتاب بدار الثقافة
ص. ب. ٣٤٥ - بيروت - لبنان

الدكتور
إحسان
عباس

العرب
في
صقلية